

عبدہ خال

مدن تا گل العشب

WWW.MLAZNA.COM

^RAYAHEEN^

الہدایہ

القافلة لم توصل «يحيى» الصغير إلى حيث كان ينبغي أن يصل.
تتوزع الأماكن في حياته ويتعد واحدًا عن الآخر، كما يتوزع
الأهل المفترضون. لكن خيطاً يشد المنفرد في واحد هو السيرة
على اختلاف روايتها.

المسافات ما بين جدّة وقرية الأصلية تنأى، بقدر ما تكبر جدّة في
عينيه الصغيرتين. وكلما كبرت المدينة صغر حيالها.

ومضي الحياة، حياته وقد صار شاباً، في احتمالاتها. إلا أن صورة
الأطفال الذين جعلوا عبيداً ظلت طرية في ذاكرته التي لم تهرم.
والتحق فعلاً بمن وعدوه بالخلاص ولاحوا في عينيه مخلصين. غير أن
سيرته، مثل سير الضحايا الكثيرين، ظلت تلهث وراء أحداث كبرى
وعواطف مستحيلة. وفي النهاية كفت القدرة على الاحتمال، فكل
يوم تطلع الشمس لتقتل حلماً كنا نعيشه.

عبده خال قاص وروائي من جدّة، مشرف على الملحق الأسبوعي
الثقافي في جريدة «عكاظ». صدر له: «حوار على بوابة الأرض»،
«لا أحد»، «ليس هناك ما يبهج»، «الموت يمر من هنا»، «حكايات
المداد».

WWW.MLAZNA.COM



^RAYAHEEN^

ISBN 978-1-85516-883-1



9 781855 168831 >

DAR
AL SAQI



دار الساقى

رواية

مدن تأكل العشب

أمامي ترحل العصافير

الخروج للثي بهي شخايط سقطت من الكرسي الرابع

صباية الحنون ذلك ما جرى غرباء الجدالة قرب الضحى

الجدامة المدن والحقول المنسية أبكي على ما جرى لي يا هلي

انشعاب الوجوه الصعوداء صهى الجرح

الحبوب في الأماكن الرديئة اللون الأحمر دمننا

سيادة صاحب المجد ضربة السبت

لن ندخل المدينة

الهربة

عبد خال

عبد خال

مدن تأكل العشب



الهاق

الغلاف : نحت ل ساي تومبلي ١٩٩١.

إهداء

إلى رجل يمد قلبه للآخرين بالحب فتقاسمناه ليغدو
قلوباً ننض به...

إلى هاشم عبده هاشم

عبده

© دار الساقى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٨

الطبعة الثانية ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-883-1

دار الساقى

بنية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارول)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

استهلال

عزيزي القارئ:

ستجد في هذه الرواية أصواتاً متعددة ومتداخلة، ورأينا وجوب تنبيهك إلى أمرين مهمين، فهذا العمل يمثل روايتين متداخلتين، إحداهما لمؤلف مجهول وجدت فصول روايته بطريقة ما، فقمنا بدمجها مع عمل آخر لتكامل العملين بصورة متطابقة، أما الأمر الآخر فنحن نود أن نسجل اعتذارنا للمؤلف ولك على هذه البدعة المستحدثة.

الناشر

أنا لا أعرف جمال عبد الناصر وأنتم لا تعرفون جدتي.
جمال رفع شعار الوحدة العربية وفشل، وجدتي رفعت شعار
إغاثة «الملهوف وفشلت؛ والاثنان أحمل لهما حقداً دفيناً وأحملهما
مسؤولية ضياعي.

كان من الممكن أن أعيش بداخل قريتي كبقية أهل القرية،
أشغل بأي مهنة بسيطة وأعود في آخر الليل لأرغمي كبهيمة تفككت
نقراتها فاستسلمت للاسترخاء الطويل قبل أن تشد بحمولة أخرى،
كما كان من الممكن أن أظل «البح» بداخل السوق متبضعاً وبائعاً
لتلك السلع التي لا تدر سوى الدوار اليومي والعودة بالنزر البسيط من
المون اليومية، أو أن أظل داخل الحقول أزيح دويبات الأرض عن
سنابل تخفق لنسمات العليل المتدافعة أثناء الأصيل وأنشد مع الرعاة
أناشيد اللوعة الغائمة.

كان يمكن أن يحدث هذا لولا «فرعنة» جمال واستعجال جدتي
لإنضاجي قبل الأوان. وكان يمكن أيضاً ألا أتورط في حياة باردة
ووحدة قاتلة لا أجد فيها سوى نفسي أطارجها الهموم والشجن حتى
ملت من خواطري وهجرتني، وقادتنني لأن أهجر كل شيء وأدخل

إليها غريباً تتبادل التحايا الباردة وهز الكتوف وتبادل ظهورنا بمجرد إلقاء التحايا - حتى هذه التحايا تقاعسنا عن تبادلها مؤخراً.

تخاصمت مع كل شيء وتصدعت كجدار كان يقف عالياً. فجأة انهار وتكوم على بعضه ليكشف المستور. كانت تقف خلفه نفس عارية تقطعت أمانها وأحلامها ولم تكثر باطفاق حلم ما يوارى سوءاتها، فجلست تستقبل العيون الشاردة والضحكات الباردة. ملت هذه النفس من كل ما حولها؛ اكتشفت أن البشر كالفتحاض ناضجون ومتناسكون خلف قشرة رقيقة إذا اجترحها سكين تأكسدت واقتربت من العطب بسرعة مذهلة، ثم اكتشفت أن جسدي تابوت يحنطها ليتسلى بها فافترقت عن جسدي. افترقنا، تبادلنا قليلاً من الوسواس بالأمس بصنادق جبل أبو غرور، هناك حيث يطل الجبل بحجاره الكلسية على تلك الصنادق البائسة والمترامية بعشوائية على سفحه. كنت أجلس في صندوق يمضغها البرد القارس وتستبيحها الرياح. أجلس مغموساً في ملابس الثقيلة الشوكية تصطك أسناني فأكوم عظامي أمام مدفأة تسلل دفوها عبر تلك الشقوق الواسعة ولا أقدر على الضحك..

(يا فخامة الرئيس الآن أسمعك تعلن تنحيك عن كرسي الرئاسة فأهجس بمرارة: - الآن!

لقد حملنا وزرك وآثامك العظيمة، ولن تنهيه تلك الخطبة التي تعودت على سماعها. كنت وحيداً وأنا أستمع إليك، وحيداً وأنا أحبك، ووحيداً وأنا أكرهك).

هي لعبة - لمن لم يجربها - سمجة. لعبة أن تسير وحيداً وتخيّل شخصاً وأشباهاً يزامنونك، ويحبونك وينتظرونك، ويخافون عليك ويشناقون لك. وقبل أن تقطع طريقك تكون قد تخلّيت عن كل هذا وعدت وحيداً، لتتهجر داخلك عن داخلك.

بدأت جلدتي بأول خطوة وأسلمتني للطريق، وتركتني غصناً أخضر فحننت لأي قلب يزرعني بداخله؛ حننت لأي يد تعيدني لشجرتي البعيدة. وعندما أطل جلال من خلف الإذاعات حاملاً شعار الوحدة ركضت خلفه ففرق بعضي عن بعضي. كنت أسمع صوته من المذياع فأهتز طرباً وأنتشي، صوته الهادئ الواصل يملأ شراييني بالحبور. أصفق لوحدي بداخل تلك البرنثة التي ارتضيت أن تكون مأواي وسجني. كنت مؤمناً بما يقول إيماناً لا يخالطه شك، إيمان من يبحث عن الخلاص. وتعلقت به فوجدته صنماً من تلك الأصنام التي نقدسها ونترك بها وهي جامدة لا تعرف مقدار لوعتنا بها، حيناً لها، وترديدنا لاسمها.

كان جمال الخيط الذي يشدني للحياة، الخيط الذي يغزل وحدتي بألوان قوس قزح، فأرى الأمطار وأشم رائحة الأرض. ألمح السماء تدنو فأغدو طائرًا يخلق في الفضاء.

كان كالحبل السري الذي يربطني بالحياة على أمل أن أخرج من شرنقتي وأجتمع بمن أحب. لم أكن مثله مهتماً بوحدة الأرض؛ كنت مهتماً بوحدة القلوب، مهتماً بالعودة. كنت أظنه يسعى لعودة الغرباء إلى ذويم، وأنه إحدى الشخصيات الأسطورية التي تخرج في يوم عاصف مطير لتدل التائهين على الدروب الصحيحة. كنت أظن ذلك بينما كان يسعى لتوحيد التراب، ورفع صورته على الهامات وإضرام الصدور لتتشقق الحناجر بترديد اسمه. وفي مسيرته قطع روابط كثيرة. وبينما كانت دماء ضحاياها تسيل في الشوارع كان يجلس في قصر عابدين يحتمي حساء دافئاً ويتلذذ بوجبة دسمة مستمعاً للإذاعات وهي تمجد الوحدة وراعيها، ونحن كالماشية نسير وفق عصاه التي تهشنا إلى هناك..، في البدء لم يكن يعنيني كل تلك الروابط التي

قطعها، كنت أردد مقولة قدوري:

- الوحدة تحتاج لمخز يوصل اللحم باللحم.

وكن أول ضحاياه. قطعني أنا، أنا الذي أحببته، وصفت له وحيداً في غرفتي وسجني.

- كم أحببتك وكرهتك يا جمال.

أحببته وهو لا يزال جنيئاً في الذاكرة. كنت أغدق عليه الأوصاف وأعلق على صوته الدافئ الأمنيات. وحين ظهر تمدد وتمدد وتضخم وتضخم، فتنازنا أمامه وهرسنا تحت تحيته العسكرية وصوته الواثق. هزمني حبه. أن تحب من تكره فهذا انتصار له. أما أن تكره من تحب فهذا الهزيمة لكل الأحلام والأمان التي رويتها بأحاسيسك.

(- كرهتك يا جمال، هل أوفيك حقك إذا كرهتك؟

كنت لاعباً ماهراً وهذه الحياة لعبة ممتدة الأطراف، لعبة نشترك فيها جميعاً حتى المتفرجون يلعبونها، لعبة أن تخسر وأنت لست طرفاً في اللعبة. خسارتك كونك ضمن برواز اللعبة، تصور!!).

جمال شخص لا يعرفني وعرفته فلاحاً زرع في غيلتنا الأماني، فأحببته. وعندما استطالت نبتته في أعماقنا كان الزرع مصفراً، وهب كريح صرصر اقلعنا من حياتنا وكان سبباً رئيساً في خسارتي ولوعتي ووحديتي وغريبتني. قام بتقليم شجرتي العائلية وتركني غصناً يابساً مقذوفاً في الغربة، يذكرني بالسيل الذي كنا نتنظره بقرينتنا كي تنهض على ممشاه حقولنا التي جرى في أوردتها الجذب والغبار، كانت حقول مغبرة تنتظر فقط أن تمطر السماء وتتجمع في ذلك الوادي الميت منذ سنوات لتروي جذبها حتى إذا جرى الماء ونهضت الحقول مرحبة بمقدمه جرفها عنوة ولم يكثر بأهازيجها ورقصاتها المعدة لاستقباله.

بنبت أبي في غيلتي وهو يقلب بصره في السماء، ويقود بعينيه غيمة صيف، يوقفها على حقله ويغني لها لثمطر، فتمضي تاركة غناؤه يتحسرج في حنجرته. ويستقبله الغبار ونحن ذرية تنتظر القمح والماء البعيد. كانت القرية تخرج للفلاة دافعة أنعامها وأطفالها متضرعين رافعين أكفهم ومستسقين، وحين يهطل الماء يرفعون أكفهم ويحناجر سكنها الهلع يرددون:

- حولينا ولا علينا.

وجمال من كرسيه الرئاسي وسيل كلماته التي انتظرتها حقولنا الميته جاء عاصفاً واقتلع نبتتنا، اقتلع أسراً صغيرة وطوح بها على جنبات الوحدة لتتفرق أسر ويموت غال ويعيش جسد شوته قنابل الثورة.

أوشكت على إنهاء غريبتني الطويلة، لكن الحرب طحنت كل شيء، ولم يعد هناك من داع لإنهاء تلك الغربة.

مسافرون جدد، يجمعنا الطريق وغريبتنا وذكريات مألحة أو لذيدة خلفناها خلفنا ومضينا. كانت السيارة تهتز وتلهث في مشوارها الطويل ونقاط كثيرة نعبها فننفصل عنها وتسكن بدواخلنا كبقع من أماكن لا تعني لنا شيئاً. هي فقط خطوات لمكان سنسكنه ويسكننا. نتألف معه بينما تمضينا الأيام ونحن نسترجع ما مضى من أيام.

وجدت اسمي في سجلات الشيخ الأفندي: (يحيى الغريب)، وأمامه وضع إشارة اختلجت أعماقي لها، ورف بداخلي حلم لذيدة. وقتت أمامه:

- أسألك بالله من أين وصل لك هذا الاسم؟

- امرأة كانت تبحث عن صاحب هذا الاسم وتقول انه بيع

كعبد بعد أن خطف وهو في طريقه للحجاز.

- وأين هي؟

- لا أدري فقد حدث هذا منذ سنوات حين كانت تجارتي بمكة، لكنني سمعتها تقول انها ذاهبة للرياض.

- (الرياض مدينة بعيدة، وسأكون فريسة لصحرائها الموحشة).

كنت أوسوس بهذا لأشجع عن بالي فكرة الرحيل. وفي تلك الليلة وقف حامد بمخيلتي وهو ينهب الطرقات بانهاج الموقف. كان يتحشرج بالكلمات:

- لكي تصيب السعادة، عليك أن تتخلص من أحلامك.

فقررت أن أتخلص من أحلامي، واستقبلت الرياض بصحرائها المتسعة، وها أنا كدودة في بيئات الشتوي تقبع بصنادق جبل أبو غرور تمضغ غربتها ووحدها.

هذه الحياة كلمات تتقاذفنا فنركض خلف بريقها ونكتشف أنها سراب بعد قواف الأوان، هل حقاً نستطيع أن نتخلص من أحلامنا؟

في سفرنا للرياض قال السائق:

- هذه مدينة غيف سنبقى بها هذه الليلة وفي الصباح نطلق.
كان التعب يسكننا وشيء من الحنين يتبادل بكلمات دافئة. نزلنا وكان ذلك الراكب ذو العينين الدوديتين لا زال يمسك بزوجته وعيناه تتقاذفان صوب من يحاول مد طرفه إليها. لا أدري لماذا كانت تلك الزوجة تحرق بوجهي كثيراً، وكلما أرخيت بصري عمقت نظراتها صوبي في غفلة من زوجها. عيناها تذكراني بعيني حياة. تلكما العينان اللتان تثقيان القلب وتتركانه دامياً وتمضيان دون أن تسعفاك بكلمة. لا

أدري لماذا أشعر بالندم - إلى الآن - لأنني لم أخالسها النظر كما كانت تفعل. أكنت خائفاً من الغرق مرة أخرى؟ أصاب بالحمى كلما أطلت عليّ عينا حياة في وحدتي، هي جرح آخر أحمله معي في هذه الغربة وكلما حاولت تناسيه ذكرني به هذا التذليل المصنوع وتلك الجملة التي تحيي في داخلي أملاً خائراً (اللهم ابعتني مع أهل هذا التراب).

كنت حائراً طوال الطريق أهذي بأسئلة خاوية:

- ستستقبلك مدينة الرياض فماذا ستجد فيها؟ هل أجد خالتي وأهبي كل هذا العذاب؟ أريدها أن تسندني، تحتويني بعد أن ضاع كل شيء.

كانت تلك الزوجة الشابة تصوب نظراتها باتجاهي وكلما أشحت بوجهي عنها أخذت تتبعني عيناها.

هل أحب جمال امرأة لها عيان حارقتان كعيني حياة فأحرق الدنيا من أجل أن تسكنه مقلتنا؟

هل أحب فعلاً فتاة كحياة؟

أيقنت أنني أهذي، وأن حياتي كانت سلسلة من الهذيان. فقد تم الإعلان عن مؤتمر الخرطوم وسيجلسان ويتصافحان، وينسى جمال أنه كان السبب في غربتي، سينسى أنه دفن أغصاناً لم تر الحياة بعد، ودفن معها تلك المرأة التي أحببتها وأحبنتي، سينسى كل شيء. من يذكرني الآن؟ من يذكر طائر أرف بحتاحيه الفضاء وحيداً عله يلحق بالطيور المهاجرة.

قلت لكم إنني أهذي، ولكي لا يطول هذياني لنبدأ من البداية إن شئتم.

الفصل الأول

من خلف الليل والريح، والحكايات المنسية، من هناك، من بعيد، من قرية صغيرة تنام بين عيدان القصب، وثناء وخوار الأغنام والأبقار السارحة في شعاب الأودية الموصلة بعضها لبعض خرجنا. قافلة صغيرة كانت بغالها وحيرها وجل واحد تحب في القفار الموحشة، وأصوات الذئاب تعوي بالأودية وترتد زاوية، وحشائش أكلها الجذب فركضت في الطرقات توزع الياس والشوك.

عتمة الليل تنيرها نجوم مهولة متناثرة ظللت لوقت طويل معلقاً رأسي صوبها أشكلها أشكالاً يأنس لها الفؤاد. كنت أشعر بلوعة ولم يكن أحد مكثرثاً بطفل رديف لامرأة مسنة تمسك بلبام حمارها بسعادة واستبشار، وبين الحين والآخر تنكفي تتحسس خرج الحمار وتطمئن لوجود أقراص الدقيق المعجونة بالسمن والسكر. هذه الزوادة التي انتهت قبل أن نصل إلى أقرب مدينة لنتزود بزوادة أخرى. أطلقت جدتي جملتها بعشوائية:

- أرى أن أحمل معي يحيى

- لا زال صغيراً على الحج

- بل ليعمل ويكد

- أيضاً لا زال صغيراً

- ستتكفل به خالته

- أخشى أن تفسده الغربة

- الغربة تصنع الرجال

جمل مبتورة وقصيرة قذفت بي في الدروب الموحشة البعيدة.
سنوات طويلة مضت على تلك الجمل التي لا تزال عالقة بالبال.

خرجنا بعد أن وضعت أمي ريالاً مجيداً في كمري وطبعت قبلة
خاطفة على جبينني واختفت دافعة أخوتي أمامها، وعندما بكيت نهرني
ابن أخيها حد بغلظة:

- كن رجلاً لا زلنا في القرية

ابتسمت له جدتي مناصرة، فازداد شططاً وصفعني حين تماديت
في البكاء، وحشرنني خلف جدتي على حمار ضامر الأرداف طويل
الأرجل. كنت أرى الأرض بعيدة، فأمسك بخاصرة جدتي بقوة
وأدفن رأسي يظهرها المعوج، وأنطلع لقريتنا التي تركض للخلف.
لمحتها تقف مع المودعين تمسك بأخوتي كي لا يتراكموا خلفي،
وظلت رقبتني معلقة بها حتى التهمتنا القفار الممتدة.

وجدت فرصة سائحة للعويل حين ارتفع صوت القافلة ملبية
بصوت جماعي مهيب:

- ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك، ليك.

إن الحمد والنعمة لك،

لا شريك لك،

ليك اللهم ليك.

ليك لا شريك لك ليك،

إن الحمد والنعمة لك...

بكيت وصرخت ولم يسمعي إلا جدتي التي كانت تمد يدها
للخلف وتقبضي:

- كن رجلاً

فأزاد نحيباً وعويلاً. أشارت لقربنا بالتفانة محرصة ليقطف
غصناً من أشجار الأثل التي كانت ترافقنا وألقاه على جلدي.
أحسست بنار تأكل ظهري، فأخذت أبكي بصوت مكتوم. كنت أبلغ
شهقاتي ودموعي، وأتمنى لو أنني أفر عائداً لأمي وأخوتي وغنمتي
الصغيرة التي رأت الدنيا قبل أيام فقط. تمنيت أن أعود للركض بين
حقول القمح المتعالية، وأنس بين سيقانها وأوغل بداخلها فلا
يلمحني أحد. فكرت مراراً أن أنسل من خلفها وأركض وأركض
وأغيب عن هذه الوحشة التي تغمرني.

شمت جدتي في سري، فلم ترحني هذه الشتيمة فشمت أمي،
فنزل بالقلب حجر ثقیل ارتطم بعنف. بكيت حين شتمتها، وتلظت
حرقتي. كنت أريد أن أسألها:

- لماذا أسلمتني لجدتي، ولهذا القفار البعيدة؟

سارت قافلتنا تتلأأ، ومع كل المنعطفات تتوالد قوافل وتنضم
لبعضها ميممة نحو الشام. تضاعف عدد الراجلين - كان غالبيتهم من
الرجال - يتوالدون من منعطفات القرى ويصبون في طريق قافلتنا.
يبدأ دخولهم بالسلام وينتهي بمشاركتنا أكلنا وشربنا والخوف مما قد
يصيبنا.

قافلة طويلة نخب في الأرض؛ وجوه هائمة، وأنفاس لاهثة، وقامات منحنية، ونساء صامتات، وأطفال أرهقهم التعب والبكاء.

قافلة طويلة تجتمع في السير والتلبية والغناء ويعودون لداخلهم فرادى. يثرثرون بأحلامهم وسواسهم لصدورهم ويجدون في السير ويتقافزون ليتحاشوا الشوك المبسوط كفراش ممتد حتى الأفق. أذنباتهم المتأكلة انهارت وتركت الراحات نهباً للشوك المذهب الغائص ما بين اللحم والعظم، ليصبح المشي كالسير على جمرات من لهب. وبين الحين والآخر تتوقف القافلة لصباح الأطفال والنساء.

الشوك الممتد مع الأفق كان عيوره يستوجب الحيلة والحذر، فالراجلون ابتلعهم الشوك وتوقفت القافلة مراراً، وفي كل مرة يعيد الدليل بصوت واثق:

- هذه آخر شدة وبعدها ستجدون الرمال الناعمة.

ويصيح مخفراً:

- جدوا في السير.

وكلما عبرت القافلة الفيافي والقفار وجدت الشوك يسير معها، فسفه الكثيرون دليل الرحلة الذي اختلق الأعدار وردد:

- هذا الشوك يتوالد بسرعة والريح تدفعه أمامنا.

لم يعد أحد يكثر برأيه، وتبرع بعض المسافرين بإخراج تلك الأشواك ومروها الأرجل بزيت السمسم ولفوها بالخروق البالية، وفي أحيان كثيرة تهب رياح النخوة على بعض الركاب فيترجل عن دابته لتصعد امرأة أو طفل مخففين من التوجع المصاحب لرحلتنا. كان السير ليلاً عذاباً إضافياً لأولئك الحفاة، فأكثر من شخص وجد نفسه يسقط

في فخ الأشواك، وكلما حاول التخلص تعمق في مساحات مليئة بالشوك. ولم تقلق القافلة عن سيرها ليلاً إلا في إحدى الليالي المظلمة حين ابتلعت إحدى الآبار المكشوفة امرأة وابنها. ليلتها - فقط - سمعنا صرخة استغاثة غرقت بالماء قبل أن تصلها يد. في تلك الليلة بقينا على حافة البئر وقد جبن الجميع عن النزول لنجدة تلك الاستغاثة، ومن وجد الشجاعة تخلى عنها سريعاً لافتقاده للحبل الذي يعيده للحياة.

ظل الرجال يتناولون المشورة حتى طلع الصباح حين جاء حاسي البئر وأخرجها هي وابنها جثتين. بدأ الانتفاخ يسري في بطنيهما وأطرافهما فتسابق الجميع لحفر قبر صغير وإلقائهما به، تاركين الماء ينساب منهما ليسقي حدة قبريهما المجدين على نبتة تنبت من بطنيهما ذات يوم، وواصلنا الرحلة كأن شيئاً لم يكن.

في الليلة التالية كانت الريح تلهو فتلقي بحزم الأشواك في الوجوه. وعجزت القافلة عن مواصلة السير خشية أن تفقد شخصاً، وأودنا البهائم في دائرة توسطنها وتبادل المسافرون التهم والأحقاد:

قال الدليل: هذه أول مرة في حياتي أصاحب قافلة مشؤومة مثلكم.

فتلقفته الألسن: وأنت أسوأ دليل صحبناه.

صوت حاج: هذا نصر المرأة التي غرقت هي وابنها دون أن نلبي استغاثتهما.

صوت: هذا قدرهما.

صوت: لا ليس قدرهما بل نخاذلنا.

صوت حاج: لقد ماتت وهي قاصدة بيت الله، فليغفر الله لها.

صوت: ليغفر الله لنا جميعاً، إلا أن هذه الكوارث التي نسايرنا في رحلتنا لا بد لها من سبب؟

صوت: بيننا إنسان قلبه مظلم ويجب أن نتبرأ منه.

صوت حاج: وكيف نعرفه؟

صوت: لتتفرق كلنا وندعو بقلب رجل واحد أن يميتَه الله في ليلتنا هذه.

وأجمعوا على هذا، وقبل أن يتفرقوا في البرية والظلمة طفقت عليهم الأشواك من كل جانب، فعادوا يجمعون البهائم من حولهم وهم يدعون الله أن يرفع عنهم تلك الغمة.

في مسيرتنا البطيئة استهلكنا الزادات قبل أن نصل لأقرب مدينة تمدنا بما نحتاج، فوجد التوجع مسلماً جديداً ليصل إلى بطون أولئك الذين تربعوا على دوابهم، فهذا نغيرهم ونمت بين القافلة آفة مشتركة. كانت القفار بيضاء إلا من ريحها وشوكها وبعض الأشجار غير المثمرة تحضن جذوعها بتكاسل واسترخاء، وفي أحيان كانت تغازلنا من على بعد أشجار السدر، فنستغل توقف القافلة وتتراخض بحثاً عنها ونمطرها بالحجارة ونقتعد مكاناً ظليلاً لنتقاسم تلك الحبيبات الناضجة، بينما نترك البسر لمن لم يخرج معنا لجنحي حبات «الكين».

كان قذف الحجارة يتم بطريقة عشوائية فأصيب البعض بشجوج تفاوت عمقها وفق رخاوة الرأس وحجم الحجر الفاض لتلك الهامة، ولاسترضاء مفضوض الهامة يزود بثلاث حبات من الحصص المقسمة.

كان معظم السائرين ملبين، وفي أحيان يقطع تلبيتهم انسكاب صوت الحادي وهو يشد بصوت لين عذب يتسرب لداخلي كحبات ندى الطل، فيمور صدري وأذرف دموعي مع تلك الكلمات الحارقة:

- يا مسافر وتارك حبيبك

قله يترك عرفه في الشام

ولا في طريقك

فيتأهون معه، وسرعان ما يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم، ويتصايحون:

- خرجنا طلباً لوجه الله فلا تفسدوا حجنا بالدنيا.

فتسمع صوتاً معارضاً:

- لستم وحدكم في هذه الرحلة.

فيعود صوت حاد:

- قبحكم الله وقبح الدنيا التي خرجتم من أجلها.

فيصر الآخر على عناده وتبججه: إذا دخلت الجنة لا تدخلنا معك.

فتصايح بعض الحاج: هذا هو صاحب القلب المظلم

وتغاد الصرخات وتناولت الأيدي نحوه، وتوقفت القافلة، وأصرروا على أن يترك مسيرتهم، ولم يجد عناده فتناول كل واحد حجراً وحصبوه، وكلما ركض مبتعداً تبعوه وتراجعوا عن مطاردته بعد أن جاور دمائه المسفوحة.

قطعة من ليل لا زلت أعبرها، وكلما قلت دنا فجرها أغطشت

ليلها واختالت بطولها. لا زلت أقتات تلك الرحلة في كل حين. لم يترك أحد راحته هنا كما كان يحدو حادي قافلنا.

هنا انتشرت رائحة أجساد مضغتها الغربية فلدست أنوفها في ماضيها ولم أكن أشم إلا رائحة تلك القرية البعيدة، رائحة العجور الأخضر المختال بجذوره في أيام الحصاد، رائحة أمي، غنمتي، ظهر جدتي، والحناء الذي غاص في راحتي ونسي أن يظهر مرة أخرى.

جئت من هناك أمسك بخاصرة تقصفت عظامها وتسلفت من بين يدي المسكتين بها لأظل حاضناً غربي فيما تبقى من أيام.

عندما كنت أمسك بخاصرتها أحس بعظام لينة تنثني تحت يدي الصغيرة، وحي متلظية «هتتش» أوردتها وتقتاتها في مسيرتنا. أسمع صوتها الواهن يناشد رئيس القافلة بقطرة ماء فلا يستجيب لها، وعندما أصبح به باسترحام:

- جدتي ستموت.

يضغط على كلماته بجفاء:

- وإذا فرطنا بالأمه سنموت جميعاً.

أحد الحجاج تنازل لها عن نصيبه فبللنا لها شفيتها، لكنها كانت تطالب بالمزيد وتلهت بفحيح:

- أحس بنار تأكل أحشائي.

وشربت أنصبة متعددة وظلت تطالب بالمزيد، وكلما مضينا في طريقنا احترقت بالحمى وبقي لسانها ممدوداً كقطعة خشب يابسة.

في اليوم السادس انكفأت على ظهر الحمار وأنزلوها لقبر عابر بجوار كومة شوك نافر، لتستقبلني جهات متفرعة أسلكها بلا هدى.

تنافرت قافلنا وبقي التياحي صاحباً يهدر في أعمامي وينام بعد أن يوجعني حنيناً. فجأة وجدعت نفسي وحيداً تائهاً وسط وجوه تائهة. كلنا كنا غرباء نجتمعنا الدهشة وحلم صغير بالعودة السريعة. ويهرب ذلك الحلم كلما أوغلنا في المسير.

في تلك الأرض الممتدة التي قطعناها ليلاً، وفي أحيان قليلة نسير ولهيب الشمس يلفحنا، لم أكن أعرف لماذا نسير في تلك الظلمة كاللصوص. وبعد أن سقطت تلك المرأة وابنها بالبئر رأيت كثيراً من الراجلين يتقافزون في صحن الفلاة كما تنضج النار حبات البن. هذه الرمضاء آخرت مسيرتنا، فغدا السير مقترناً بالظل، نسير مع طلوع الشمس إلى الصبح، ويتنافر المسافرون بحثاً عن شجر يقيمون أسفل ظلها للأصيل، ومعاودة السير إلى دخول الليل. هذا السير الزاحف أغضب الراكبين فصاح أحدهم وكان يركب «حماراً مصرية»^(١) ارتفعت بأطرافها عالياً وكأنها فرس:

- شرط الحج الاستطاعة، والاستطاعة تعني كل شيء، الصحة والمال.

فرد عليه آخر: خرجوا كلهم بحثاً عن حياة جديدة بالشام.

أغضب حديثهما بعض الراجلين فصاحوا بهما:

- هل تريانا نمدد أرجلنا من على ظهوركم؟

اشتاط صاحب الحمار المصرية غضباً وردد بفورة مصطنعة:

- هذا جزاء المعروف.

(١) الحمار المصري: كلمة تطلق على نوع من الخيول ذات اللون الأبيض توصف بالاقة والفضخامة الطول.

فرد عليه أحد الراجلين بنبرة جافة: أي معروف هذا وأنت لا تنزل من على حمارك حتى عند النوم.

لم يتمالك نفسه فشم شم ثنائيم بذينة تطايرت في الهواء لترتفع الأصوات: حج يا حاج

- إذا كان هذا هو الحج بطلت.

- استغفر ربك.

قلوى عنق حماره، وعاد من حيث أتى، مئماً نفسه أن يلحق به أحد ليسترضيه بالعودة. وعندما ابتعد كثيراً ولم يلحق به أحد، عاد يركض بحماره ومولباً بعض الحجيج بالانفراد عن هذه القافلة التي وصفها أنها ستؤدي فريضة الحج بمفردها بعد زوال الوقت. فقد أقسم أنها إذا واصلت سيرها بهذه الطريقة فسوف تلتقي بالعائدين من الحج في هذا الطريق. وارتفع نفس الصوت السابق:

- وهذا أيضاً قلبه مظلم احصوه.

وقبل أن تمتد أيديهم للحمصى كان يقف معه مناصرون كثيرون، فصاح:

- والله إنكم قوم ظالمون، تحصون رجلاً يقول لا إله إلا الله.

فتراحت بعض الأيدي ووجد نفسه يصيح مجدداً:

- لقد قتلتم نفساً بريئة بالأمس وها أنتم تهمون بقتل أخرى لأنه حفركم على العجلة باللمحاق بركب الحجيج، والله لا أسايركم أبداً.

وانحرف بدابته، ونغزها في خاصرتها وذنبها بعنف وأخذ يترى على ظهرها مخففاً عنها حولتها فأخذت «تبرطع» في تلك القفلة، ووجد حديثه أذناً صاغية عند البعض، فانطلقوا يركضون خلفه كقافلة متشقة عن قافلتهما.

قربينا وجدها فرصة لأن يتخلص من حولته، فتركني أنا وجدتي - حدث هذا قبل موت جدتي - وانضم لتلك القافلة المنشقة، ولم يلتفت لصيحات جدتي الواهنة:

- يا غارة الله يا حمد تتركنا لمن؟

لوح لها من بعيد وصوته يتباعد:

- أبحث لكما عن زوادة وأعود، واختطفته المدى ولم يعد.

أظهر الدليل تحوفاً من السير نهراً فأفشى بوساوسه على مسامع القافلة:

- كل ما أخشاه أن نفع بيد قطاع الطرق.

ساد الصمت للحظات، وانتفضت جدتي فاستشعرت الخوف، فارفع صوت أحد الحجيج:

- ليس معنا ما يغري قطاع الطرق.

ضحك الدليل بتوتر:

- أول ما تمتد يدهم إلى حمارك الذي تركب عليه.

وتابع بتخوف:

.... أنتم لا تعرفون هؤلاء البشر، فقد بلغت قسوتهم أنهم يمدون أيديهم لتلبيسات الأسنان، وإذا استعصت نزعوا السن من جذوره من أجل تلبيسة لا تغني ولا تشبع من جوع، وقد رأيت بعيني قاطع طريق يمز أذن امرأة من أجل «غويشة» فالصو.

صاح به رئيس القافلة: كف عن تحويفك للناس.

فانفعل بغضب وردد بنبرات فائرة:

- أنا أحذرهم.

- لقد أرعبت النساء والأطفال، كف عن حماقاتك.

وعندما أراد مواصلة عناده تدخل أحد الحجيج:

- لقد خرجنا بأكفاننا ولا يهم ما يحدث ما دمتنا نريد بيت الله .
 هبط صمت ثقيل على القافلة، وواصلنا السير يرافقنا خوف
 متزايد كلما ظهر ركبنا من بعيد . كنت مشتاقاً لقطرة ماء تعبر
 حنجرتي اليابسة، فقد مضى نصف النهار دون أن نتزود بحصتنا من
 القرب المحمولة على ظهر الجمل . فبعد أن قل الماء اتفق المسافرون على
 أن تجمع القرب ويتم تزويد القافلة به في أوقات متفاوتة، وكلما
 صحت بجدي مطالباً بالماء مدت يدها للخلف ونفتت من جسدي أي
 قطعة تصل إليها أظفارها وتنتهتها وهي تولول بضيق :
 - لقد أفسدتك أمك بدلالها .

أظن أنني غفرت في الأصيل على ظهرها المحدودب، ورأيت
 شيخاً يناولني صينية ملئت باللبن وهو يتمتم :
 - ضرعاً غنمتك تدران اللبن والعسل فلا تتغرب .

غنمة وحيدة تبقت لنا بعد أن نفقت أغنامنا من سحابة مرض
 عبر قرينتنا وابتلع كثيراً من الأغنام والأبقار . وقد تبقت تلك الغنمة
 بعد معاناة طويلة خلقت لها ورماً عظيماً فوق كتفها . كنت أستعجل
 خروجي للرعي، فأسوقها أمامي وأخرج للرعي القريبة وأتركها تنعم
 بالخشاش النابتة على أطراف الحقول، بينما أمضي وقتاً طويلاً بمطاردة
 «الزماميح»^(٢) أو أسراب الطيور . ذات مرة شاهدت سرباً من الطيور
 تحط بقرينتنا لها مناقير مدبة وريش ملون بالأخضر والأصفر، تتناقم
 وتتخاطف الفضاء بنشوة وتحط على رؤوس الأشجار . سعدت

(٢) الزماميح جمع زموح، وهي حشرة طائرة ذات ألوان زاهية متداخلة يغلب
 عليها الأصفر والأسود والأخضر، تصدر صوتاً عذباً خلال طيرانها .
 يمسك بها الأطفال ويربطون خيطاً طويلاً في إحدى أرجلها ويطيرونها
 مستمتعين بها .

برؤيتها، ركضت صوبها فنفر طائر له لون مختلف وحلقت خلفه
 الطيور لتملأ سماء قرينتنا بألوانها الزاهية . كانت تخفق في المدى
 وتغيب كلحظات الشفق .

سقط منها طائر، فأمسكت به . كانت شقيقته متواصلة وعنقه
 مائلاً يدنو لسربه المبتعد . عندما رآته أمني تحسرت عليه وصاحت بي :
 - أطلقه يا يحيى .
 - لكنه جميل يا أمي .

- هذه العصافير لا تعيش إلا في بلادها فقط . تعبرنا لأيام
 ونغضي . وإذا جاء الشتاء وهي باقية هنا تموت . كنت عنيداً لم أستجب
 لما تقول، وأبقيته معي أطيبه وأسعد بشقيقته المشروخة . أنساني
 غنمتي لأيام كنت خلالها أتعهد جرحه . وبعد أن التأم رأيته مع
 الغروب يخلق وحيداً في الفضاء ويخفق بجناحيه المدى في رحلة عجل
 يقطع بها البعد وحيداً .

عدت لغنمتي، وتناسيت حرقة فقدان ذلك العصفور . كنت
 أركض خلف غنمتي خوفاً من أن تطير .

في أحيان أبحث لها عن «ضراب» عليها تسعنا بخراف تمكيني
 من المفاخرة أمام الرعاة الساخرين من ركضي خلف غنمة واحدة .

كنت أغافل الرعاة وأسوق أحد الخرفان أمامي، وقبل أن أبتعد
 يتنبه الراعي لابتعاد خروفيه فيركض خلفي ويلقني من أذني للحظات
 بين يديه ثم يتركني لاعتناً رعونة الرعاة من أمثالي . كان خروجي
 اليومي معها قد ولد ألفة بيننا، وتغاديت في دلالها حتى أمسيت تبيت
 بالقرب من «قعادي» وهي تمذ ثغاءها فتوقظ إخوتي من مراقدهم
 لتطردني أمي أنا وغنمتي خارج عشتنا .

نمتنا أياماً طويلة تحت أضواء النجوم المتلألئة، أتوسد بطنها

وانكمش بين أظلافها واستيقظ على حرارة الشمس أو على مكينة أمي التي تنفخني في صبيحة كل يوم. وحين عجزت عن استصلاح أمري، قبلت بغنمتي بيننا وأبعدت «قعادتي» عن إخوتي. في أيام البرد أشاركها غطائي، فإذا لفحتي البرد سللت غطاء أحد أخوتي وأسدلته على غنمتي.

استطعت أن أسرق كبشاً ضرباً قام بتلقيحها بمساعدة مني. يبدو أنه كان يتأفف من غنمتي الهزيلة، فما إن يمد يديه حتى يتراجع محرناً وثاغياً. كانت مهمتي صعبة؛ فقد كنت أكمم فمه كي لا يصل صوته لراعيه، وأبعد صدره عن الالتكاء على ذلك الورم النابت على ظهرها. بعد أن انتهى ركض راغياً ومن على بعد تبول ونظر صوبنا (أنا وغنمتي) نظرة اشمئزاز وانطلق لينضم للقطيع بثغاء متقطع. لم أكن أظن أن غنمتي تستطيع الإنجاب، إذ كانت تمضي معظم أوقاتها تنهادي بين الأسجف أو أسفل ردائم الفل والريحان تلوك الحشائش باسترخاء وملل؛ وكلما حاولت حثها تهاوت والتصقت بمكانها. لاحظت ضحكات سريعة وخجل على محيا أمي:

- من أي خروف (لقت)؟

.....

- يبدو أنه أعمى أو أجبر على تلقيحها.

وأطلقت ضحكة صافية:

- أنت لا شك وراء هذا الإيجار.

وعندما رأني صامتاً أنظر إليها بتردد شدة غرتي ورددت:

- غنمتك ستنتج.

ومضت تغالب ضحكة جرت على فمها بتدفق.

وخلال خمسة أشهر وعشرة أيام وأنا أتعهدا بالرعاية، فهزالها لم يكن مؤهلاً لأن يلد حياة جديدة. كانت في كل يوم تسقط وتظل ترغي حتى نظن أنها ستنفق. كنت أحمل لها أكلها وشرابها وأجبرها في أحيان كثيرة على فك فكها وحشوه بالحشائش أو الحبوب، وقد أبقيتها بعيداً عن الحر والمطر الذي عبرنا سريعاً وترك أثراً باهتاً على الحقول.

في الصباح وجدتها شبه ميتة وخلفها روم ميت ورومة تخرج صوتاً أقرب للمواء من الشفاء، فرحت وركضت أهز أمي في مرقدها هزاً.

- غنمتنا نتجت روماً ورومة.

تصدق، ونهضت وهي تجرني:

- هل ماتت؟

وعندما وقفنا عليها، سمعت أمي تردد:

- الحمد لله.

وتخليلت عن تلك الغنمة شبه الميتة، وأخذت أدلل غنمتي

الصغيرة.

استيقظت ذات صباح، فوجدت أمي تنهياً لجلب غنمتنا المريضة للمجلباب. ودون أن أسألها سرت معها، ووقفنا لوقت طويل قبل أن تباع. كان هزالها والعييب الذي استقر بأعلى ظهرها ينقصان ثمنها كثيراً، فبيعت بثمن بخس. وحين قادها المشتري تعلقت به وتوسلت إليه أن يتركها لنا. استجاب لإشارة أمي ومضى عابراً للمجلباب وغنمتي تنغو وتحاول التملص من الحبل الذي عقد برقبتها، وتمد يديا متمنعة من السير فيخطها على ظهرها بعنف فتستجيب له حين يؤمها وتتوقف حيناً. خطفت أمي يدي وعادت بي للبيت باكياً. وفي صباح

اليوم التالي وضعت أمي ثمنها في كمر صغير اشترته لي ودفعني مع جدتي.

أذكر بالتفصيل لماذا دفعتني لهذه الغربة التي لم تنقطع إلى الآن. ثلاثون عاماً أمضيتها غريباً وحيداً. من منكم يستطيع أن يتحسس هذه الوحشة التي نمت بداخلي وغدت ثمارها نكهة أعيش بها ومنها. لا أتصور أن باستطاعة أي إنسان إدراك المعاناة التي عشتها وأعيشها.

كائن وجد وقذف به للغربة ونسي هناك، كالحكايات المهجورة تبقى بالذاكرة ولا تستجيب لمطالبتك لها بالخروج، وإن استعدتها جاءت أوصالاً من أحداث مفككة لا تغري بالاستماع، وإن استمع لها شخص ما أعرض عنها لبلوها أو تقادماً.

أنا الآن أحكي لكم حكاية بالية، مقطعة الأوصال، كلمات، مجرد كلمات. وما حياتنا إلا كلمات تتراص وتصنع أحداثاً وكوارث وآلاماً. السياسة كلمات تصنع تاريخاً والتاريخ يغزل رداءه بحياتنا وأحلامنا وآهاتنا، حتى إذا استوى تزين بشال على كتفه ونسي أن يشير إلى أن اللون الأحمر كان دمنا، وأن الألوان الزاهية كانت أحلامنا.

كلنا يخرج الكلمات ولا أحد يقف عند كلمته، نجاورها ونهرب منها إليها. هل تستطيع هذه الكلمات الآن أن تنصفني من شراكها حين أحاول أن أستعيد من خلالها تاريخي؟

بكلمة واحدة، خرجت من تلك القرية النائمة في أحضان الوادي، وبكلمة تورطت في حياة عشوائية، وغزلت أحلاماً بالكلمات نكتشها كلمات مشابهة.

الفصل الثاني

- ألا زالت تلوح بيدها لذلك الأفق الذي ابتلعني ذات مساء؟!

ربما لا زالت تلوح بيدها الآن.. ربما. مضت سنون طويلة على تلك التلويحة.. فقد نزحت من قريتنا منذ أمد طويل أصبحت لا أذكره بالتفصيل.. فقط أذكر أنها قافلة من السنين العجاف عبرتني وأنا كجسر أبسط لها ظهري وأطلقق بأنات محمومة. وأعلل النفس بأن القافلة ستنفق يوماً ما وأفبق من رقدتي الطويلة لأعود للأهل وتلك الحقول الممددة كجثث هامة. وكلما أبطأت السنون في سيرها تضعضعت، وقبل أن أتأوى أتذكر وجه أمي المتهدم ودمعتها المتهيشة للانحدار - دوماً - فأنصبر وأنقض من حمى حنيني وأجمع أوراقاً عليها تعيدني وتعيد لي بسمه أمي وصخب إخوتي وغناء الجمالة وهم عائدون من بين الهيج^(٣).

حين مات الوادي فجأة وأصبح قلبها حجراً، غمايلت وجمعت عظامها ووقفت أمامي وبصوت آمر تخالطه بحة صاحت:

- تغرب قبل أن يموت كل شيء.

(٣) الهيج: أشجار ملتفة عادة لا تكون من نوع واحد، فهي خليط من أشجار الشام والأثل والسر والسلام، ويقوم الجمالة بتقطيعها وبيعها لأهالي القرية لبناء العتش والأسجف.

حينما كنت أخرج للرعي - بغنمتي الوحيدة - في المراعي القريبة من الحقول أسمع العجائز يتحدثن عن أن من يسافر لا يعود، فأضم إخواني الصغار وأبكي وأستحلفها أن تبقيني حتى أعبر طفولتي، فتترب مني وتقبلني، وبحديث رطب لين تحدثنني:

- في البلاد القريبة ستجد المال، وستعود إلينا سريعاً، أيرضيك أن يموت إخوانك من الجوع؟

أصاب بالهلع، وأشاركم الأمانى:

- سأغرب.

وتردد مقولة جدتي:

- ستعود تدفع أمامك قافلة محملة بالذهب.

كان أبي يقف دائماً في ذاكرتي، من الصباح الباكر ألمحه يقف في حقله يرفع يده للسماء ومن تحت قدميه تتشقق الأرض عن أشواك شابة، وعندما آتته بزواته يجثو «ينغمش» الأرض ويدرو ترابها في كل الجهات وصوته يذود حشرة تعبر حنجرته بيأس:

- الرياح تذرو الحبوب في الأماكن الرديئة!

ويمضي قاطعاً حزنه والخلاء.

كانت دموعه كالأهلة تهل في أيام وتترقرق في محاجرهم حتى تكاد تسقط من تزاحمها في مقلتيه فيمسكها بموال جريح ويترك آهاته تفيض، وعندما أناخه المرض وأكل أطرافه سقطت تلك الدموع ولم يستطع صوته الدافع أن يذودها بعيداً عن وجنتيه.

ذات ظهيرة عاد محمواً، واستلقى على قعائه. أخذ يشن بثقل وكأنه يحفر أخدوداً من الألم بدباب ومثابرة. كانت آهاته تتمدد وزفراته

تدب بكسل وثقل يشقان القلب.

لم نعهده بهذا التهافت، كان صوته واهناً وهو يطلب شربة ماء:
- يا حرمة.

صوته لم يصل أبعد من أنينه، فلم تسمعه أمي، كنت عابراً لمرقده فسمعته يردد:

- شربة ماء.

فالتذليت أمي التي هالها منظره، فانكفأت عليه تضع يدها على رأسه.

- ماذا بك؟

تراكضت مع إخواني لجلب الماء، وكلما سقيناه طالب بالمزيد، لم يكن ليرى، كان يغرق في حماء فندس بين شدقيه حبات النوفلجين. يتلألأ بعرقه وينهض مطالباً بجرعة ماء. نفجت بجسده حبيبات حمراء ذات رؤوس قاسية سرعان ما أزهرت عن صديد ودم وعمقت آهاته التي كانت تخفر مسامعنا وتبذر إشفافنا ولهفتنا عليه، ولم نعد نراه، فقد «حجب»^(٤) عنا. كنت في كل صباح أخرج إلى الخلاء وأعود

(٤) حجب المريض عزله، ولم يكن أطباء - أو حكماء كما يطلق عليهم في المنطقة - متوفرين ويصيح المشعوذون هم اللجأ للحالات المستعصية والبسيطة. وفي أغلب الأمراض يتم عزل المريض في مكان خال لا يصل إليه إلا القربون جداً أو ينتدب شخص واحد من أهله لتفقدته وتمريضه. ويصاحب الاحتجاب طوقس معينة، وإذا دخل على المريض شخص آخر ينقض احتجابه، وعليه فإن فترة الاحتجاب تبدأ من جديد لأن رؤية المريض تفسد ما مضى. وغالباً يكون الاحتجاب لمدة أربعين ليلة.

حاملًا جلة لتردم بها أُمِّي تلك الجروح التي افترشت جسده. ثم تبدل
الوضع، فكانت أُمِّي تخرج كل صباح لتدفن جزءاً منه، اصبعاً،
رسناً، قدماً. . كنت أسمعها تسر لجارتنا ميمونة وتمسح دموعها وهي
تردد:

- المرض يأكله يومياً. لم يعد باقياً منه شيء حتى إذا دفن لن
يسعد الدود بوليمة دسمة.

كنا نمني أنفسنا أن نراه ناهضاً ليطل علينا بابتسامته المترامية،
كنا ننتظر ذلك إلا أنه خرج محمولاً على الأكتاف وذهبوا به، ولم يعد.
وألغنا غيابه، وظلت لوعتي تتشجر في صدري كلما لمحت
بندقيته المعلقة على وتد بداخل عشتنا، كنت أقترب منها وأتلمسها
فتلاطفتني أُمِّي:

- عندما تكبر ستضعها على عاتقك.

وكل يوم أقف أمامها فارداً قامتي ومفخماً صوتي ومخاطباً إياها:

- انظري لقد أصبحت رجلاً.

فتطلق ضحككتها وتضمني:

- نعم لقد كبرت فأنت رجل البيت.

منذ ذلك الزمن الذي غادرت فيه قريتنا غاب عني كل شيء،
ونسيت كل شيء إلا العودة. كنت أحلم أن أعود علني أحبي الوادي
الذي مات، وأستعيد طفولتي المسروقة، تلك الطفولة التي سطت
عليها الغربة بعنوة وتركتني كجذع خاو تقلبه الرياح فتتخر الموات فيه.

حينما كنت طفلاً كنت أحلم بقطف التعب من على جبين أبي
وأقف بدلاً منه في تلك الحقول الممددة كالجثث الهامدة. . ومضت

سنون طويلة على ذلك الحلم.

لم يكن اهتمام أُمِّي بي يتضاعف إلا في أيام الأعياد والمولد،
حيث تجلسني فوق «شبرية»^(٥) عالية وتلبد يدي ورجلي بالحناء، وأظلم
أتمللم وأهم بـ (تخليص) الحناء قبل أن يجف، وبعدها (تمرخني) وتحلي
جسدي من وسخ ران بين مفاصلي.

في تلك الليلة لم تعاملني كسابق عهديها، فقد أجلسني وهي
تدللني دلالاً مضاعفاً وتنعتي بشتى الأوصاف:

«يا حالي الأعذاق أرضك هنا

يا بو البجيلة وطاوي الفنا

من مثلك ولا مين مثلي أنا».

سألتها:

- بكرة المولد.

- لا زال المولد بعيداً.

- إذا عيد عرفة.

- تبقى شهر ونصف على عيد الأضحى ولن تكون بيننا.

- أين سأذهب؟

- مع جدتك.

- وإلى أين ذاهبة جدتي؟

(٥) الشبرية نوع من المقاعد تصنع من أشجار السدر أو السرو وتحبك بحبال يتم
وضنها من أشجار الدوم.

- إلى الحجاز لنحج، وستبقى أنت عند خالتك.

.....

- كن مؤدياً ولا تجعلها تغضب منك.

هزرت رأسي ورددت:

- وأنتم؟

- سنبقى هنا.

- لا، نذهب سوياً.

- سنلحق بك.

وأخفت عينيها خلف «خستها».

سرحت قليلاً (خالتي لا أعرفها ومع ذلك أحبها كثيراً، ففي أيام العيد ترسل لنا ملابس جديدة وألعاباً مسلية أفاخر بها أقراني.. تلك الملابس التي تتكلف مع أجسادنا - أنا وإخوتي - حتى تدبّل لنجعلها في السنة التالية حين تصلنا ملابس جديدة. وعندما يتعذر وصولها نظل شبه عراة).

عندما ذكرت اسم خالتي، استدعت ذاكرتي أشياء كثيرة مفرحة، وبعد لحظات استوحشت ورددت بغصة:

- لوحدي؟

- قلت لك سترافقك جدتك.

- هل قرية خالتي قريبة منا؟

- لا، هناك مدن كثيرة ستعبرونها حتى تصلوا لخالتك.

شعرت بالخوف وبأن شيئاً ما يبحث من أعماقي، فصحت:

- لن أذهب.

صمتت ونكست رأسها وظلت تروب الحناء، وتراخت رقبته. بعد حين مسحت وجهها بكم قميصها:

- كن رجلاً، ولا تغضب منك أحداً.

وجدت نفسي أمارس كثيراً من العناد وأتّنع عن مدّ راحة قدمي وأمارس دلالة في أمور لم تكن تسمح لي بممارستها، وانسقت لمواصلة شغبي دون أن تردعني أو أن تمدّ يدها لتقرصني كما هي عاداتها حين أستثيرها أو أغضبها، بل كلما تماديت في مضايقتها حضتني وغمغمت:

- سأفتقدك كثيراً.

وتمطرنى بقبلايتها، وتغرّسني بصدورها غرساً.

فأحسست بأنّي مقدم على أمر جلل.

قبل أن تحطفني الغربة نعمت بثلاث:

أمي التي صبغت علي حنائها فغرقت به وظللت بقية العمر أبحث عنه؛

قريتي التي ظلت جبلاً بداخلي كلما جرفتنّي مياه الغربة صعدت إليه ولوعة شجن تشمر بداخلي، وحلم يخامرني بالعودة لحقولها وتعرجاتها وشوارعها النابتة بالناس الطيبين؛

وحياة.. تلك الفتاة التي أقف على عينيها فأعدو طائراً يحلق في الفضاء بلا جناحين.

تقو، فخطفتني لحضنها وبكت.. كنت أحس بها ترتجف، وتلتهمني
يقبل محمومة.

سمعت صوت جدتي في الخارج فأعادتنني لموضعي، ومسحت
دموعها بكم كرتها الخضراء المطوقة بدنتيل باهت، وأعادت مصرها
لرأسها بعد أن جمعت خصلاته النافرة تحت ذلك الغطاء:

... في طريقك ستري السيارات وسترى البحر، وسترى
أشياء كثيرة وستعود لتحكي لنا عما رأيت.
- متى أعود؟

- عندما تقول لك خالك عد تعد.

ما بين اقتراح جدتي وسفري أسبوع انطوى بسرعة متناهية،
وفي آخر ليلة جلست على «شيرة» عالية لـ «تحنيني» كانت تنكس
رأسها طويلاً وتحاول أن تضحك من بعض تصرفاتي التي دأبت على
ممارستها في مثل هذه الحالات، لكن الضحكة لم تكن لتطأعها
بسهولة. شعرت بأن صوتها غداً ثقيلاً مبحوحاً تدفعه بجهد وهي
تحاول تثبيتتي على وضع معين، وتحلل الحناء بين فرجات أصابعي،
صحت:

- يوم ختاني لم تفعلي كل هذا.

فزت فجأة وضممتين بقوة وهي تغمغم ويحتها تزداد ثقلاً:

- لا تنسك الغربة أمك يا يحيى.

وأجهشت بالبكاء، وجدت نفسي أشاركها النشيج بلوعة وخوف
عما سيأتي.

لم أرها متلهفة عليّ إلا يوم ختاني، ومن لهفتها أصرت على

إخوتي استشعروا بشيء ما يحدق بي فمحنوني تعاطفهم وتنازلوا
لي عن أشياء كثيرة، وكان أخي الصغير يوسف يتفقد قعادتي في
الصباح، وإذا رأي أطلق عصفير وجهه بمرح:

- كنت أخاف أن أستيقظ من النوم فلا أجذك،

- تقول أمي إنك مسافر إلى بلاد بعيدة.

.....
- وسوف تغيب عنا كثيراً.

بدأت أهيئ نفسي للرحيل، وأتصور العالم الجديد الذي سأقذف
إليه. كانت أمي تحاول في كل كلماتها أن تحجب إلي هذا المجهول:
- ستري ما لم يره أحد من قبلك، ستري الكعبة وستزور قبر
المصطفى.

ويحت بكلماتها:

..... أمانة يا يحيى اقرأ لي الفاتحة هناك، وتبلغني.

سلامي.

- أبلغ سلامك لمن؟

- بلغ سلامي للنبي.

- النبي عايش!

- عايش عند ربه.

- وكيف أسلم لك عليه.

- جدتك أو خالك سوف تعلمانك.. لا تنس يا يحيى، ادع

عند الروضة إن الله يجمعنا.

وانخرطت في بكاء جاهدت أن تكففه بتصنع الضحك، فلم

حضور الختان بين الرجال . كانت تدفعني للحلبة الرقص ، وهي تحذرنى :

- إياك أن تتخبّ (٦) .

.....

- لا تجعل الناس يشمتون فينا .

.....

- لا تدعهم يقولون تربية حرة .

.....

- لا ترمش بعينك وتفضحني وتفضح نفسك .

وصايا كثيرة كانت تدلقها على مسامعي وأنا أرقص وأسير صوب منصة الختان . كان صوت الزير صاحباً ، أحسست أن الرئيس خميس يلهب بعصاه قلبي فيتعالى وجيبه ويكاد يفر بنبضاته المتسارعة من صدرى ، فاندمج في الرقص ويشاركني البعض رقصات سريعة ، وينسل لأظلم داخل المضمار أحوم برقصات مجعدة محاولاً إتقان أدائها ، كنت أشعر بالعيون تقف على كل حركة أؤدّها .

ثمة زغاريد تتعالى من بعيد ، وأصوات البنادق تعبر مسامعي بأزيز ثاقب ، وتعتمد بعضهم أن يرخي بندقيته لتنتطلق رصاصه أفقياً

(٦) طريقة الختان المتبعة في المناطق النهامية الجنوبية أن ينهيا من يُراد ختانه ، فيضع جنبيته على صابره ويطلق بصره للإمام دون أن يرمش بأهدابه حتى يقوم الختان بقطع العلقة الصغيرة ويربط ، فإن نظر المختون إلى قطعه أو رمش أو أظهر الخوف يقال فلان تخب ، وتظل عيرته ما بقي حياً .

كالشهاب غلغة دخاناً هزياً يتلاعب على رسخ البندقية . كانت زفة الختان تسير صوب المنصة بطء وفرح ، وأنا أقفز من مكان لآخر يحف بي «الزقارون»^(٧) وحلة البنادق ومجموعة من أهل القرية . كنت أشعر بالمهانة حين الملح أمني تسير خلفنا بلهفة ، وددت لو أتي أستطيع أن أصبح بها كي تعود . أثناء رقصاتي أسرق وجهها المخمور بالشفقة والترقب والفرح ، كانت ترفع يدها من بعيد وشفاتها تتمتان ، وحين تتعاس كلماتها من الوصول إليّ تخرج لسانها تذب الهواء بزغاريد ملتهبة .

وصلت إلى «المختينة»^(٨) فقفزت ووقفت منتصباً . كنت أسمع أعيرة البنادق تعبر هامتي وأنا محديق في الفضاء ، سل الختان إزارى وأحسست بشفرة تجتز قلقتي فيفور الدم لزجاً متدفقاً . كانت عيناى مسمرتى فى المدى لا تحديق فى شىء ، كنت فقط أريد أن أجتاز هذه المحنة دون أن أخلف العار لأمى . سمعت خالى جبريل يصيح :

- رفع رأسنا ابن خديج .

فأخذتني الحمية وصحت بالختان دون أن يهتز لي رمش :

- أختن يا ختان واقطع من الزبان لخالى .

فامتدت شفرته الحادة واقتطعت شريحة من عانتي ، فانطلقت أعيرة متوالية تزن فى المدى ويتراقص دخانها على فوهات البنادق ، فصحت :

(٧) الزقارون : ضاربو الدفوف والطبال .

(٨) المختينة عبارة عن كداديف (وهي جمع كدافة) تتكون من القمام عبر زمن طويل فتتحول إلى مكان مرتفع . والكداديف توجد فى كل مكان بالقرية ، إلا أن منصة الختان تُختار عادة فى فلاة خارج القرية .

- أختن يا ختان واقطع من شغافي لامي .

امتدت شفرته لفخذي، كنت أشعر بدماء لزجة تفور أسفل قامتي وتنساب كأهر صغيرة بين فخذي، تتعرج في انحناءات بعضها يتخثر وبعضها يواصل جريانه، لغط وزغاريد وأعيرة نارية ورجال يتصايحون:

- راجل من ظهر راجل .

أخذتني الحمية فأردت أن أقطع لكل من أعزه جزءاً من جسدي، كنت منفعلاً ومتهيجاً فصحت:

- أختن يا ختان . . .

وقبل أن أكمل جملتي كانت أمي قد خطفتني من فوق المختينة وهي تزغرد:

- لا تقتل نفسك يا ولدي .

فتخلصت من بين يديها وأصررت على مواصلة السير للبيت راقصاً، يومها قال الختان:

- لم أر مختوناً كابن خديج .

هذه الشجاعة كادت تفقدني حياتي؛ فقد ظللت لثلاثة أشهر أتوجع من الجروح التي تقيحت وامتدت لتأكل شغافي وتشعبت لئطال تلك الخصيتين الخسنتين، وكلما تلمحني أمي أتوجع تضرب صدرها بهلع:

- أنا السبب . . أنا السبب .

فلومها جدتي على تخاذلها وتنهرها زاجرة:

- كل الرجال تأكلهم جروح الختان .

فتردد بلوعة: ابني يتيم لو خنته في البيت ما لامني أحد .

بقيت تجاورني طوال تلك المدة وهي تلوم نفسها، وتجاهد لإيقاف زحف تلك القروح مجربة كل دواء تسمع به على أمل التئامها، وأقسمت بنذر ألا تدفعني لمكروه - بعدها - ما حييت، في الشهر الثالث من ختاني نحرت خروفاً بجوار قبة السيد المكي وسفت علي من ترابه، وعادت تزغرد على طوال الطريق .

استيقظت صباح السفر، فوجدت أمي تحضني وتشهق بصوت مكتوم، تغالبه بحة أحرقها نشيجها:

- يحیی حان وقت السفر .

صوتها يأتيني وكأني مغروس في حلم صاحب، افتح عيني وأغمضهما واهرب في النوم مرة أخرى . . فتمنحني بعض الوقت وتنكفئ . تحضني وتمهد على شعري، وعندما تسمع أصوات الاستعجال من جدتي وبعض من يهیی راحلتنا تهزني برفق وهي تستحثني:

- هيا يا بطل كلها يومان وتعود لنا .

بعد محاولات عدة استويت على فراشي، وتنعمت بلينها لبضع الوقت، كانت تشاغل بتجهيز أقراص الدقيق المعجونة بالسمن والسکر ووضع ثوبين حائلين في بقشتي، وتغني لي بصوت رقيق:

وابنني حج بی ولبی	وقبر النبی بیانی
قعدت ستین مدة	وملك الموت جانی
وابنني غسل وحیط	وسلانی یمانی

قلي وداعة الله يا والدة وداعة الـرحماني
وان جوك الملكين قبولي النبي نبيه والمسلمين اخواني
كان صوت جدتي يصير من خارج العشة:
- لن يفسد هذا الصبي إلا أنت، دعينا نخرج تأخرنا على
القافلة.

أذكر أنها حضنتني بقوة ورددت:

- لا تنسك الغربة أهلك.

وتحاطفني إخوتي في وداع قصير مبتسر وكمن يسلم وريده
لشجرة قاطعة دفعت بي لجدتي، وانبثت في نحيب مرتفع.
طفرت فجيعتي وبكيت وانطلقنا، وتراكضت الأشياء بسرعة
عجيبة.

كنت أسير وظلمة موحشة تبسط أطرافها في أعماقي فأزيح
لبدنها بتقريب كل من أجد في طريقي. قرب الضحى وقف المودعون
يلوحون بأيديهم الطينية حين كانت القافلة تنثر خلفها رائحة قريبي
ومن خلفنا كانت العشش والحقول تلمن في الفرار، عبرتنا الشمس
نحو المغيب ونحن لا زلنا نتلوى بين حقول القرى الممتدة على جنبات
الوادي حتى انتهينا لفلاة أخذت تتسع، وتتسع فتطاولت حشيرة موزة
في داخلي لأخيت وجهي وشهقاتي المتقطعة في الليل، أو ربما دمست
وجهي في ظهر جدتي التي حزممتني خلفها، لتمضي القافلة تعبر بنا
بوابات الغربة.

استيقظت والشمس تمطر صباحاً جديداً وأرضاً جديدة وتلك
الوجوه المخيبة في السفر تلقي بعبئها على مشارف الغيب وتحث
الخطى.

كانت القافلة مكونة من بغال وحير وجل واحد وعدد كبير من
الرجال والنساء والأطفال. كانت الأصوات تلهج بالتلبية بصوت
مهيب واللون الأبيض يرفرف على قامات الرجال ويلتف على أجساد
النساء. وخرجت مجموعة أخرى بدون إحرام كانت تستهدف الدنيا -
كما كانت تقول جدتي - وأماني طوال ترقص في أعماقهم بالعودة
بالمال الكثير وأنا منهم.

كنت أنزلق من على مؤخرة الحمار الذي نمتطيه، فأسقط بين
تلك الكثبان الرملية أو بين الأشواك وأظل أتألم، وحين ألمح القافلة
تجد في سيرها أصرخ بهم فيعود البعض للحمل وإعادتي رديفاً لجدتي.
بعد مسيرة ستة أيام وجدت نفسي وحيداً على ظهر الحمار.
وجدتي العجوز لمحتهم يضعونها في حفرة عميقة ويهيلون عليها التراب
ويمضون.

كنت أبكي كلما خطر ببالي أن دوري سيأتي وأنهم سوف يلقون
بي في حفرة عميقة ويطمروني بالتراب ويمضون. ظل هذا الخاطر
يلازمني حتى انضم إلى قافلتنا رجل لوجهه نتوءات الحياة، وكان كلما
لمحتني منكسراً اقترب مني ومسح على رأسي:

- ما أقمسى أبواك حين أخرجاك وأنت لا تزال صغيراً، ألا
يعلمان أن الغربة تفتت القلوب والرجال. كان يحدثني وأنا غارق في
طفولتي أستاذن بحنانه وأفر من وحشتي إلى لسانه الطري، أذكره
كالآن: لكنته تبدو جبيلة ووجهه المشرب بالحمرة موارب. لا تعرف
بماذا يفكر ولماذا يضحك، تشعر أحياناً أنه غابة من المفاجآت وحيناً
تلمحه كطفلة موشكة على الكذب، ومنذ أن انضم إلى قافلتنا وهو
يسير على قدميه يتلفع صوته ويقلب وجهه في اتجاهات عدة، ويده
تلك العصا الريانة التي اقتطعها من أشجار الأيك يسوط بها الهواء

الذي أمامه ويزم فمه، ويصفر ويتبعها بندننة محروقة:

تقطعت جبال الهوى

وعاد الليل له هوى

يا حارمني الرقاد أعد نجوم الخلا

عادي في طريقك ولا عني أنت في سلا

تجمده أثناء استراحة القافلة يجلس وحيداً يغني أو يبحث عن أشجار النبق، ويظل يلقي بالحجارة في جميع الاتجاهات لتتساقط حبات النبق بوفرة فيجمعها ويقوم بتوزيعها على الأطفال وهو يغني بحزن فاطر. كان يخصني بنصيب وافر.

في اليوم السابع من انضمامه لفاقلتنا وجدته يستحل ظهر حماري وأنا من خلفه ممسكاً بخاصرته بحنان. في ذلك اليوم أودعته قلبي الصغير وسرت تحت ظل أمره، منذ ذلك اليوم احتجت لمن يقودني. يأمرني فقط فأطيع. لم يكبر الطفل بداخلي، ظل يلجأ بالعودة والارتقاء في حضن أمه والبكاء حتى تسترضيه وتطلب العفو منه على ما سببت له من وحشة الفراق. كنت وما زلت أجمع دموعي في داخلي علني أبكي على صدرها يوماً. تبيس البكاء وتملحت روحي ولم يعد هناك طعم لهذه الحياة، فارتضيت أن أبقى أسير داخلي أنثر هناك أحلامي، وعجزني.

أذكر أنني لم أكن كذلك. فقد كنت طفلاً متسلطاً لا أرضى بالهوان، دائماً تسحبني أمي من فوق أقراني وأنا أكبل لهم الصناعات والركلات، وغالباً ما ينبع شجارنا من عيون امتهنت التحدي وسرعان ما تنفجر الشتائم لتتماسك بالأيدي وتذهب في عراك مرير.

في إحدى المرات فلتت رأس ابن الشيخ لأنه تقدمني حين كنا نرد الماء وغمزني باستخفاف:

- من تظن نفسك حتى تتقدمني.

كان يكبرني بسنتين أو ثلاث فتركت له حماري وابتعدت قليلاً والتقطت حجراً وفضضت له هامته وعدت راکضاً إلى البيت. كان أبي ينتظر الماء ليغتسل من طين الحقول، وعندما رأي الهث، فطن أن وراء لهائي مصيبة ما، فحمل «مهيرة» وغادر إلى الحقول، لم يكن يريد أن يقف أمامه أحد شاكياً، ولم يكن يريد أن يكسرني أمام أقراني. جاء الشيخ وأزبد وأرعد، وعندما لم يجد لصوته صدى عاد وهو يلوم أبي على تفريطه في تأديبي، ويردد بصوت عال:

- ابن الغريب يريد أن يشرب من دماننا.

كان يهينني للغد، يقذف بذوره في حقله وبداخلي، يمسك بكتفي ويثر كلماته في مسامعي:

- الرجل هو القادر على صنع حياته في أي ظرف من الظروف. عليه فقط أن يبتعد عن الحسة والذل، وألاً يجمع برجليه هوى وجبناً.

كنت أعتمد عليه كثيراً، وحين ووري التراب وقفت في العراء بجوار أسرة خرجت جميعها لتدب في الأرض بحثاً عن قوت يملأ بطنها.

كنا نتلازم جميعنا ونخرج في أيام الحصاد للمجادة في حقول أهل القرية، وأنا الوحيد من بين إخوتي أرفض أن أعمل أجيراً، وهذا يعود لغرس أبي.

أبي آخر أغصان أسرة انقرضت بالأمراض والهجرة وتمزقت
أوصالها في الأرض، فهو الابن الرابع لجد هجر أرض قومه بعد نزاع
على قبل من الماء، انتهى بموت خصمه، فانشق عن عائلته، وحل
أولاده وزوجته. هاجر ليلاً صوب قريننا. كانوا يطلقون عليه لقب
الغريب. ولم يسمح له بمزاولة كثير من الأعمال لكنه وجد طريقاً لأن
يصبح عمل احترام أهل القرية فتحالف مع بني الجويني، وتزوج
إحدى بناتهم. بعد أن ماتت زوجته خلفه له أربعة صبيان تناقصوا
بانجراف أحدهم في إحدى دفعات السيل، وظل الصبيان الثلاثة في
كنف بنت الجويني. استطاع كل منهم أن يكسب ثقة الأهالي،
والتداخل معهم والتزاوج منهم. وأصبح لهم ما يدر عليهم المال من
مهن متعددة. كانوا عصابة واحدة، كل واحد منهم يعمل ويودع أباه
ما كسبه. وفي سنوات قليلة كانت حقولهم تمكنهم من العيش بهدوء
وسكينة. وفي آخر أيام جدي احترق بموت اثنين من أبنائه، إذ انفلت
عليهما جمل من عقاله وهرسهما وهو يرغي ويزبد. ويقول أبي إن
أحد أعمامي وسم الجمل أثناء منافحته لإحدى النوق، وما زال الجمل
يضممر له الحقد حتى جاءت الفرصة حين كان إثنان من أعمامي
يتسامران بالقرب منه فتلفت من عقاله ويرك عليهما. وبعدها بأيام
مات جدي حسرة على ولديه، وأصبحت مصيبتنا دعوة يطلقها الأهالي
إذا أرادوا بأحد سوءاً فيقولون:

- رينا يسخر لك موة جمل وخسرة كحسرة الغريب.

فجأة وجد أبي نفسه وحيداً يقف في الحقول من الغلس إلى
الغروب. وكثير من أهالي القرية رأوا أن ما امتلكه هو حق تم
اغتنابه بالمال، وأن الأرض لا تباع، فأخذوا يمنعون عنه الماء،
ويرسلون أنفارهم لاجتثاث السنابل من حقوله وهي واقفة. كانوا

يرغبون في أن يعود أجيراً، فبقي شوكة في عيونهم وإن تناقصت
الحقول التي امتلكها بموت إخوته، فقد ذهبت حصصهم لمن
خلفوهم. وتفاقمت حسرته؛ لإخوته خلفوا ذرية إناثاً، فذهبت أموال
أسرتي لرجال من أهل القرية، ومن يومها وأبي يعمل لاسترداد حقول
أبيه وإخوته، فكان دائماً يمسك بي ويردد بصلف:

- عليك أن تعمل لاسترداد أموالك.

كان يردد هذه النصيحة كلما جلست إليه، وفي إحدى المرات
اعتلفت للبركات حزمة قصب، ونقذني مبلغاً زهيداً. وحين علم أبي
علقتي بإحدى أشجار الأثل وتناول غصناً منها وأشبعتني ضرباً وهو
يصيح:

- الأجير يظل خادماً طوال حياته.

من بعدها لم أعمل أجيراً، وأستكف كثيراً أن أكون تحت إمرة
شخص. وهذه الحصلة جعلتني أترك كثيراً من الفرص التي كان
بالإمكان أن تقيني بعض العنت الذي واجهني في غربتي الطويلة.
قبل أيام الأعياد تتوسل أمي لمن يكتب لها رسالة لأختها، وتكتبها
وتتظن، ومع قدوم أي مسافر تركض إليه وتسأله بلهفة:

- هل أرسلت خديجة معك شيئاً؟!

في أحيان كثيرة تصلنا ملابس جديدة، وبعض النقود التي
يتهلل لها وجه أمي، وننشغل أنا وإخوتي بتقليب تلك الملابس
فتتخاطفها وكل واحد منا يدعي أن ما خطفه يخصه، وفي أحيان كثيرة
يمسك أحدها بملابس الصبايا ظاناً أنها قميص أو كوت مستحدث،
ولا تترك تلك الملابس إلا حين تصبح أمي بنا وتجمعها من أيدينا
وتخبئها في صحراتها العتيقة. وفي يوم العيد نخرج في زهو بتلك

الملابس التي قلما يلبس أمثالنا مثلها.

ظنت بي خيراً حينما ختمت الختمة^(٩)، فقد اشترت لي مدواة وعود قصب قلمته بشفرة حادة وأجلستني بجوارها وهي منتشية:

- لن أحتاج لأحد بعد اليوم لأن يكتب لخالتك، إجلس واكتب لها كتاباً تخبرها بختمك للقرآن.

جلست خجلاً حائراً. ماذا أكتب! فأنا أحفظ القرآن عن ظهر قلب لكنني لا أجيد الكتابة السليمة، رددت بتحفز:

- أكتب.

غمست عود القصب بمحبرتي واحتوت ماذا أكتب في حين أخذت تنبثني بترديد جمل شائعة:

بسم الله الرحمن الرحيم
أختي الغالية خديج

سلمك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن سألتني عنا فنحن بحمد الله في خير وعافية لا ينقصنا سوى مشاهدة وجهك الغالي ربنا يجمع الشمل عن قريب إنه سميع مجيب.

أخبرك أن يحبي ختم الختمة وأصبح قاري وكتابه عالي، ويومين ثلاثة ويقري الناس في المسجد، وأريد له جبة من القטיפ الأخضر، ولا تنسي البنات ثيابهم اللي وصلت في السنة الماضية تلهلت وأصبحوا عرايا، وأنا لو قدرتي تشتري لي كرتة (موسلين) يكون خير.

وأطمئنك أن الوادي هذه السنة دفر دفرة قوية، ونحن منتظرين سنة فيها الخير، وربنا رزقنا بتبيع، وثلاث خراف جالسة أسمنهم

(٩) ختم الختمة حفظ القرآن كاملاً.

ليبيعهم في الأيام المقبلة والتصرف بشمنهم إلى أن يحين موسم الحصاد، أخبريني عن صحتك وصحة أولادك جعلهم الله في خير وعافية، سمعت من زوجة الطبيب أن حسن ربنا وفقه وجاود عند بعض التجار، ربنا يسخر له في كل خطوة، ويسخر لكم أولاد الحلال في طريقكم، ويرزق إبراهيم بشغلة تفيده أحسن من القرية، أخبرك أي كنت ناوية الحج هذه السنة لكن الفلوس مقصرة معاية ربنا يرزقنا عن قريب ونلتقي عند قبر الحبيب المصطفى.

أمك شاغلتنا كل يوم تصبح وهي تردد اسمك، وكل يوم لها حلم لكن حلمها الأخير ضايقها وتقول أنها خرجت في الطريق لزيارتك ورأتك في آخر الطريق وأنت لابسة أبيض في أبيض وفي يده رمانة نفسها تعطيك وكلما قربت منك بعدتي وقبل وصولها لك تناثرت حبوب رمانتها ونقمتها دجاجة قوقبية، وهي ذحين تبكي وتقول إلا تشوفك، لكنني قاعدة أصبرها وقلها إذا أحيانا ربنا من الموت نحجي السنة المقبلة.

خديج: لا تشغلي نفسك بهذا الهرج هي يومين وتنسى، أرسلني لها رسالة وطمئنها عنك، وعن جهنتك.

وفي الختام لكم منا السلام، سلمني لي على نفسك وعلى حسن وعلى إبراهيم وعلى جيرانك فرداً فرداً ويهدكم السلام من عندنا كل من أمك ويحبي، وليلي وفاطمة وحسنية ويوسف، وأخيك جبريل وبيت الوطاب وبيت حسن بن أحمد وسميتك خديج على وكل أهل القرية وبلغوا سلامنا على كل من يعز عليكم.

خديج.. الله الله لا تنسي الوصية.

أختك مريم

حرر في ٦ جمادي الأولى لعام ١٣٧٣

أذكر أنها توقفت عن إنثائي مراراً وصاحت بجاراتها:

- تعالوا انظروا يحى أصبح كاتباً.

التمت الجارات حولنا وكانت كل واحدة تزيد كلمة أو كلمتين وأنا أمرر قصبتي على تلك الورقة التي قايضتها بثلاث بيضات من دكان المنجلي. شعرت براحة حين توقفت عن إنثائي، لكن هذه الراحة تلاشت حينما طلبت مني قراءة ما كتبت، فأعدت جملها بتحريف مبالغ فيه فكانت في كل مرة تصحح قراءتي فأتصنع أنني أعيد كتابة كلماتها. خظفت تلك الرسالة ودستها في صدرها وركضت إلى بيت عمر مساوي ورجته أن يوصلها إلى أختها يدأ بيد، وبعد مرور تسعة أشهر وصلت رسالة من خالتي وبعض الهدايا المتواضعة، أخذتها بفرح وأجلستني لقراءتها فأخذت أتعتع وأقول ما لم تقله الرسالة، طوتها وقبلتها بحب، وفتحت الهدايا فلم تجد الجبة أو ثياباً للبنات، فشعرت بخيبة أمل، ناولتني الرسالة مرة أخرى وهي تردد بضيق:

- إقرأ، ألم تذكر سبباً لعدم إرسال ما طلبنا؟

تفحصت الرسالة مرة أخرى، وأخذت ألك كلمات متشابهات، فضربتني على رأسي بغضب:

- كنك «طيس»^(١٠). الحق علي تركتك كالبهيمة تمضغ القصب دون أن تداوم على قراءة ما حفظت.

وخظفت الرسالة، وصاحت بإسماعيل إمام المسجد والذي كان يتوضأ استعداداً للصلاة:

- الله يخليك يا إسماعيل تقرأ لي خطاب أختي.

(١٠) طيس: أي فقدت ما حفظت.

تناول منها الخطاب وقرأه بصوت جهوري وكأنه يخطب في صلاة الجمعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الغالية مريم

حفظك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن سألتني عنا فنحن بخير لا ينقصنا سوى رؤية وجوهكم الغالية، ونحن بحمد الله في خير ونعيم ونسأل الله أن يجمع فراقنا ويجمع الشمل عن قريب إنه سميع مجيب.

أختي الغالية:

انزعجتنا كثيراً حين وصلتنا ورقة مخططة بالسواد وليس بها جملة واحدة تقرأ وقد عبت على أولادي وقلت انهم لا يعرفون القراءة وأنهم لا يزالون يتهجون وتعبت كثيراً وأنا أدور بها وعرضتها على أناس كثيرين ليقروها لي، وكلهم قال إن هذه ليست رسالة، ربما تكون شارة لموت أحد، أو لمغزى لا يعرفه إلا صاحبه أو من بعثت له، وعندما سمعت سيرة الموت خفت عليك خوفاً كبيراً، وظننت أن أمي ماتت أو أصابها مكروه، ولعبت بي الوسوس ولم أرتح إلا عندما حلفت لي زوجة المساوي أنكم بخير وعرفت أن الذي كتبها يحى، ساعتها ارتحت وضحكت كثيراً من «شخايط» ابنك، ولو كان إبراهيم أو حسن عندك لكتبوا لك رسالة فهم تعلموا وأصبحوا يقرأون ويكتبون، أتمنى أن ترسلني لي يحى كي يتعلم ويشغل هنا بدل جلوسه فلا فائدة عندكم.

وسلمي لي على أولادك وعلى فاطمة محمدية وزعفران وأمنة
وراجحية وبيت الأعرج وسميتي خديج وعلى جميع من يسأل عنا.

ملاحظة:

خالتي الغالية: أنا كتبت هذا الجواب لأمي، وإبراهيم اشتغل
مجاود عند بيت أبو سبعين وتركتني أنعلم، وأنا أعمل في أيام الحج
بس، سلمى لي على نفسك وعلى جميع أولادك.

الرسلة أختك خديج

حرر في ١٥ محرم ١٣٧٤

أنهى إسماعيل قراءة الجواب فتقافزت ضحكات من حضر قراءة
الرسالة، ولكزتنى أمي بيدها وهي تصيح:
- يا غارة الله عليك كل هذه السنين تقرأ كتاب الله وما تعرف
تكتب رسالة.

وخبطتني في ظهري وهي تردد:

- والله إنك يحى شخايط.

ولصقت هذه النبذة بي ولم تغادرني، كنت أغضب كثيراً من
يناديني بهذا الاسم، حتى إذا وجدت نفسي في المدن البعيدة الموحشة
حننت لمن يناديني بـ «يحيى شخايط».

تنويه

أناس كثيرون يظنون أن حياتهم مليئة بالعذابات وأنها لو كتبت
لتحولت إلى رواية عظيمة، وكثيرون عرضوا عليّ تفاصيل حياتهم
لأكتبها فكننت أجلس بالساعات فلا أجد في حكاياتهم ما يحرك في

داخلي تلك الشرارة المولدة للحكايات الغريبة المدهشة والتي تدلك
في عوالم بكر وتفتح أمامك أبواباً لم ترق بعد.

كنت في زيارة لحسن جويني بعد خروجه من السجن، فقد
ربطت بيننا صداقة حيمة منذ أن كنا تلميذين في مدرسة الفلاح
نتقاسم شغب الطفولة وأحلام الشباب. وبرغم شظف العيش الذي
لازم حسن طوال مسيرته، إلا أنه كان طالباً مثابراً استطاع بمقدرة
خاصة أن يتجاوز كثيراً من العقبات المعيشية ويتفوق على ظروفه، لكنه
أصاب أمه بخيبة أمل حين أودع السجن.

قمت بزيارة له عقب خروجه من السجن بعد تردد مضى انتهى
بطرق باب بيته وأنا أحوك الاحتمالات التي يمكن أن تحدث لي من
جراء هذه الزيارة. وقف على الباب طالقاً قهقهة عالية لرؤيتي يغلب
عليها الدهشة، وجذبني لحضنه مضمخاً صوته:

- مرحباً بالكاتب الجهد.

كان ترحيباً خاصاً بالرغم من المبالغات التي أطلقها، وبعد ثورثة
طويلة كنت خلالها أتخاشى الدخول في التفاصيل وموقفي مما حدث،
ويبدو أنه كان عازفاً - هو أيضاً - عن ذلك. ولكي يفتح باباً للحديث
عرض علي كتابة رواية عن خالته

- أعلم أنك تواق لكتابة رواية عظيمة، وأنا أحمل لك هيكلها
فقط، عليك ربط أجزائها وتمثل حالتها ليخرج حلمك لحيز الوجود.

بددت ضحكة جافة في فضاء الغرفة التي تجمعنا وأنا أنهره من
مغبة أن يقودني لدهاليز السياسة:

- أنا فتان ولست سياسياً، وأعلم توجهك الأيديولوجي، والفن
لا يرتعن للأراء المسبقة.

أحسست باحتقاره بعد أن انتهت جلتي. فرد رداً موارباً أسخ
عليه روح الدعابة:

- أنت أجين من أن تسبح في المياه العاتية، أنا أريدك أن تستمع
لحكاية سترويا لك خالتي، وإذا وجدت بها ما يغريك للكتابة فافعل.

- الكتابة حالة إنسانية تشعر بها دون أن توزع صراخك على
الجيران.

- مشكلتك أنك تبحث عن عمل عظيم وفي الوقت نفسه تؤثر
السلامة.

- أنا لا أحب الجمعجة، ثم أخبرني: ماذا يمكن لامرأة قادمة
من أقصى الجنوب أن تقول؟

- وهذه مشكلة أخرى، يا كاتبنا الفذ.

فاحت رائحة سخريته هذه المرة، وقبل أن أقصص منه كان قد
أكمل جلسته دون أن ينتظر تعليقي:

.....
لم تقل إن الفن حالة إنسانية، فكيف لك أن
تكون كاتباً وأنت تجزئ الأشياء على أية حال - أنصو - أنها تحمل
حكاية ستكون رواية رائعة لو استطعت كتابتها. فقط استمع إليها.

وكالعادة هأت نفسي للجلوس والإصغاء ويسبقني يقين أنني
سأسمع حكاية باردة ككل الحكايات التي تعذب أصحابها وتتضخم
في مخيلتهم وتسد عليهم منافذ البهجة. وكان يمكن لو أنهم حركوا
أعناقهم قليلاً لرأوا أن الحياة أجل مما يتوهمون، هؤلاء الناس يذوبون
في حكاياتهم ألماً بينما لا تثير تلك الحكايات في داخل سامعها سوى
الملل، وعلى أبعد تقدير يجلس - السامع لتلك الحكاية - مجاملاً ويود لو

يكون بينه وبين محدثه أمد بعيد.

جلست مع تلك المرأة ذات العينين السوداوين والبشرة الصافية
وكأنها هربت بلونها من صفار بيض نضج واستوى على أنبها، لم
يعكر صفاء سوى تلك الدموع المتلاحقة. كانت تملك لساناً ذرباً
ومقدرة مدهشة على السرد، وكأنها روائية مدربة على الروي. . تقدم
وتؤخر، وتقطع وتوصل، وتلون صوتها، خالقة جواً مشحوناً مشوقاً
وكأنها هربت من مخدع شهرزاد حاملة سر الحكيم. وعندما سمعت
قصتها أحسست أنني قادر على كتابة رواية ما من خلال ذلك الكوم
الهائل من الكلمات والأحداث التي روتها.

وأعترض من القارئ العزيز لهذا الخلط الذي أوقعنا به الناشئ
حين أرفق بهذه الرواية أجزاء من عمل آخر قال إنه عثر على مخطوطته
عند أحد الوراقين بدون اسم لمؤلفه. وعندما قرأ تلك المخطوطة
وجدتها مناسبة لأن تكون رديفاً لعملي، وأقسم أن العملين مكملان
لبعضهما ويستحقان أن ينشرا سوياً، كعمل تجريبي رائد. ولا أدري
لماذا لم أعترض، لكن هذا التسامح الذي قد ألام عليه من قبل النقاد
لم يكن هاجسي الذي يشغلني وإنما اعتراضني ينشأ من الاختلاف
الأيديولوجي، فانا رجل قومي وحدوي أعترض وأتفق مع جمال داخل
المنهج وإن كنت أوصف بالسليبي تجاه كثير من القناعات التي أؤمن
بها. فرويتي أن جميع الأفكار يمكن أن تتعايش وأن كل منهج عليه أن
يعيش في دائرته ويتخلل عن رغبة الاحتواء تاركاً لكل إنسان فرصة أن
يختار دون قمع أو إجبار. ولذلك فانا أحترم كل تجربة إنسانية
وأمنحها حسن الظن، ومع هذا الايمان فإن ما كتبه المؤلف المجهول
من ألفاظ وتحقير للوحدة ولرموزها لا أقبله وأرفضه جملة وتفصيلاً،
وأبته القارئ العزيز أن ما كتبه المؤلف المجهول في هذا العمل لا يمثل

رأيي البتة. . لذلك فأنا ألتصّل من كل تلك المقولات التي جاءت على لسان الراوي المجهول، وسأقوم بترقيم كل فصل أكتبه بالأرقام اللاتينية كي يستطيع القارئ الفصل بين ما كتبه أنا وما كتبه المؤلف المجهول، والذي لم نجد له اسماً على تلك الفصول التي عثر عليها الناشر، وليسامح الله الناشر على هذه الورطة إن كانت بالفعل ورطة.

الراوي

في فناء واسع تراكمت أعواد الحطب، وتناثر الكر والبرع في أماكن مختلفة، ويبست شجرتي الحنون والريحان ولم يتبق منها إلا أغصان عارية من أوراقها تنتظر من جذع خاو أن يمدّها بقليل من الحياة، ويجوار السقيفة ربطت حمارة أخذت تلوك سجع العشة بنهم لتذود عن نفسها هلاك جوع يحوم بين دواب القرية ويخطفها، لتنتفخ لأيام قبل أن تتخطفها الحدايات والطيور الجارحة.

فناء واسع تركض به الرياح حاملة آثار الزواحف الليلية ومبقية ذرات رمل ناعم يتغلغل في ثنايا الجسد مخلفاً ضيقاً إضافياً لأهل القرية.

وقفت فاطمة بجوار التنور تسوي وتبسط جمراته المستعرة لتتمكن من خبز قرصين من حبوب الحنطة الدقينة، جمعتها من أرض بلقاء كانت فيما مضى مخزناً للحبوب. رمقتها أمها بإشفاق، وأخذت تكسر أعواد الحطب بتأفف:

- ليس لنا عمل إلا جمع الحطب، ولا أدري لماذا نجمعه.

- هذا أفضل من أن نجلس بدون عمل.

شعرت بغضب مفاجئ يعترها فصاحت:

- أنت مثل العقرب تجيدين اللدغ فقط، وهل هناك عمل ولم أقم به، كل القرية تجمع الحطب وليس لها عمل إلا هذا.

- لم أقل شيئاً يستوجب غضبك.

- والعقارب تظن أن لدغها لا يؤثر في أحد.

- كلما تحدثت معك عبت عليّ حديثي، فلن أتكلم.

- وهل ترييني مجنونة؟

.....

- لماذا أنت ساكنة؟

.....

- والله لولا العيب لتركتمك هنا ونفذت بجلدي.

.....

استشعرت بالوحشة، والضيق، فأخذت تبكي. كانت فاطمة تخالسها النظر، وتشاغل بتسوية النار:

- خالص لا تبكي.

تناشجت، ومسحت دموعها:

- خالص، من أجل الغالي لا تبكي.

فارتفع نحيبها. اقتربت منها وضمتها، فدفعتها عنها بتوتر:

- لو احترق القرصان فسنبكي كلنا.

ومدت يدها وأزالت دموعاً تحدّرت على وجنتيها وقبلت مفرق

رأسها:

- كلنا فداك .

- دعني الكلام الذي لا يجدي وعودي لمكانك .

شعرت بالضيق فعادت لجوار التنور مزعجرة :

- أنت التي تصديتني كلما حاولت التخفيف عنك .

نفرت فيها مفرقة :

- أنا أعرف كيف أخفف عن نفسي . احرصني أنت فقط على

قرصي الحنطة فربما لن نذوق شيئاً بعدهما .

.....

هشت الصوص الذي فقص قبل أيام ، وزفرت بضيق حين

لمحت نفور عظام حارثها النائمة أسفل سقفة البيت . شعرت برائحة

المرارة تجري بين جدران حنجرتها . زفرت وعادت تخاطب ابنتها

الواقفة أمام التنور وهي تستعد للخبز :

- حتى أشجار السلم قلت بهذه القرية .

.....

- هذه الحمامة ستموت اخرجني بها لأي مكان علك تجدين لها

ما يؤخر نهايتها لبعض الوقت .

أهملتها كمن لم يسمع شيئاً ، فعادت لنثر وساوسها بصوت

مسموع :

- ما الذي يجعل الحياة بائسة ؟

دفعت الريح المغبرة جملتها ، ومضت مخترفة بين العشش المنكبة

والأجساد المحترمة بخروق بالية ذابت من أماكن متعددة .

- هل يمضي هذا الموسم بلا أمطار ؟

جری هذا الخاطر بمخيلتها فتحسرت بأمة مرتفعة :

- آوه نحن في حاجة ماسة لقطرات قليلة .

(ستمر غيوم هذا العام غير مبالية بنظراتنا إليها ، هناك في البعيد

خلف الجبال السوداء ستهمي بمائها حيث لا أحد يحتاج إليه بينما

نحن منسيون هنا . . نجالس الجذب والأشواك ، وسيجد الوادي نفسه

يلهو برماله البيضاء الفضية ، ويضحك من حقولنا النائمة على جنباته

في انتظار أن تنهض بقوائمها . لن نجد أماناً سوى الانتظار ، ونيش

الأرض عليها تمدنا بقليل من حبوبها المخزونة المنسية منذ أمد ، تلك

الحبوب التي كانت في يوم ما فائضاً . ها هي خلال عام واحد

قرضت وظلت نواجزنا تبحث عما تطحنه ، لم يعد باقياً منها إلا

حبوب أكلها السوس ، فتحللت وبقي منها حبيبات منخورة نجمعها

بشق الأنفس لنلوكها عليها تؤخر سقوطنا لبعض الوقت . هل سنموت

ونحن ننتظر؟ لا . لا . لا بد من أن يخرجوا مرة أخرى للصلاة .

سيرحنا ربنا . نحن محتاجون فقط لصلاة ثانية وإن استوجب الأمر

لثالثة ورابعة . فسنموت هنا إذا لم ينزل المطر . ها هي دوابنا تنفق ،

والأرض تغالي في صلفها فتكشف عن وجهها تشققاتها وقحطها .

أرض تحتفل بالجراد والأشجار اليابسة . . ما الذي يحمل الجراد

للقوف في الأماكن الخربة . هذه الحشرات إشارة للموت ، فقوارضها

الصغيرة تحمد أرواح الأشجار المتبقية حتى إذا جاء الموت لم يعد هناك

عرق ينفض . يا الله . . ارحنا ، سنموت جوعاً ، نعم لا بد من الخروج

للصلاة . سوف أوصي زوجة إسماعيل عبده لتحرض زوجها

للخروج ، ولا بد من سوق عجل سمين أماناً . نعم لا بد أن نشترك

جيباً لشراء هذا العجل ، وننحره بعد الصلاة عل الغيوم نحن لإخاد

الدماء المنسكبة ، وسينزل المطر ، وتعود إلينا الحياة)

وأخذت تعدد احتياجاتها بصوت مسموع وهي تكسر أعواد
الأثل اليابسة، وتجمع الأغصان والجدوع في حزم متفرقة:

- من يشتري حطباً في هذه الأيام؟

نادت على حسينة:

- ليس بالأزيار قطرة ماء لو تخرجين لتردي لنا.

ظهرت حسينة وهي تطيب شعرها وتصففه:

- رأسي لا يزال أخضر.

- لم يعد ناقصاً عليك إلا الزينة.

- لنذهب فاطمة أو ليلي!

فصاحت فاطمة من عند الثنور:

- ألا ترين ماذا أفعل؟

شعرت بحيرتها أمامهما، فصاحت:

- وأين هي ليلي؟

- ذهبت بيوسف لبيت خالي.

- أنتن أشبه بالحبال المقطعة، لا أستفيد منكن في شيء.

.....

... غطي شعرك واخرجي أنت.

- والله ما خرجت بهذه الحمارة، فهي في كل مكان تسقط،
وأظن سخرية للجميع وأنا أحاول معها.

- انتظري حتى أشتري لك حصاناً لتردي عليه.

- جربي واخرجي أنت، بعدها ستعرفين أن هذه الحمارة
أصبحت عبثاً علينا.

- لا أحصد إلا كلمات ألسنتكن، ولا واحدة منكن تحس بي.

فلم تجبها، وانسلت إلى داخل العشة وأخذت تشتتمها بحرقرة،
وتردد:

- لو أبقيت يحبي لخفف عني.

وتنهدت وجلست بجوار حطبها الموزع تنظر لفاطمة التي بدا
كشفها من خلال شق كبير في كرتها الحمراء وتنهدت بضيق:

- ما الذي يمكن أن أفعله ولم أفعله.

وانهارت في بكاء محموم.

(أكان لا بد أن أدفع بابني للغربة من أجل أن أسعد أنا، الله
الجلد عندما يحف يتطلب الماء من المستنقعات والبرك، من أي
مكان يتطلبه ليرطب جفافه، أعذرني يا يحيى، فلم أعد أتحمل. فمئذ
أن عرفت الدنيا وأنا أركض من أجل هذا البطن، لكنني أكثر قسوة
من أمي، فهي كانت تخرجني للخليان القريبة لأعود بما تجود به
الأرض القاحلة... بهش، كين، ويكة^(١١)، الويكة هي النبتة الوحيدة
التي تصاحبنا في جدينا، فعندما أعود بها تستعجل أمي سحقها على

(١١) البهش: حبات الدوم، والكين حبات النبق، والويكة نبتة من الخضروات
مذاقها يشبه مذاق الملوخية غير أن نبتة الويكة تلبد أو تفتقرش الأرض
افترشاً، وهي أكلة المعدمين تؤخذ وتسحق وتخلط بالفلفل والليمون وتؤكل
وفي أحيان تخفف لتكون وجبة احتياطية إذا ضرب الجذب أطنابه.

الرحى فنتلمظها بلهفة لتسكن بطوننا الملتهبة قليلاً. كنت أقسى منها،
فقد أخرجتك لدنيا واسعة ليس بجوارها حقل ولا عين تمذك بقليل
من جفافها. آوه يا يحيى تركتك قبل أن أشم عرقك رجلاً، وقبل أن
تفرح بطفولتك بجوار إخوتك.. أي شمس تظلللك الآن؟ هل
وصلت لجدّة؟ لقد وصيت جدتك أن تضعك في عينيها، ونسيت أن
أوصي الدنيا عليك.....).

تناثر الصوص ناقماً بعرماً ترمى على عرصّة الدار ومقتفياً أثر
دجاجة تسير نافشة جناحيها وخامشة الأرض بمخالبها المتأكلة، تلك
المخالب التي تشي أنها نبشت أماكن عدة دون أن تجد ضالتها، هشتها
فتقافرت على الأسجف المائلة والتي تساقط ثمامها وتداعى صربها
وتفرق عن فرجات متقاربة.

تنهدت بعمق:

- الأسجف المنخفضة تغري العابر بالنظر ويبدو أننا أصبحنا
هدفاً لتلك العيون.

قالت جملتها وانتظرت أن يأتيها الرد من ابنتها التي لا زالت
تجلس بجوار التنور تنهياً لحبز أقراص الحنطة، وهي تقلب جرات
مستعرة وتحاول تسويتها بعود قصير معوج وشعرها المكشوف يتلاعب
على جبينها، بينما تعكر وجهها بحمى النار التلظية المنبثقة من فوهة
التنور، وظل وجهها مزموماً وهي تحبز أقراصها بعد أن تلعق أناملها
قليلاً من ماء بصحن استقر بجوارها، وتلوك ملاحظات أمها بداخلها
بحزن. كانت الأم تعيد جملها بتوتر وجدّة، وعندما لم تجد جواباً من
ابنتها صرخت بها بضيق:

- يبدو أنني سأجنّ وأنا أحدث نفسي.

وتابعت بأنفعال:

- هل ستركيني أهذي ما تبقى من النهار.

بادلتها نفس النبرة:

- وما الذي أقدر أن أصنعه ولم أفعل؟

صمتت وسال بيالها ضيقها:

- (نعم ما الذي تستطيع أن تفعله فتاة في مثل سنّها، أكان لا
بد أن أقذف به للغربة، أين هو الآن؟ يا حرقه حشاشي، لو بقي
معي لرحمني من هذه اللوعة، ماذا يصنع الآن؟ في أي مكان هو؟
ماذا يأكل؟ هل هو نائم أم مستيقظ، أم تحتفل به الغربة لتأكله في
الغد؟ لم نعد نريد شيئاً. فقط أريده أن يعود، هو مذبوح بغربته وأنا
مذبوحة بلهفتي عليه، أمن أجل لقمة خبز أرمي بقطعة من لحمي
للمدن البعيدة، إنه يذكرني بالبهيمة التي تضل عن القطيع حيث تسير
رافعة ثغاءها وربما تمتد إليها يد في الخفاء وتذببحها، يا
الله.....).

نفضت خواطرها بصوت مسموع:

- أعوذ بالله من هذه الوسواس.

وعادت لمحاكاة ابتها:

- قلت لك اخرجي بالحمارّة لأي مكان علك تجدين لها علفاً.

- يكفي ما حدث الباردة.

(بالأمس لاكت الحمارّة سجف عبده مساوي، فخرج ثائراً

وشتم فاطمة وأمها وانهاك بميهره على الدابة حتى تقوس ظهرها).

- لعنة الله عليه من رجل كلما خطرت فعلته ببالي أتمنى أن أحس بطنه.

رمقتها فاطمة بصمت، بينما واصلت سخطها:

- ألا يستحي هذا الرجل؟ بالأمس فقط كنت أقف على رأس زوجته طوال الليل، أهذا جزائي؟ النفوس الوضيعة تظل وضيعة.

وقدفت بأعواد الحطب المسكة بها على الأرض:

- أخرجني بها للخلاء علّ نبتة نسيت أنه فصل الجذب فخرجت.

ردت فاطمة بصلف:

- الأرض لا تنسى فصولها.

- تجيدين القول حين يكون الحديث عن التشاؤم، قولي شيئاً يريحني.

لم تجبها، وأغلقت التنور وجلست تقلب التراب بعود وتتطلع لأمها بنصف ابتسامة.

- لا تنظري إليّ هكذا، قولي أي شيء.

- غداً الأحد.

شعرت بغيط شديد، وقدفتها يعود كان عالقاً بيدها:

- أنت وإخوتك ستعجلون بدفني.

وعندما رأتها تضحك عليها، رافت لها ضحكتها فهدأت قليلاً وخطبتها بنبرة أقل حدة:

- ما هي أخبار خالك؟

- لم يعد، وتقول زوجته انه ذهب ليشكي للقاضي عيسى.

عقبت بفنور:

- وماذا عساه أن يصنع له بدون بينة، كنت آمل أن يقرضني، أما الآن فعليّ أن أعرض وجهي للناس.

- وهل في القرية من يقرض في هذه الأيام؟

- قلت لك سدي فمك عن كسر الخاطر.

- أسده أو أفتحه، هذه هي الحقيقة.

كانت تغلي، وفي أحيان كثيرة تلعن الفاقة ويطننها الذي توالد بثلاث إناث وذكرين، ويزداد سخطها حين تتذكر يحى الذي قدفت به للغربة وتفز من جلستها لتصب غضبها بصورة مفتعلة على أبنائها وتصيح بهم:

- إلى متى أظل معلقة بكم.

وعندما ينكسرون وتهل دموع يوسف تحوطهم وتشاركهم البكاء، وتردد:

- غداً يأتي الغالي ويريحنا من كل هذا العناء.

أحست فاطمة أن جملتها هربت منها حين عقبت على مقتلها:

- كل الخوف أن ينسانا في المدينة.

فقار غضبها وخشت تراباً وسفته:

- ألم أقل لك، سدي فمك عن كسر الخاطر؟

فصاحت وأمسكت بعينيها وهي تتلوى وتظهر ألماً مبالغاً،
فنهضت إليها فزعة تغسل لها عينيها بالماء، وهي تصيح بحرقة:
- إلى متى أظل معلقة بكم؟



حط الجراد على تلك الأشجار اليابسة المتناثرة على مفترق
القرية، وجرى نهار قاتظ بين حقول احتضنت غبارها وتشققاتها منذ
فترة ليست قصيرة، وتحت عرائش منصوبة على جنبات الحقول جلس
الفلاحون يحسسون الشاي بملل، وعيونهم تتابع صبية تراكضوا خلف
سرب الجراد للإمساك به وشيئاً، وصبايا أخذن يتقبن عن أي شيء
بداخل الأرض الينة، وحين لا يجدن شيئاً يلتقطن الأعواد اليابسة
ويجمعن فوق حبل امتد لربط تلك الأعواد، وخلفهن تسير بعض
العجائز متأففات من أعمالهن التي لا تروق لهن. خبطت إحداهن
فاطمة على كتفها:

- العمل يحتاج صبراً وأراك تتعاسين في كل مرة.

غمغمت فاطمة بتذمر:

- بالله عليك هل يجدي الصبر مع هذا القحط؟ مضت أيام
ونحن نخرج ولا نعود إلا بالخطب اليابس الذي امتلات به البيوت،
وكل واحد منا يطمع أن يشتري منه الآخر، بينما لا يوجد شيء
يحرقه هذا الخطب.. دفعتها العجوز أمامها:

- هذا الذي أقصده، أين الصبر؟!

تركتها وركضت باتجاه خالها المتضيئ بظل عريش متداع:

- يا خال.. أمني تريد رؤيتك.

- أخبريا أي لم أنس.

فتحركت من أمامه وحملت حزمة حطب على رأسها، ومضت
تعبّر طرقاً ملتوية توصل لبيوت القرية.

زفر جبريل وهو يتناول كأس الشاي الغامق:

- القحط أكل كل شيء حتى حركتنا.

فعاونه حين مرعي بزفرة حادة:

- ليس أمامنا سوى الانتظار.

- لقد مللت.

- كلنا مللنا، ولكن ليس أمامنا من حيلة ويبدو أن هذه السنة
ستمضي دون قطر.

- قال الله ولا فالك.

- أخبرني ماذا حدث مع جابر.

- قبح الله جابر، وصلت قضيتنا للقاضي وهو لا يزال يماطل
وينفي وأنا لا زلت أنتظر، ولو كان غير هذا الوقت لانتظرت ولكن
مقدم الوالدة أصبح وشيكاً ولا بد أن أساعد أم يحيى في استقبالها.

- أنت المخطئ، فجابر مثل المقبرة يأخذ ويدفن ولا تسترد منه
إلا العفن.

- كنت أظن أنني أعمل خيراً معه.

- منذ أن عرفناه وهو جاحد لكل معروف.

- الآن لا يجد.....

توقفا فجأة على صياح بعض الأطفال وهم يتجارون ممسكين بطائر غريب الهيئة، وقد التصق ريشه بين أصابعهم، وكل منهم يدعي أنه اصطاده بمفرده، فنهزم جبريل وخطفه من بين أيديهم، وثنى رقبته وتمرر شفرته فسال دمه شحيحاً وارتعش بين يديه للحظات وهمد. نتف ريشه على عجل وألقاه على تلك الجمرات المستعرة، ويجواره تآثر جراد مختلف الأحجام، وهبط الرجال والأطفال والنساء ملتفين حول الموقد وانتظروا أن ينضج الطائر بينما ظل لعابهم يسيل بغزارة وترقب.



تناست كل ما يمكن أن يكدر صفوها، وعمدت إلى بيع «دبلول»^(١٢) ذهب حصلت عليه يوم زواجها. أخرجته من صهارتها وأخذت تتطلع إليه بشوق، وأحاطت رقبته به وحملت مرأتها المكسورة ونظرت إلى جيدها المتعطف قبل الأوان، وسرحت قليلاً قبل أن تداهما ابتها حسينة ذات اللسان المنزلق على الدوام - كما تصفها -:

- حنيتي للزينة.

تنبت لها، ودلقت ابتسامه مقتضبة ورددت بمكابرة:

- لا زلت صغيرة ولم يعجزني إلا بطونكم المفتوحة.

سحبته من جيدها وخبأته بيدها، وتناولت «شيطرها» وهمت بالخروج، فاستوقفتها حسينة:

- إلى أين؟

(١٢) الدبلول عبارة عن قطعة ذهب دائرية تعلق بالحلق بواسطة خيط كتان أسود، وعادة ما يكون بلا سلسلة ذهبية.

- سابع هذا الدبلول.

فاحتجت حسينة على بيعه:

- ألم تقولي إنك ستهديني إياه مع زواجي؟

- وهل هناك من يفكر بالزواج في هذه القرية؟

.....

..... الجوع أنسى الناس كل شيء يا خبلى.....

- أنا الوحيدة التي ستزوج.

نظرت إلى وجهها المتدفق بالأنوثة وسمت عليها في سرها،

ورددت:

- «لما يجي نسميه».

- زوجي مفصل جاهز ليس محتاجاً لتسمية.

- قري في مكانك ودعيني ألحق بموسى بن أحمد قبل أن يغلق

دكانه.

- حلفتك بالغالي يحى ما تبيعي الدبلول.

زفرت بحدة:

- وبم أستقبل جدتك؟

- بيعي هذه الحمارة.

شعرت بصدرها يتمدد وينفجر فصاحت بها:

- وأركب على ظهرك عندما أذهب لمشاويري.

فانطلقت ضحكات أخوتها فلم تتمالك نفسها من البكاء،

فتركتها وتحركت لدكان موسى لبيع الدبلول أو رهته.



من بعيد كان صوت مريم يلهم بترنيم صاف، وهي تحمل
قعدة أمها العائدة من الحج:

ألا يا عجل وعجيلة

عجل بهم في الليلة

قل على غنى البشر

ذحين أناني في الليلة

شيشره بالشمايل

والطوق ليه بـ

لم تطب لها تلك الكلمات فجلمت تنسج كلمات جديدة من
خيلتها تغير وتبدل في كلماتها حتى راقت لها، فظلت ترددها بشجن.
كانت ترددها بصوت رخو سكبت به لوعتها وتقاطرت دموعها كلما
قفزت صورة يحيى في خيلتها، وتقطع غناها ههنة مرة تحاول تمزيقها
بتجويد الغناء ورفع الصوت ليرتد إليها شجياً تخامره لوعة استجاب
لها أبناؤها بونة متلاحقة وترديد آخر مقاطعها.

انطلق عبد الأشراف يصيح بأعلى صوته:

.. البشارة لي يا أم يحيى، وصل الحجيج.. وصل الحجيج.

نهضت بعجلة وهي غير مصدقة:

- فعلاً وصلوا.

فأكد لها جوهر بلهجة متداعية:

- أول قافلة دخلت القرية قبل قليل.

وبتلهم استحثته: هل رأيت معهم أمي.

فهز رأسه نافياً، فخبطته على كتفه ضاحكة: وعلى ماذا تطالب
بالبشارة.

- بوصول الحجيج.

فتركته يتبعها بتحفز وانطلقت إلى مشارف القرية.

خرجت مجموعة كبيرة لخارج القرية ووقفوا ينتظرون القادمين،
كان السؤال الذي يقف على ألسنتهم لأي قادم:

- هل رأيت قافلة حجاج قادمة؟

ومع اهتزازة رأسه النافية يكونون قد عادوا إلى مواقعهم وعلقوا
أبصارهم بالمدى عليهم يرون القادمين، فصعد بعضهم فوق أشجار
الأثل العالية وبعضهم أخذ يتقدم بخطواته حتى بلغ الطرق المتفرقة من
رأس الوادي والتي تشعب لتقود الخطى إلى قرى نامت ببطن الوادي.

ترقب، وتحفز، وثمة فرح يجري على تلك الوجوه المكدودة،
وأحلام خضراء يحملها المنتظرون ويلوحون بها لخواطرمهم، وخاطر
عذب يعبر خيلتهم بأن يعود حاج بهدية ما، هدية صغيرة حتى لو
كانت قليلاً من الحمص، والخرنوب.

كان الكثيرون يتوقعون وصول قافلة الحجيج خلال أيام
معدودات، فنشطت كثير من المهن، الخسافون، والمقطنون،
والفخاريون، والمجولون، والطلاسات، والخياطات، مهن كثيرة أفاقت
من سباتها وأخذت تعمل وتبيع على ذمة السنة القادمة حين تنهض
السنايل من بياسها أو بمقايسة جائرة أو برهن الحقول الميتة.

ولكي يكتمل الفرح بمقدم الحجاج تشاغل الصباغون بصيغ
بضاعتهم وتلوينها بألوان زاهية، وتفتن بائعو الحلوى بتقديم
متجاتهم، ووضعت العجائز الطفي، ونشطت الخياطات يخطن الكرت
والسداري لتقديمها للحاجات، وغزل الكوافي والشالات للرجال،
وتفتنت كثير من النساء في تلوين ركب القعايد بعد قطرتها فتعرجت
ألوان حمراء وخضراء، وحرصن على زخرفة العنش بانحناءات
متعرجة دقيقة مستخدمات ألواناً فاقعة، ونقشن كلمات وآيات وفي
صدر كل عشة كتبت جملة واحدة (حجاً مبروراً وسعيّاً مشكوراً)،
ومن وجد سعة في يده وضع قبباً من الفضة الملساء على رؤوس
الأراك وبسطت فروش قطنية نجدت وملئت بتولات القطن الناصع،
وارتمت على أطرافها مخدات طرزت ببونها بالخيوط الملونة المزركشة
وغطيت بأغطية ناعمة ذات ملمس رطيب.

وعندما أصبح دخول الحجيج وشيكاً عمدت بعضهن لسحق
الحناء وتخميمه وبعضهن خرجن طلباً للحصول على كميات كبيرة من
الفل والكاذي من الأسواق القريبة بعد أن ماتت رذائمهم بالغبرة التي
سكنت بينهم منذ شهر مضى.

وبعضهن جلسن ينظمن الأهازيج ويتدرين على ضرب الدفوف
بنغمات توازي وتحالط تلك الأشعار المعدة. وكانت أزوجة مريم
خالدية الأقرب للأداء، فأخذن ينقرنها على الدف برفقة محمد فيها
النساء على إظهار الجبور المتعل في رقصتهن، وقد جلست جمعة تنقر
الدف نقرأ شجياً وتلهج بكلمات مريم خالدية ومن خلفها تردد النساء
آخر المقاطع:

يا مشى في طريق الكعبة

عودت بالمحبة

طريقك خير ونجمك سهيل

وعرفك عاده هيل في هيل

يا غادي في مطر وسيل

أعطف علينا في ليل

طولك ساني ومقدمك نساني

قوله آه من خلاني

وهرج كل من يشناني

تجمعت النساء بالبيوت المنتظرة حجاجها، وتبادلن الأمنيات
والحكايات والضحك، واختلطت روائح المدع بالمستكى بعطورهن
ذات الرائحة النفاذة.

فرحة تنسكب بينهن فتنسيهن غلبة القحط والدين المؤجل،
وتحشبن قامات رجالهن بين الحقول الميتة.
أبدت جمالة تذرهما بصوت مبحوح تغالبه حشجة سكنت
حنجرتها منذ أن كانت صغيرة:

- ليتني كنت معهم وسعدت بهذا الاستقبال.

فخبطتها على ظهرها إحدى صويحاتها بمرح:

- أطلبني من الله يسهل لك بابن الحلال.

فردت بضحكة مكسرة أقرب لانكسار صحن:

- تعبت من مثل هذا الدعاء، ولم أر أحداً في طريقي، قلت
أغير الدعاء عسى تنفتح عيون الرجال، فتضاحكت صويحاتها،
وغمزتها بسخوية:

- لأن الرجال مفتحون لم يمروا في طريقك.

وتوقفن عن ضحكاتهن حين سمعن «القاوي»^(١٣) واستعذن بالله
وهن يتراكن صوب الصوت ويتساءلن بإلحاح:

- من مات؟

وينصتن من أي الجهات يأتي الصوت. كن يتراكن ويرفعن
أصواتهن مولولات بصوت حاد وهن لا يعرفن على من يبكين، وحين
يلغن الصوت علمن أن محسنة يوسفية ماتت في طريقها لمكة، وتحول
استقبال الحجاج إلى فرحة ذاوية وأخذن يسألن:
- كيف ماتت العجوز يوسفية.

الفصل الثالث

بعد أن دخلنا جيزان تفرق أفراد قافلتنا ووجدت نفسي أسير
معه دون أن أجرؤ على الاعتراض. كان يبدي حرصه عليّ ويلزمني
بأمور لا تجد في داخلي القبول، وأمثلة لأوامره رغماً عني، فلم يعد
من أمسك به في هذه الغربة سواء.

في ميدان المطلع خرطت القوافل وجلسنا أمام دوابنا في انتظار
من يشتريها. وانشغل الكثير بشراء ما يسد جوعهم من المأكولات
المتعددة التي بسطها الباعة أمامهم وتنادوا بمحاسنها بصوت مرتفع لا
يخلو من تنغيم. واختلط الناس في زحمة ولغط وقد تراصت سيارات
قليلة كان سائقوها يتصايحون بأسماء المدن المتوجهين إليها ويملاون
سياراتهم بأرتال من الأجساد المنهكة ويغادرون المكان بوجوه غارقة في
شرودها وتعبها.

كانت قافلتنا قد تمزقت وتفرقت بداخل الميدان ولم يتبق إلا نفر
قليل ينتظرون بيع دوابهم التي لم تعد صالحة لمواصلة السير إلى مكة.
كنت أشعر بالجوع والتعب، إلا أن شعور الغربة والوحدة كان طاغياً.
اشتهيته لأكلة دجر. فتحت كمرى فلم أجده فيه شيئاً. فالريال
المجيدي امتدت إليه يد ذلك الرجل وغير مكانه ليحتل مكاناً ضيقاً
بكمرة العريض.

كنت المحم يقف محرجاً على محاري وينفعل من مساومة أولئك

(١٣) القاوي: لفظة تشير إلى ارتفاع صوت امرأة تنبئ بحدوث موت.

المشتريين المتقاعسين، وكلما ساومه أحدهم على حماري صرخ به باحتداد:

- هذا حمار مؤصل تشتريه بهذا الثمن؟

كنت أسمع تعليقات على مرافقي يصاحبها ضحك مرتفع:

- هذا الجليي يظن حماره حصاناً.

وطفرت ضحكاتهم حين علق أحدهم:

- أو أنه يريد أن يبيع نفسه مع الحمار.

كان مرافقي منشغلاً عنهم برفع صوته:

- هذا حمار مؤصل.

فتحرك أحد أولئك الساخرين منه وهو يغمز لأصحابه، واقترب منه مساوماً بنبرة تهكمية لا تخلو من تبجح:

- من أي سلالة؟

وهم مرافقي ببيان أصوله لكنه توقف عند تلك الجملة التي ارتج لها:

... أم أنه من نفس سلالتك.

فصاح وتطايير زيد شذقيه:

- تشتمني يا فسل يا هين؟

وتماسكا بالأيدي، ووجدت نفسي أناصره، وأشد خصمه من الخلف فالتفت إليّ وصفعني، فزاد سعار مرافقي وأزبد:

- وتضرب ابني أيضاً؟

وألقي بنفسه عليه، فتجمع أهل السوق عليهما وفرعوا بينهما، فجرني من يدي وباليد الأخرى قاد الحمار، بينما ظلت تلك المجموعة تتبعنا باللمز والضحك.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت ابناً له أمام من يقابلنا.

سرنا مع البحر حيث كانت أمواجه المتكاسلة تقذف بالسنتها، صبية تقافزوا لدخل مياهه وأجسادهم الصغيرة تطفو كأوراق شجيرات الرين الباهتة، بينما أطلت علينا بيوت المدينة بقاماتها المنخفضة وبيوتها المفتوحة.

قال مرافقي دون أن يلتفت إليّ:

- لي صديق يسكن بالساحل نبئت الليلة عنده وفي الغد يسهل

الله.

كنت متشككاً من حديثه، فعقبت على الفور:

- هل فعلاً لك صديق هنا؟

رفع رأسه، وتطلع إليّ بزهو:

- في كل مكان لي أصدقاء إلا أن صالح الحنوني صديق عمر. ستره، فهو شهيم وصاحب نخوة. كان يهذي بكلمات كثيرة، وعيناي معلقتان بأولئك الصبية الذين يمرحون بداخل البحر وعلى شاطئه كنت أتوق لأن أقذف بجسدي بينهم ولتذهب بي مياه البحر إلى منتهاها، ولم أستطع أن أكاشفه بهذه الرغبة ككثير من الرغبات التي تتمدد في خاطري وتعجز عن الخروج، فسرت خلفه كخيوط إبرة. كان يدندن بصوت مسموع حتى إذا خامره شك في رداءه صوته أعاد مقاطعه يتجويد أكثر رقة.

سلكتنا طرقاً متعرجة وقد ترك لي مهمة أن أقود حماري . فكرت أن أصعد على ظهره لكنني تراجعت حين تذكرت صراخه لي حينما فعلت ذلك بداخل السوق :

- قطع الحمار مسافة طويلة دعه يرتاح .

وعندما وجد أن هذه الجملة لم ترخه عقب :

- لو أنك هذا الحمار وركبت على ظهره مسيرة خمسة أيام أو عشرة كيف سيكون حالك ، ارفق بالدواب ولا تكن غليظاً !!

سرت خلفه ورغبات كثيرة تراودني فأدفعها وأصرفها بعيداً عن نفسي خوفاً من صراخه .

وقف على «القبل»^(١٤) واسع تناثرت في زواياه أشجار الرمان والحنون وشجرة سدر مثمرة ، وفي وسطه استندت رديمة فل عامرة على سجف مدت عليه حبال رقيقة تمسك بتلك الأغصان النافرة للأعلى . واستقرت عشتان كبيران في نهاية «القبل» ببوابتين تطل إحداهما على البحر والأخرى باتجاه الشام .

وقف منادياً على صاحب الدار فخرج أربعيني بملابس منظمة ذات ألوان متداخلة ، وعندما رآه صاح بحرح :

- ألا زلت تجوب القرى ؟

وحضنه بقوة ، وسلم عليّ بعجل وبدون اهتمام ، وقاده للداخل . تناثرت كلماتها في فضاء العشة بحبور ، كان مصيفنا أكثر نشوة وشباباً سمعته يردد :

(١٤) القبل : فناء الدار ، ويوت المنطقة الجنوبية التهامية تكون عادة ذات أفنية كبيرة واسعة وفي نهايتها يستقر البيت ، سواء أكان عشاً أم بيتاً من الحجر أو اللبن .

- عد إلى قريتك ودع جدة لأهلها .

كنت أشعر بأمعائي تنقلص وتنفر فجأة فتصيبني بطعنات حادة . كنت متردداً في طلب شيء ألوكة . طال الحديث بينهما وشيء ما يفتت أمعائي ، وقبل أن أنجز بالشكوى كان هناك صوت ينادي من خارج العشة :

- الغداء .

فسبقتهما راكضاً ، فرأيت مائدة ممتدة فاحت روائح تلك المأكولات المتنوعة : حنيد ، بنت الصحن ، مغش ، مرسة ، سمك طازج ، ملحوح ، حلبة ، وكثير من المشهيات . جلست بعجل وأسكت ألم بطني بلقيمات سريعة ومتلاحقة كنت أزدريها ، فأحسست بعروقي تجري بها الدماء ويعاودني النشاط قليلاً قليلاً .

عدنا لتلك العشة وعاد حديثهما أكثر خصوصية وأعمق بوحاً ، بعد أن تقاسما ربطة قات أخضر ذي أغصان قانية الاحمرار ، فنشط حديثهما على صوت الأنسي وهو يشدو بنشوة وافتتان :

أنا يا بويانا خطر غصن القنا
يا نازل وادي بنا أنا يا بويانا
ونمت ومرافقي يتحدث عن لوعة ما تحرقه ، وصلطني جل قصيرة مبتورة :

- ألا زلت تبحث عنها ؟

- جيت كل القرى ولم أعثر عليها .

- انسها والتفت لبناتك .

- والله إني أدعوه أن لا ينسيني إياها .

صباح الديكة يغمز المكان، وندى يبلل الأراك، وغيش يحمل رياحاً خفيفة تجري على رؤوس الأشجار فتششق عصافيرها وتتعالى شقققتها بصخب متداخل. فتحت عيني ووجدت نفسي نائماً على شبرية ذات فراش رطب، ومغطى بشرشف زاهي الألوان وقد غطتني حبات فل فاغ، انتشر أريجها فملاً أنفي برائحة خيرية سرت في أوصالي بخدر لذيذ. كان مرافقي يجاورني على شبرية مرتفعة، فنهضت وهزته:

- أشعر بالجوع.

فتح عينيه بصعوبة ونهري بغلظة:

- عد للنوم.

وبانكسار رددت:

- لا أستطيع فالجوع ينخر بطني.

زفر بضيق:

- هل تحمل بطناً أم برأ؟

انسحبت وعدت لفراشي أتمرغ بين حبات الفل، وأسترق السمع لسيدة كانت تحرض خادماتها بعجل:

- اذهبي بالصفاة^(١٥) للغرباء.

فتاة صغيرة تعنكبت ضفائرها ونام خشمها حتى استوى

(١٥) الصفاة وجبة خفيفة تسبق الإفطار الذي يسمى القروع. وتتعدد الوجبات في الجنوب حسب مهنة صاحب البيت، فإذا كان مزارعاً فهناك وجبة تسبق الغروب تسمى الهرشة.

بوجنتيها، وظلت سنونها البيضاء هي الوحيدة التي تشع في ذلك الوجه الأسود المائل إلى الطيبة. دخلت علينا وهي تحمل المطبق والمشبك وحلاوى تركي وكثيراً من الحلويات التي لا أعرفها، وخرجت وهي تبادلني النظرات وابتسامة خجلى مترددة.. ثم عادت تحمل القهوة، وتمتت بلهجة مكسرة:

- سيدي سيكون بعد قليل معكما.

نهض مرافقي وغسل وجهه وهو يوصيني:

- هيا املاً بطنك الذي لا يمتلئ.

وقفت الخادمة الصغيرة على رأسينا، وتمتت:

- سيدتي تريد أن تراك.

بقيت في مكاني أنظر لمرافقي فحفزني بعجل:

- لإنهض.

فنهضت لتتناول الخادمة يدي، وتسير بي بعجل لداخل العشة الأخرى وقد اتسعت ابتسامتها. استقبلتني سيدة بيضاء ذات ضفائر مسترسلة فاحشة السواد، وقفت أمامها مختاراً، فضممتني لصدرها وكلماتها ترفرف بالتهليل:

- ما شاء الله تبارك الله.

.....

- كم عمرك؟

- لا أعرف.

- ما رأيك أن تظل هنا؟

انتظرت لأن أستجيب لرغبتها، فلم أنطق بحرف. استثقلت هذا البرود، فمررت يدها على رأسي، وتمت:

- ليس لي ابن، ما رأيك أن تكون ابناً لي؟

- لا.. لا.

شعرت بها تتراجع فجأة، وتحتفي ابتسامتها لردي الحاد والنافر، مدت يدها ودست ريلاً مجيداً بجيبي، فتركتها في مكانها، وعدت راكضاً لمكان الضيافة.

كان صالح الخنوي قد استقر بجوار طاهر؛ نظر لوجهي متأملاً:

- ماذا بك؟

رددت بارتباك:

- السيدة التي بالداخل تريدني ابناً لها.

- هذا سعدك.

قال طاهر جملة تلك وخاطب مضيفنا الذي غص بصره:

- لا تجزع من رحمة الله.

تهد بعق:

- زوجتي لم تعد تطيق صبراً، فهي تريد ابناً بأي ثمن.

- سيأتي، وسوف تمل من الذرية.. ساعتها ستندم على هذه

الحسرة وتتمنى لو أنك ظللت وحيداً.

- أنت تهون عليّ عجزي، فقد مضى على زواجنا عشر سنوات

كما تعلم وليس هناك من أمل.

- قل يا رب.

- يا رب.

- إذا جاء صبياً سمه طاهر وإذا كانت بنتاً فهي طاهرة.

- أعدك.

نظر إليّ طاهر مستخفاً:

- ألا تريد أن يتبنك صالح الخنوي؟.. كم أنت بائس!!

فتدخل صالح مترقفاً:

- دعه، لا تعنفه.

كنت أجلس صامتاً مستشعراً أنني أحدثت شرخاً عميقاً في نفسية الخنوي وزوجته، ومع ذلك ربضت في مكاني لا أعرف ما هي الخطوة القادمة، وإلى أين سأتمجه، فقط أسير خلفه. فبعد أن تناولنا قرونا وقف طاهر مستأذناً مضيفنا بالمغادرة والذي لم تفلح إيمانه من إقائنا لليلة ثانية، وخرجنا بعد أن ترك حاري عنده.

سرنا إلى المطلع وحينئذ جديد يعتريني، فبعد أن ترك حاري ودعية أو هبة لصاحبه شعرت أنني غدوت أكثر وحدة وغربة، تجرأت وسألته:

- لماذا تركت حاري؟

وتراجعت عن كلمة حاري وكررت:

- لماذا تركت حارنا؟

شابس في وجهي، وبتهكم مفرط خاطبني:

- وهل تريد أن تركب حمارك مع السائق أم خلفه؟

وقف أمام المنادين وسأل عن السيارة المتجهة إلى جدة فتخاطفته الأيدي، ووجدت نفسي أجاوره بصمت وحيرة ماذا أفعل؟

(لم يعد لي خيار. فهذا الرجل حولني إلى دابة أتبعه أينما ذهب، لم أكن قادراً على شيء سوى الإذعان لأوامره، هل أعود لقريتي؟ وكيف لي أن أعود وأنا الذي خرجت لأعود بقافلة محملة بالذهب، الرجال في قريتنا يرددون: الصبر هو الدابة الوحيدة التي توصلك لمبتغاك، ولو عدت سأكون محل سخرية الجميع، سيقولون: حن لصدر أمه، ومرافقة أخواته الصبايا، أو يختصرون كل سخريتهم بقولهم: «رابع خواته»^(١٦). لا لن أتراجع ولا بد من الصبر، آآه لو يترك مرافقي صراخه جانباً!).

أقلتنا سيارة متهاكمة ذات أزيز مرتفع، وقد جلسنا خلف السائق مباشرة، ومرافقي يطفح وجهه بالضيق والتأفف ممن يجاورنا من الركاب، كان يردد:

- هؤلاء القرويون يصيبونك بالاشمئزاز.

كان يترفع عن الحديث معهم، ويرد بطرف لسانه لو سئل، أو تحدث أحدهم معه.

وتعرّفت على اسمه كاملاً حين أملى على أحد الرجال الواقفين أمام السيارة اسمينا، كان اسمه طاهر محمد الوصابي. ومنذ ذلك اليوم

(١٦) رابع خواته: يعبر بها الشخص إذا ظهرت عليه مظاهر الميوعة، أو تطلق لفض التفاعس والتخاذل إذا أظهر تراجعاً عن أمر لا يقوم به إلا الرجال.

أصبح اسمي: يحيى طاهر محمد الوصابي.

كانت الشمس تأكل المدى بشراة وتترك بقايا مضغها على الأفق أوصالاً من ألوان داكنة، تغرق الكون في وحشة. وثمة رياح كسولة تهب من الجنوب فتعيب بحاجياتنا البسيطة المستقرة على سطح تلك السيارة التي تمخر في أرض رخوة بلهات وأزيز هادر قاطعة حقولاً مرهقة تمجهد لرفع نباتها للأعلى، وفي أحيان كثيرة تركض على طريق مجدبة تناثرت على جوانبها بيوت متهاكمة أقامت أودها بأخشاب شاحبة متداعية.

جشع السائق جعل مقصورة السيارة أجساداً متلاصقة ومتراكبة لا تستطيع الجلوس باسترخاء مما ضاعف ضيق الركاب وتبرمهم بعضهم من بعض.

شعرت بدوار وغثيان يتمددان في ضلوعي ورغبة ملحة للاستفراغ. كنت أشعر بألم أسفل ظهري من تلك الجلسة التي لم فككتني من الاسترخاء، وكلما تحركت السيارة ازداد دواري ورغبتني بقذف ما يموج بأحشائي، وبصوت واهن همست:

- أريد أن أقذف.

فأبدى أحد الركاب تعاطفه وناولني قشور ليمون كان يضعها على أنفه خوفاً مما أنا فيه، غرست خشمي في تلك القشور فتلاعبت نفسي، وسفحت ما في بطني فتراشق على المجاورين الذين أبدوا اشمئزاً، فحضنتي طاهر إلى صدره وهو يوصيني:

- نم.

كنت أتمنى أن يتوقف السائق لأشم الهواء النقي بدلاً من هذا الهواء الفاسد الذي يجوس في مقصورة السيارة. كان الوقت يمضي

ونحن نشق عتمة الليل في خط ترابي جاهدت سيارتنا وهي تعبيرة
بتشاكل وأزيز مرتفع. وتمايلت أجسادنا مع اهتزازاتها وطقطقتها
المرتفعة. كان دوار عنيف يعصف برأسي، فأستند على كتف طاهر
وأحاول الهرب من تلك الصور السريعة التي تصحج بمخيلتي، فتزيدني
رهقاً.

ليل طويل قطعناه، وأفقنا على شمس حارقة بزغت لتجفف
الحياة من تلك الخبوت الممتدة. أبدى السائق تدمره من أشعتها المسلطة
على عيني، فأمر مساعده بتبليل منشفة ووضعها على رأسه، فتسابق
الركاب على تقليده فصاح بهم:

- لا تغرطوا بالماء على رؤوسكم الثقيلة.

أثارت كلمته بعض الركاب:

- وأنت لماذا لا تحافظ عليه؟.. ألا ترى أنك تغرط فيه أكثر

منا؟

فصرخ باعتداد:

- أنا السائق، ولو سقطت فسوف تموتون جميعاً في هذا الحلاء.

رد عليه أحد الركاب بانفعال:

- أذكر الله وقل خيراً.

فتبادلوا الصراخ لبعض الوقت، وصمتوا فجأة حين توقفت بنا
السيارة.

فأثناء الشجار كانت رقبة السائق تدور في وجوه من يبادلهم
الشتائم فغرقت السيارة بين أمواج من الرمال الناعمة وظلت دواليها
تدور وتسفي الرمال في كل الاتجاهات، فارغمتنا على جنبات الطريق

وواصل السائق سبابه مع الركاب مطالباً إياهم بانتشال السيارة من بين
الرمال فطالبوه باسترجاع جزء من الأجر مقابل مساعدته في إخراجها
من مكانها بعد أن اتهموه بالتسبب في ذلك، فاشتط غضباً وأقسم أن
تبقى السيارة في مكانها لا يحركها أبداً، وامتدت مساحة هذا العناد
فبقينا لساعات طويلة تصلينا الشمس وتلقى حبيبات الرمل الصغيرة
التي كان يدفعها الهواء العابر. وتنازل الركاب عن مطالبهم وظلوا
يسترضون السائق فتعنت وطالبهم بدفعها دون أن يحرك محركها.

وقفت الشمس على رؤوسنا، وكف من كان يحاول انتشال
السيارة من مرقدتها عن محاولته، وتناثر المسافرون يستظلون بما يجدون
من أشجار وهم يرجون السائق الإقلاع عن عناده. وتجراً البعض بدلق
الماء على رؤوسهم غير مكترئين بزجر السائق لفعلتهم. كان طاهر أكثر
المسافرين سباباً للسائق وتوعده بأن يشكوه لشيخ السائقين فزاده هذا
الوعيد صلفاً، وبلل إصبعه في فمه وأطلقها في وجه طاهر فاشتط
غضباً وقفز للعراك، وقبل أن يصل إليه كان المسافرون يقفون بينهما.

كانت مدة التوقف كفيلاً لأن أستعيد قليلاً من نشاطي حين بدأ
المدى ييث نسايمه ويبسط ظله المديد. وتهيأت الخبوت المتسعة
لاستقبال ليل بارد بهبوب ريح اختال كثيراً، فذكرني بهسهسته بين
حقول قريتي.. عصف بي حنين لرؤية إخوتي ودايمتني رغبة ملحة
نفذتها على عجل... تسلفت بينما اجتمع المسافرون حول السيارة
لانتشالها بعد أن تعاطف السائق مع من وقف معه ضد طاهر،
تسللت وركضت في تلك البرية، كنت أرى الحلاء شبيهاً بخلاء
قريتنا، وكمن يعرفه تماماً أوغلت فيه، وكلما مضيت تخيلت أن أجد
أمي في آخر الطريق تنتظري وتلوحتني لا تزال معلقة. كنت أراها
وأرى إخوتي، والرعاة، والبشر التي نرد منها الماء. هناك كان ثمة

عصافير مهولة تقف على أغصان شجرة زاوية . كانت مناقيرها صغيرة
مدببة تصوص بتداخل وتعرش ببعضها وتتخاطف الفضاء
وتعود لتقف على تلك الأغصان اليابسة . تلهيت بمنظرها وكثرتها
وتغنيت لو أنني من بقية السرب أمد جناحي وأحلق صوب قريتنا .
اقتربت منها، نفر من بيتها طائر له لون مميز وحلقت خلفه بقية
العصافير كسحابة مسافرة، تبتعد وتخفق أجنحتها في المدى . انتظرت أن
يهبط طائر منها يؤنسني في وحدتي لكن أجنحتها حملتها بعيداً وغدا
المكان موحشاً قفراً تعبته الريح غيباً لا يميز أغصان تلك الشجرة اليابسة .

وجدت نفسي وحيداً، فأخذت أركض في اتجاهات متعددة
علني أصل إلى قريتي . ابتعدت عن كل شيء . ووجدت نفسي نقطة
ضئيلة بذلك الخلاء . استشعرت بالخوف، فعدت أركض بدون هدى ،
وكلما ركضت ركض معي الخلاء وتدد، فأسمع ضحكة صاحبة
تصلني من جهات متعددة، وأشباح تنبت من الخلاء وتتقدم نحوي
مادة مناجلها لبطني . اعتراني رعب هالغ فسقطت في ذلك الخلاء .

أفقت وأنا مسند على ذراعيه، كان وجهه صلباً قاسياً، وفكه
الأسفل العريض متوترأ ومبدياً عروقاً عريضة جرى بها الدم
والغضب . كان ينضح وجهي بالماء وحين أفقت صرخ بوجهي :

- بصبيانيتك جعلت ذلك الكلب يقتص مني بتركي في هذا
الخلاء، وأنا أبحت عنك .

كان مغتاضاً يقضم أظفاره ويزار كحيوان جريح :

- هذا الكلب يتركنا هنا، لو سلمني الله سأعرف كيف أجعله
يتدم .

نمنا ليلتنا بتلك البقعة النائية بعد أن أشبعني صفعاً حين بكيت

شاكياً الجوع . نمت وأنا أعتصر عصراً، وأفقت في الصباح أكثر ضرراً
ما كنت عليه، أنهضني من وقت مبكر وهو يصيح :

- قم قبل أن تأكلنا الشمس هنا .

- أريد أن أكل .

كشف مدرعته فأبان صدرأ فائراً، ومز حلمته متحكماً :

- لم يعد في صدري قطرة واحدة .

.....:-

أمسك بيدي، وخطواته تتباعد وهو يلوك الكلمات :

- لا بد أن نصل إلى أي قرية قبل حلول الظهيرة أو أن نموت
هنا .

تذكرت جدتي، والشق الذي فتح لها بالأرض، والأيدي التي
انهالت عليها بالتراب، وذلك الكفن المصفر الذي أخرجناه من خرج
حارها . كانت الكيئان الرملية تصنع حديدات كثيرة، تجاسرت وسألته :

- هل كل هذه الحديدات موتى؟

بصق في وجهي بضيق وخرج صوته حاداً :

- ما الذي حملني على ملازمتك؟

كان تهديده هذه المرة صارماً :

- إذا لم تسر بعجل تتركك هنا ومضيت لثاني .

تبيست حنجرتي وغدا لساني قطعة خشب يابسة . وكلما لاح
السراب لعب بخاطري فأصيح به :

- أنظر هناك ماء .

فيجذبني من يدي ويحث الخطى باتجاه مغاير . كانت الشمس

تزحف على رأسينا، وقبل أن تغلبنا بلغنا مقهى يقف منكسراً على
الخط يستقبل المسافرين والغرباء. هناك قذفنا بجسدينا على إحدى
الأراك ونمنا كجثث توارت للتو في لحودها.



كنت متحقة لرؤية أمي، وسؤالها عن يحيى.

شوق يجري في أوردتي فأرف كعصفورة أجهدا الطيران وحتت
لأن تبتلع الفضاء بجناحيها لتخط على شجرة تشقشق بتعب الرحلة
المهلكة.

نحن مساكين حتى شوقنا مطعون بعجزه، فأيدينا تمسك بالهواء
وحسراتنا تسيل من البال فتسد الجهات.. تغدو لهفتنا ألاماً. الفاقة آفة
تزحف لخاطرنا وتبتلع الشوق، الحب، الحنين، والجسد. وتتركنا
نطلب بقاياها لتذوي لهفتنا وننزوي لروحنا المعتمة نحصي آهاتنا.

فالشوق تحول إلى شوك وأزهر آهات متتابعة، شوقي العاصف -
لأمي - تكدر صفوه بالاستعداد لمقدمها. فاستقبالها يتطلب أن أهيء
لها قعادتها وأعد لها ملابس وأولم لمقدمها. أمور عديدة لا تتحقق إلا
بالمال، ولم يكن بحوزتي ما يغطي كل تلك النفقات، ضاقت الدنيا في
عيني، كنت طوال الوقت أفكر:

- من أين يمكن أن أجلب نقوداً؟

تمنيت لو أنني لم أبع الحقل المتبقي.. تمنيت لو أنني كنت أدخر
من النقود التي ترسلها خديجة، وتمنيت لو أن الغريب لا يزال يقف
بين حقوله يحمل عني تعب هذه الحياة.. وآخر الأمنيات لو أنني لم
أولد.

أمنيات كثيرة كنت خلالها ألوم نفسي لتفريطي في ساعات
الرخاء، وكلما اقترب موعد عودة الحجاج شعرت بصدري يضيق،
وتدمري يتناسل عن زفرات حارة أبددها في الهواء، فترتد لصدري
وخزات ألم طاعنة. فكرت بالاقتراض وتراجعت، وحين ضاقت الدنيا
سعيت لليل عبدية فصدني ردها عن طرق أبواب أخرى:

- أنت تقترضين؟.. ليتنا مثلك.. أختك أغرقتك بالمال. أما
نحن فمساكين.

تمنيت لو أن الأرض خسفت بي قبل أن يمتد لساني. كان لساني
يتمدد وتستطيل سخرتها وغمزها ولمزها، تبعني لآخر «القبل» وهي
تطربي بلساني:

- جئت تقترضين أم تبعدين العين عنك.

كنت أسير أمامها وأنا أرجوها أن تنسى كل كلمة تفوهت بها
إليها، فتمادت في رفع صوتها ونادت بجاراتها:

- اسمعوا مريم تسلف!! تقول ليس عندها ما تستقبل به أمها،
هل تصدقون هذا الكلام؟

أطلت رؤوس الجارات من فوق «الأسجف» وظلت ألسنتهن
تتبعني:

- إذا مريم تسلف فماذا تفعل نحن؟

وجدت نفسي أعود إليها ضاحكة:

- كنت أجربك يا مخبولة فالخير كثير والحمد لله.

فضحكت حتى باتت سنونها الأمامية المذهبة وخبطتني على
كتفي:

- يمزيك من حرمة لم تحدي أحداً في القرية تجريبه إلا أنا.
واستدرت جملتها بعجل:

- «والله لو أقطع من جسمي ما أوفي جمالك».

كان زوجها خارجاً من الدارة حاملاً مدرعته على ظهره والماء
يتقطر من لحيته، رحب بي ترحيباً مبالغاً، فسبقته زوجته بذكر ما
جئت من أجله وأطلقت ضحكة مصطنعة:

- لم تجد مريم أحداً تمازحه إلا أنا!!

فضحك ضحكة باردة قصيرة:

- لا شك أنها تحبك.

فحضنتني مرددة:

- يشهد عليّ الله إني أحبك.

وخاطبت جاراتها اللاتي لا زلن مدليات رؤوسهن من فوق
الأسف:

- والله أنا صادقة فيما أقول!!

ارتفع صوت زوجها مستبشراً:

- نويت أمر عليك الليلة لتطلي لي من أختك قرضاً.

وصمت متفحصاً وجهي. شجعته بوضع سبابتي على عيني:

- «من ذي العين قبل ذي».

فأردف متحسراً:

... قرضاً نصل به حصاد الموسم المقبل، فكما تعرفين الحقول

ميتة ونحن بحاجة مال يجيي جديها.

كانت رؤوس الجارات لا تزال في مكانها تطل علينا فرفعت
صوتي:

- تشرب القهوة عندي الليلة ونكتب خطاباً لأختي لتقرضك ما
تشاء، والله لو احتجت ما احتجت فلن تردك خديج، أصل بيتنا بيت
الكرم.

ورمقت تلك الرؤوس المظلة ولم أقف على تبادل عيونهن لغمزاتهن
السريعة، عمقت بصري في عينا زوج ليلى ورأيت ابتسامته تتسع
وتفور عن استبشار مفاجئ وهو يردد:

- في كل وقت أقول ليس مثلك امرأة.. أسألي ليلى.. هه يا
ليلى؟

ففتحت فمها على اتساعه كمن فاجأها سؤاله وتداركت
شرودها:

- والله قبل ما ينام وهو يذكرك بخير!!

وخرجت من عندهما وأنا أشتتتهما في سري، وقررت تدبير حالي،
وعقدت النية أن يكون استقبالها فاتراً إذا لم أقدر على تدبير حالي.
وخامرني أمنية (لو أن أحد أبنائي يموت ليكون هناك عذر للاستقبال
الفاتر)، اتسعت الأمانة بداخلي (لو أن أحداً يموت، لو أن أحداً
يموت، لو أن... .) الدنيا لا تمتحك ما تشتهي، حتى الموت ينأى
وقت الاشتها. جلست أفكر فيما يمكن بيعه، تطلعت حولي، دجاج
متنوف، حمار تشتم البول ولا تسير إلا بالذنب، غنمة يجي، وكيس
حب، وبيت مرهون في السر، وحقول طارت من أيدينا بالبيع
المواصل. لا شيء ذا قيمة، فلم أبْقْ على شيء من حطام الدنيا الذي

كنت أمسك به . فمع كل ضائقة أبيع ما تصل إليه يدي . بعت أربعة بناجر في ختان يحيى ، والغويشة مع مرض ليل والخلخال والزمام وأربعة خواتم حين أصلحت عشتنا المتداعية ، ورهنت البيت لأجد لأمي مالاً تحج به .

كانت حالتنا تضيق يوماً بعد يوم وتلتهم كل النقود التي تحط بأيدينا ، ولولا ما تبعث به خديج من نقود وبعض اللبوسات لاحترقت من زمن مبكر .

كانت بعض جاراتي يعبرن قبلي ، ويسلمن ويتركن عيونهن تبحث عما أعددت لعودة أُمي ، وبعضهن يقعن في مسامعي ألسنتهن :

ليلي عبدية : يا مريم الحاجة محسنة على قدوم ، تريد قعادتها محبة .

حفصة راجح : ألم تزيني عشة الحاجة يوسفية ؟

عائشة عمر : حسك عينك أمك متسررة^(١٧) وعليك أن تستقبلها بما يليق بهذه المناسبة .

صالحة حميدة : واه يا مريم . الحجيج على الأبواب وأنت لم تفعلي شيئاً لأملك .

كانت ألسنتهن تزيدني ضيقاً ، ولم أستطع أن أسر لإحداهن بحاجتي ، بعد أن أسمعنتي ليلي عبدية تلك الكلمات التي تمنيت لو أن الأرض تحسف بي قبل سماعها ، فهن يتقولن بأن أختي ترسل لي أكياس النقود ، فأقوم بطمرها كي لا تصيبني عين الحسد . ويصرحن

(١٧) المتسررة هي التي تحج أول مرة ، ويقال للرجل متسرر ، وعادة ما يستقبل الحاج المتسرر استقبالاً حافلاً تطفئ فيه البهجة .

بهذا في أوقات كثيرة حتى أصبحت كلمتهن واحدة :

- بري بنفسك ، فالقرش الذي يأتيك هو لك لن يشارك فيه أحد .

في البدء كنت أثور وأتبادل معهن الشجار وأتهمهن بالتجسس ، وعندما لم يجد نفع الخصام المثار بيننا صمت ، وارتضيت بغمزهن ولمزهن ، واتهامي بالتقتير على نفسي وعلى أولادي .

كانت غنمة يحيى الصغيرة قد كبرت ، وفي أوقات كثيرة تخطر بالبال ، فأعزم على بيعها وأراجع حين تلومني نفسي :

- حتى غنمته تريدين إخراجها من المكان الذي ألفت عليه .

وأظل في حيرة من أمري . تذكرت الدبلول الذي تبقى من ذهبي ، ذلك الدبلول الذي لم ينفق بسبب وعد قطعته لحسنة بأن يكون هديتي لها في يوم زواجها . كنت أتخيله يكبر ويتنامى ويغطي جميع نفقات الاستعداد لمقدم أُمي . سعدت كثيراً ، وانطلقت إلى صحارتي ، وأخرجته وانطلقت لبيعه دون أن تعيقني اعتراضات حسنة ، وفي طريقي لبيع الدبلول وقفت في طريقي غنمة يحيى ، فجررتها من حبلها الملدى من عقها وأسلمتها لأول مشتر .

في عودتي للبيت كانت النقود في يدي ، ويحيى يصرخ في تخيلتي :

- حتى غنمتي .. حتى غنمتي .

قذفت بالنقود لفاطمة وأمرتها أن تجهز كل ما نحتاجه لاستقبال جدتها ، وبقيت استرضي يحيى في خاطري ، وفي كل لحظة يطل من رموشي وبصوت مكسور يحرق لوعتي :

- حتى غنمتي .

فأظلل أبكي بحرقه، وكلما تناسيت عاد من جديد أكثر انكساراً
وشجناً .

كرت الأيام سريعة متلاحقة، وأنا لم أتم عملي . وبعجلة غزلت
لأمي ثوباً جديداً وصبغته بلون برتقالي واختطت لها سديرية مقلمة،
وملأت مكحلتها بكحل، وحبلت قعادتها وزينت كرها برون ودفعت
بريع ريال للرئيس^(١٨) ياقوت لكي يبشرني بمقدمها .

فخرج من الصباح الباكر يعترض القوافل القادمة من الطريق
الشمالي . كان أبنائي يحملون بالهدايا التي ستجلبها جدتهم معها من
الحجاز . وقد بادرت ليلي بقطع ملابسها البالية وأقسمت أن تظل
متجردة حتى وصول جدتها . ولم أغضب من فعلتها فسترتها بقطعة
قماش لبست أهملتها في صحاري إلى ذلك الحين، وكنت أنوي جعلها
لباساً لمخدة قطنية نجدها لأمي وحشوتها بقطن من قطف العام
الماضي، لكن لون تلك القطعة لم يكن مناسباً للاحتفال الذي ننتظره .

كنا جميعاً نترقب وصول كسوة تستر أجسادنا التي بانَتْ من
خلال تلك الهتر البالية .

تغيب ياقوت بالربع الريال ولم يظهر، وجاءني جوهر صائحاً :

.. البشارة لي يا أم يحيى، وصل الحجيج . وصل الحجيج .

(١٨) الرئيس: لقب يطلق على الخدم وأصحاب المهن الوضيعة، وغالباً ما يكونون
عبيداً - ويعد أن تم تحريرهم - ظلوا في خدمة أهل القرية مقابل أداء
مهمات توكل إليهم، وغالباً ما يشتغلون في تطهير الأولاد والجزارة أو
الحلاقة أو التطييل وإقامة الأفراح، ولهم أسماء لا تطلق على سواهم .

نهضت بعجل وأنا أردد:

- فعلاً وصلوا .

- أول قافلة دخلت القرية قبل قليل .

وبتلهف استحيته: هل رأيت أمي معهم؟

فهز رأسه نائياً، فخبطته على كتفه ضاحكة: وعلى ماذا تطالب
بالبشارة .

- بوصول الحجيج .

- لقد أعطيت ياقوت ربع ريال على أن يبشرني بمقدم أمي لا
بالحجيج، لكن الكلب لم يظهر إلى الآن .

تتعت جوهر بكلمات مقتضة:

- سيدي الحسن بن علي أرسله للمدينة .

- ألم يرسله إلا اليوم؟ .. حسبي الله ونعم الوكيل .

والتقطت شيطري^(١٩) وركضت لمشارف القرية بينما كان جوهر
يتبعني ولسانه يعترك بعجمة مكسرة:

- أنا أحق من ياقوت بالبشارة .

وقفت على مشارف القرية ردحاً طويلاً وكل قافلة تقدم تكون
خالية من وجه أمي . ظللت يومياً أخرج لاستقبال الحجيج دون أن
أجد جواباً لسؤالي المتكرر:

(١٩) الشيطر: هو رداء المرأة الذي تلبسه عند خروجها، وهو عبارة عن ثلاث
قطع سوداء .

- أمي معكم؟

في آخر النهار قدمت قافلة كانت تحمل محمد هادي الذي أطلق
الخبر صاعقاً:

- لقد ماتت العجوز محسنة في الطريق.

فشعرت أن الأرض تميد بي، وأنتي على وشك أن أغادر الدنيا،
فسقطت بين تلك الرمال وتجمع أهل القرية وحلوني للبيت.

عندما أفتت كنت أهذي:

- هل مات يحيى؟ .. مات .. يحيى مات.

وخرجت أسأل كل الحجيج الذين خرجوا من قريتنا للسؤال
عنه. كانت إجاباتهم مفككة ولم أستطع الوقوف على خبر ابني. أقوال
وأقوال تفتح طرقاً متشعبة من الاحتمالات، قالوا:

محمد هادي: كنا نسير في حالة لا يعلم بها إلا الله، فقد
انقطعت زوادتنا وقل ماؤنا، وتعبت دوابنا، وتدافعنا الرياح من كل
صوب. ظن الجميع أننا هالكون، فتشهدنا ومضينا، وفي أحد
الصباحات سقطت أمك من على دابتها، ووقفنا عليها ميتة، فدناها
وواصلنا السير، وكان يحيى معنا إلى أن وصلنا جيزان. .. وهناك
تفرقت القافلة، وعندما وصلنا سيرنا لم يكن ابنك معنا، وكنت أظن
أنه عاد مع دليل الرحلة.

عبد هسين: بعد أن وصلنا جيزان وقفنا لبيع دوابنا والتزود
بشمنها في رحلتنا، ورأيت الجبلي يمسك به في المجالب، وبعدها
تعاركا مع نفر من أهل جيزان، ولا أدري أين اختفيا.

موسى بكر: بعد أن دفنا العجوز محسنة انشقت القافلة إلى

قافلتين ولا أعرف مع من ذهب يحيى، وكنت أتوقع أن نلتقي بجيزان
لكن ذلك لم يحدث. فقد أدركنا الوقت وانطلقنا مسرعين لمكة.

صابر الرديني: لقد حمله ابن عمك حمد وواصل السير مع قافلة
أخرى.

فاطمة ابراهيمية: طلبت من زوجي أن يتنبه له لكننا تركنا
القافلة لتباطئها، ولا أعرف ماذا حدث له.

هادي جعفر: تكفل به أحد الجبالية. فقد انضم إلى قافلتنا
وعندما رأه صغيراً حمله معه وتعهده برعايته.

صالحه محمدي: آخر مرة رأيته في جيزان وكان يجلس في
المجالب مع ذلك الجبلي.

جبريل بن عمر: ابن عمك حمد رجل فسل تركهما وذهب مع
أحد الخجاج من أهل اليمن ورفض أن يبقى معهما. وبعد موت
العجوز محسنة بقي ابنك على دابته في صحبتنا لكننا تفرقنا في جيزان
ولم نعر عليه، فقد اختفى هو وذلك الجبلي.

ميمون عبد الحوازمة: ابنك طاع ذلك الجبلي، ورأيت عسكرياً
في جيزان يمسك بهما ويدخلهما الحبس، وأنا غريب خفت إن
سألت عنهما أحبس معهما.

إبراهيم بن علي: أو تصدقني العبد الميمون؟ .. لا .. لا، يحيى
لم يسجن، كل ما في الأمر أن الجبلي تشاجر مع أحد الحوازمة، ثم
حمل ابنك واختفى، ولم أرهما في كل السيارات التي انتقلت ذلك
النهار. ربما سافرا في اليوم التالي، خاصة وأن الجبلي قال أنه متجه
إلى جدة.

عوش عيسى بكيري: كنت ضمن القافلة التي انشقت عن قافلتنا التي خرجت من القرية، وعندما وصلنا إلى جدة سمعت بوصولي أختك خديج فجاءتني، كانت متلهفة للسؤال عنك، وعندما ألدبت دهشتي وأخبرتني أن العجوز يوسفية كانت ضمن قافلة الحجيج عادت تسأل عنها. وبعد أن أنهينا الحج جاءت إليّ تخبرني أن الحاجة محسنة لم تصل، ولم أحتط لتشاؤمها فسردت عليها حلم أمك الذي حدثني عنه حين وقفت ويدها رمانة، ساعتها بكت خديج وضربت صدرها، وقبل أن أغادر جدة «ذممتي» أن أسلمك هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الغالية مريم خالدية

حفظك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بعد السؤال عن الأحوال، الحمد لله نعيش في رغد بفضل الله ولم يعكر صفونا سوى الأخبار التي تناقلها الحجاج، فقد بلغنا أن الوالدة محسنة بنت يوسف خرجت للحج هي وابنتا يحيى الغريب، وقد انتظرنا قدومهما لأيام طويلة، وخرج إبراهيم وحسن للمواقف للبحث عنهما وعندما لم يصلنا خبرهما قلنا ربما اتجها إلى مكة ومن ثم يعودان إلينا ولكن لا خبر ولا تخبر، وخشيت أن يكون قد أصابهما مكروه، فأرسلت أولادي إلى المواقف وإلى تجمعات الحجيج والمستشفى وكل مكان يمكن أن يكون لهما فيه أثر فلم نجدهما، وأصبحت بالكرب والخوف ولم يوقف هذا الخوف إلا أخبار بعض الحجيج من أنهما عادا إلى البلد بعد فوات الحج عليهما قبل أن يصلا إلى مكة.

أختي الغالية:

أول ما يصلك جوابنا خبرينا ماذا حدث، وأرسلنا لنا مكتوباً مع أول متوجه إلينا، الله الله بالمرسول ولا تتركنا في غمنا وكرنا.

وسلامي على جميع من يسأل عنا، وتصلك وصية مع عوش بنت البكري ثلاث كرت، وخمس مصار ومضرب عطر، وصنبراً ومنظار وستة ريال فرانسة.

مريم: أنا مكروية من الحلم الذي روت لي عوش بنت البكري، لا تنسي تطمئنينا على الأم محسنة والولد يحيى. نحن ننتظر جوابكم على أحر من الجمر.

المرسلة أختك خديج

حرر في تاريخ ٢٣ - ١ - ١٣٧٤

كنت أخرج من كل هذه الأخبار السوداء وأمني نفسي بخير آخر. كنت أنتظر عودة حمد عسى أن يكون معه خبر مختلف، وتعلقت بهذا الأمل، وكلما مضى الوقت شعرت بأعماقي تمور وتتجشأ حرقتها وحريقها.

كنت في العزاء أتقبل كثيراً من الأخبار غير المجدية، أخبار تلتهم يحيى وتغيبه، وانشغلت بتقيل العزاء في أمي، أجلس مع المعزين وقلبي يكاد يطير لهفة على ابني، فأنا لا أعرف في أي أرض هو.

بعد الحج يقل المسافرون إلى الشام، وكنت يومياً أسأل عن المسافرين لأرسل برسالة خديج، فقد طلبت من إسماعيل خطيب المسجد أن يكتب لي خطاباً، وبعد أن أنهاء طالبته مراراً أن يعيد قراءته،

فكان في كل مرة يستجيب لطلبي ويعد قراءته بصوت مفخم:

بسم الله الرحمن الرحيم
أختي الحبيبة خديجة خالدية

سلمك الله من كل أذى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدنيا فانية لا يبقى عليها إلا وجه الله الأعز الأكرم، ونبيلك بعزائنا في أمك محسنة بنت محمد بن عبد الله بن يوسف والتي قضت نحبها وهي متجهة إلى أطهر بقعة على الأرض، ونبيلك عزاءنا وعزاء أهل القرية في الوالدة جعلها الله من معاتيقه وأدخلها جنته، وأن يصنع عليكم الصبر والسلوان إنه على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولا أعرف كيف ماتت، وقد تناقل الحجيح أنها سقطت من دابتها فجأة بعد أن زادت لهفتها في طلب الماء، وتقول عائشة حدادة إنها أحست بجلدها يشتعل كالجمر عندما سقتها آخر مرة، وإن الابن يحيى كان يطلب لها الماء في كل حين ولم يتنهبوا لها لأنهم كانوا يملكون بمحنة عظيمة، فسقطت من على الدابة ودفنوها في الطريق.

والحمد لله لم ينقصها شيء فقد حملت كفنها وغسلها معها، والذي أحزنني أنهم لم يغسلوها، ودفنوها كما ماتت، فقد قالت زينب حسين أن أمير القافلة قال لهم:

- الحاج شهيد يدفن على هيئته.

وأدعو الله لها بالمغفرة وأن يسكنها فسيح جنته، وإننا لله وإنا إليه لراجعون.

خديجة:

ونبيلك بأن الابن يحيى كان مياسراً لجدته في رحلة الحج، لكنه

فقد في الطريق ولا نعرف في أي أرض هو، وأنا أقضي الليل أبكي وأدعو الله أن يسلمه من كل مكروه، ولا أعرف ماذا أصنع، ويقول كثير من الركبان أنه كان بصحبة رجل جبلي انضم إلى القافلة وحمله معه، وأنا خائفة على ولدي، فكما تعرفين الولد ربنا زينة وملحه وكل خوفاً أن يلعبوا به في الطريق، أسألك بالله وعزته وجلاله أن تبقي عنه في جدة أو في مكة وتردي لنا خبراً سريعاً فكبدي مجروح وعياني تهلان بالدمع وأنا حرمة مقصوصة الجناح ولا أعرف ماذا أصنع. بريك تعجلي بالخبر.

خديجة:

أسألي عنه، الله يتخلىك، ولكي أقرب عليك فهو ابن ثلاث عشر، أبيض البشرة سبط الشعر، له خشم كسلة السيف وجبين صغير، يميل للطول، عيناه دعجوان، ويده اليسرى بها جرح عريض.

يمكن أن تساعدك هذه الأوصاف في السؤال عنه. . الله الله يا خديجة لا أوصيك في البحث عنه، الله يجبر خاطرك.

وأخبرك أننا استلمنا الوصية من عوش بنت البكري كاملة غير منقوصة، وفي اختتام سلامي على أولادك وعلى نفسك خاصة وربنا يحفظكم من كل مكروه.

أختك مريم خالدية

حرر بتاريخ ٢٦ - ٤ - ١٣٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت المحترمة مريم خالدية

سلمك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(يا أيتها النفس المظننة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)، بنفس محتسبة تلقينا خبر أمنا الغالية محسنة بنت محمد بن عبد الله بن يوسف ولا يسعنا سوى القول (إنا لله وإنا إليه لراجعون) وتقبلي عزائي وعزاء أبنائي في الغالية، وقد حزنت كثيراً لموتها قبل أن أراها، وزاد لهفي وجزعي حين قرأنا مكتوبكم. وعلمنا أن الابن يحيى تاه وقد خرج أبنائي للبحث عنه، ولكن أين نبحث، فجدة كبيرة وبها من كل جنس ولون، والباحث فيها كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، لكننا لم نياس فعسى أن يأتينا خبره، فهو بلا شك يبحث عنا، وقد زكنا على من يعرفنا بهذا وعسى الله يجمع شملنا بعد تفرق.

أختي أم يحيى: أنا انقبض صدري من زمان، من اليوم الذي خبرتني فيه عوش بكيري عن حلم الوالدة محسنة - الله يرحمها - فقد قالت ان الوالدة حلمت إنها خرجت في الطريق لزيارتي وتراني في آخر الطريق وأنا لابسـة أبيض في أبيض وفي يدها رمانة نفسها تعطيني تلك الرمانة وكلما قربت بعدت وقيل أن تصل تناثرت حبات الرمانة ونقمتها دجاجة قوقية.

هذا الحلم كنت دائماً أفكر فيه وأنا خائفة منه، وما هو يتحقق، وينقـمها الموت ويتركنا حبات رمان مبعثرة.

مريم:

خبريني بكل ما يصلك عن يحيى ونحن بدورنا نبحث عنه وسوف نخبرك، وندعو الله أن يحفظه في غربته، وسوف نعلمك بكل ما يحدث.

ما في يدي إلا الدعاء أن يجبر الله خاطرك بحق هذا الشهر

الكريم ويعيد غاليك يحيى، ويجمعنا عن قريب إنه سميع مجيب. وفي الختام يبلغك السلام حسن وإبراهيم وسلمي لنا على كل من يعزك صغيراً وكبيراً، ويصلك مع حامل الجواب ربالان فرانسة وأربع كرت وبدلة ليوسف كسوة العيد، والسلام ختام.

أختك خديج

حرر في تاريخ ٢٧ - ٧ - ١٣٧٤

قرأ محمد عبد الله خطاب خديج، وأنا استمع إليه دامعة، وكلما انتهى استعدته، وصحت بأعلى صوتي:

- يحيى مات.. مات يحيى.

وأخذت أصيح، فتجمع على رأسي ليل وفاطمة ويوسف وحسنية، وأخذنا ننوح على الغالي الذي سلمته بيدي للضياغ والموت.

كنت فقط أنتظر عودة حمد عسى أن يكون معه.

ليال طويلة من الألم والحزن كنت أصرفها بالبكاء والدعاء ولم يعد معي سوى الوقوف على مشارف القرية ألتقي العائدين من الأسفار والمتسوقين عل أحدهم يخبرني بخبره.

كنت أراه يوماً يقف في حلمي منكسراً ومعاتباً:

- قذفت بي للغربة ولن أعود إليك.

فأستيقظ من حلمي مبيلة المحاجر، وحلقتي خلاء مجذب يستعصي أن يردد صراخي، فأجد فاطمة تقف على رأسي، وتناولني شربة الماء لأعب منها ويظل حلقي جافاً قطعة خشب ناشفة.

الفصل الرابع

مقهى وقرية بائسة استقرا بجوف هذا الخلاء الصامت.

مقهى قذف في الفلاة يقف على خاصرة طريق عبدته السيارات العابرة وبقيت فجواته تضحك في أماكن متعددة وهي تلتهم دواليب السيارات المجعدة.

مقهى، نقطة تضج بالحياة في مكان موحش، ترك أمامه وخلفه مساحات من الخبوت النائمة على أحلام شجيراتها الصغيرة ذات الأزهار العنقودية الزاهية، ومن بعيد أطلت تلك القرية البائسة التي تتلحف بالخلاء وتغلق عينيها عن القادمين من الطرق البعيدة.

مقهى يضج بالغرباء ينزلون به ويغادرونه دون أن يترك في نفوسهم حسرة على فراقه.

فرشت أرضيته بالحصى، وتناثرت كراسيه - المتراخية الحبال - على مساحات كبيرة، مقهى ككل المقاهي التي تقف على الخطوط الطويلة به: نار، دخان، شيش مختلفة الأحجام، أكياس فحم، شاي تفوح منه روائح النعناع والحبق، طعام، عيون معلقة بالمدى، أصوات تتبادل كلمات عجلى مستترة، وسيارات تنتظر تلك الوجوه المغلقة لتزفها للمجهول.

ولا شيء - هنا - غير الغرباء.

تبهت لنفسي فإذا أنا أرقد على سرير رث، ويجواري نام طاهر
قريب العين، وثمة جوع يعصف بمعدتي، وأصوات تقطم الكلمات،
ومسافرون يتهياون للنزول وآخرون للسفر، والنادلون يتراكضون تلبية
لطلبات القادمين، ووجوههم تفيض بابتسامة تنكسر في أحيان كثيرة.
استويت في جلستي:

- هل أوقفه؟!

دائماً يكرر «بطنك بثر لا تمتلئ»، أحس بأمعاني تهوي لقاع
بطني وتتقلص متكورة على هيئة حجر يندفع مفجراً تجويقات معدتي
و«تخرخر» بطني مفرغة شحنات ألم عصيف يقاعها واستكان للحظات
ليعاود محاولة فض جدران معدتي بعد حين.

كنت أتوق لأن ألك أي شيء، أي شيء حتى ولو كان ورقاً
من تلك الشجيرات القليلة التي تناثرت حول المقهى، تبادلت النظرات
مع أحد النادلين، فاقترب مني:

- هل تريد إفطاراً؟

احترت، وظلت عيناى معلقتين بوجهه الكاحل السمرة، ترددي
جعله يأفل من أمامي راكضاً لتلبية طلب أحد المسافرين الذي كان
يستحثه بإحضار فطور بصراخ متعال.

طاهر لا يزال نائماً تتردد أنفاسه ببطء وقد حافظت إحدى عينيه
على نصف إغماضة، وارتوى جسده بنوم عميق، وعندما لم أعد قادراً
على تحمل أعاصير الجوع، هزرتة، فنهض مرتبكاً:

- ماذا حدث؟

تطلع حوله فهدأ، وحاول أن يعود للنوم، تمتعت:

- أشعر بالجوع.

لم أتوقع رده:

- أنا أكثر جوعاً منك. ناد على النادل واطلب ما تشاء.

كان إفطاراً دسماً بقي عالقاً في ذاكرتي لوقت طويل. تناول
طاهر كأس الشاي ودندن بكلمات عشق قديمة، وتساءل عن المقهى
وصاحبه، وعاد لموانستي. قدم كثيراً من الكلمات المؤنسة وبعد كأسه
الثانية مسح شاربته، ونظر في عيني:

- لكي نصل لجدة نحتاج إلى نفود، وعليك من الآن أن توفر
لقمتك بنفسك.

لسعني، فرددت على عجل:

- ونقودي التي معي.

- وهل تظنها تلد، ألم تأكل وتتنقل وتتم؟.. أم تظن أن من
يقدم لك الأكل والشراب يقدمهما من أجل عينيك.

- سأعمل عندما أصل لخالتي.

- وهل تظن أنني سأهلك على ظهري طوال هذا الوقت؟

كنت أود أن أقول له أشياء كثيرة لكنني خشيت منه، فقد لمحت
ملاحه متعكرة تنتج بالزفرات، فانقدت لأمره، سحبنى من على
الكرسي الذي أجلس عليه، وتقدم لصاحب المقهى:

- هذا ابني وأريده أن يعمل لديك.

نظر إليّ صاحب المقهى بالتفاته مشجعة:

- هل تعرف في أمور المقهى؟

فرد عليه طاهر بعجل وإبتسامة واسعة:

- يتعلم.

- حسناً، لتبدأ في تقديم الطلبات.

تنحنح طاهر وهو يدور حول كرسي صاحب المقهى وإبتسامته تتسع. تناول كرسياً مجاوراً وجلس في مواجهته:

- لي طلب بسيط.

- ما هو؟

- أن تسلمني أجرته، فأنت تعلم أن الصبيان يفرطون بما في أيديهم.

- وماذا يضر الابن وماله ملك أبيه.

ومد يده، وتناول أجري لمدة أسبوع مقدماً، ومضى إلى حيث لا أعلم، وهو يوصيني:

- كن رجلاً.

كنت أعمل بالمقهى، أتحرك كمنحلة لا تململ من العمل، أخدم زبائن المقهى وأغلبهم من المسافرين. وفي ذهابي وإيابي يقفز ببالي قول أبي:

- الأجير يظل خادماً طوال حياته.

كنت أشعر بلسع حاد حين أسمع رواد المقهى ينادون عليّ بألفاظ مشينة تقل من قدرتي داخل نفسي، فأمعن في تجاهلهم، وفي أحيان كثيرة أذعن لطلباتهم حين يقترب مني صاحب المقهى، ويعلق أذني بيديه.

تعلمت أموراً عديدة بداخل المقهى وبدأت أحترز، بدأت أتعلم كيف أحافظ على نفسي، لم أكن لأنام قريـر العين، ولا أستجيب لدعوات تبعدني عن عيون الناس.

بعد أسبوع عاد طاهر وحلني لأبيت معه في عشة استأجرها على أطراف القرية وأقسم أنه استأجرها من خالص ماله، وأقسم أن تقودي لن يمسسها وأنه سيجمعها لي لأعود لأمي دافعاً أمامي القوافل المحملة بالذهب.

كنت أفيق من نومي فلا أجده، يخرج من الصباح الباكر وتلتقي في المساء حين يعود لاصطحابي للنوم، أسلم جسدي وهو لا يزال يترنم بأغنيات دفيئة، وفي ليال عدة كنت أسمع نشيجه وهو يبتز على سريريه، ليلة واحدة سمعته يردد:

- لم أعد أصلح لشيء!!

أصبت بالذعر.

رجل غليظ الملامح، شحيح الابتسام، ذو هيئة رثة يجر ثلاثة أطفال يصغرونني بقليل قيدوا في سلسلة واحدة. كانوا يكون، أسرني منظرهم وشعرت بالكراهية لذلك الرجل الذي يقودهم كما تقاد النعاج.

دخل للمقهى، وأناخ بجسده على المقعد، وأخرج صوتاً حاداً غليظاً:

- قهوجي.

انطلقت صوبه، وأنا أنظر لأولئك الصبية بإشفاق:

- أريد عشاء وتعميرة.

كانت عيناى معلقتين بأولئك الصبية وراعتى منظر الدماء العالقة
بثيابهم (أىكون أحدهم مجروحاً، وإن كان كذلك فلا يمكن أن تتلطح
ثيابهم بهذه الصورة، ما سر هذه الدماء).

كنت لا أزال أطلع إليهم فنهرنى بجفوة:

- ألم تسمع؟

جفلت لصوته الحاد وملاحمه النارية وترددت قبل أن أسأله:

- هؤلاء أبناؤك؟

.....

- ماذا فعلوا؟

.....

- من أين كل هذا الدم العالق بثيابهم؟

.....

- كان صامتاً يذود عبوسه ويهش ذباباً كثيفاً تطاير وحط على
الطاولة التى تجاوره.

- لماذا تقودهم كالمساجين؟

صرخ محتداً:

- هذا لا يعنك اذهب واحضر ما أمرتك به.

اقتربت ماسحاً طاولته:

- لا أحد يغضب من أبنائه فى السفر، وإن غضب لا يفعل بهم

كما تفعل.

.....

- إغفر لهم فهم...

وقبل أن أكمل توسلاتى بإطلاق سراحهم، زجرنى بغلظة:

- إذا لم تذهب سلسلتك معهم.

جاءنى نادل يكبرنى ودفعنى أمامه:

- أترى أن تصبح عبداً؟

- عبد، لماذا؟

- هذا الرجل يقوم بسرقة الأطفال ويبيعهم فى أسواق العبيد.

- لكنهم بيض.

ضحك النادل بعمق وأردف:

- وهل تظن أن العبيد فقط هم أصحاب البشرة السوداء، هؤلاء

الناس يبيعون أى شيء حتى ولو كنت ابن من...

شعرت بالخوف، وعدت لدخل المقهى لا أتحرّك، وعندما مد
لي صاحب المقهى بعشاء ذلك الرجل لأوصله رجوته بتوسل أن يعفنى
فصاح:

- أبوك لا يعفنى من دفع أجرك.

وغرس الصحن بصدري وأكمل صراخه:

- هيا أنجز عملك.

حملت الصحن، كانت يداى ترتعشان فاندلق الإدام على الرز فى
باطن الصحن، وعندما وصلته كانت شتائمته تلتصق بمسامع أولئك

الصبية، قذفت بعشائه على الطاولة وعدت أركض، وأثناء تلبية الطلبات كانت عيناى مسمرتين عليه، وهو يزدرد الأكل بينما ظل الأطفال يرمقونه ولعابهم يسيل وعيونهم تصعد وتهبط مع يده، وعندما انتهى تناول الشيشة وأخذ يتجشأ بصوت مسموع بينما انكفأ الأطفال على فضله لحساً وقرمشة كالكقط المشردة وهم يغالبون القيد.

أنهى تعميرته، وطلب كرسيأ للنوم، وقام بربط السلسلة بفرجات الكرسي وثبتها وأغلق دائرتها بقفل كبير صدئ، وأخذ يسابق الصباح بشخير مرتفع.

(ما الذي يمكن أن يحدث لو أنني أطلقت سراحهم؟)

وقف بوجهه الغليظ على فعلتي وشد رقبتى للأعلى فتعلقت كتوب بال. أحسست برذاذ زبده يعلق بوجتتي ويسد على ترقوتي بقوة وصلابة، وعندما استعصت عليه أطبق بالقيد عليها، غاص فؤادي للأسفل وتعالى وجيبه حين تخيلته يقودني من رقبتى بسلسلة قصيرة.

(هل سيحدث هذا لو قمت بإطلاق سراحهم؟)

كنت أوسوس وأتدبر طريقة تمكيني من إطلاق سراحهم دون أن أوقظه، وكلما أقدمت تراجع وتخلت رقبتى تعصر بين يديه، وأحياناً ألمحها معلقة بتلك السلسلة القصيرة. وبعد تردد طويل قررت فك أسرهم ولكن ما يكون.. تحركت نحو أولئك الصبية، مستعنياً على كشف الظلمة بكشاف صغير، رأيتهم كالكقط الضالة، يستدفئون ببعضهم. نائمون بصورة سيئة، فقصر السلسلة لا يمكنهم من النوم على ظهورهم فتكروموا فوق بعضهم وقد تلبدت دموعهم على عيونهم. فضحت تلك الملابس المقطعة هزالهم، وعلقت الدماء بشابهم في أماكن متفرقة، حاولت فك قيدهم بيدي فلم أتمكن. وعندما أحسوا

بمحاولاتي أفاقوا، واستحثوني بفرح.. كنت أحمل مدية رقيقة الحد ركزت سننها بذلك القفل وسحبته بقوة فمرقت بيد أحدهم ليصرخ مثألاً ويفور دمه بتدفق فاستيقظ على صراخه ذلك الرجل وأمسك بياقة ثوبي صائحاً:

- والله لأحملك معهم.

وشدني من معصمي فاردأ تلك السلسلة ومحاولاً وضع القيد في معصمي، شعرت بالخوف ولمحت رقبتى معلقة بين يديه صحت بكل ما أستطيع، ليأتي لنجدي كل من كان بالمقهى. أحاط به زملائي، ووقعت مشادة كان خلالها ذلك الرجل يصيح بانفعال:

- هذا الصبي أراد أن يهرب عبيدي ومن حقي أن أقتص منه.

وبعد مجادلة وتدافع بالأيدي رضح وعتقني، شعرت بالقوة والتحمدي. فركضت لداخل المقهى وعدت أحمل البن وأكيس جرح الصبي الذي مرقت على يده شغرتي. كنت أضع البن وبصري معلق بذلك الوجه الجامد وهو يرمقني بغيظ وتهديد مر يندلق من بين شفثتي المشققتين:

- والله إذا لم تلتزم حدودك لأجعلنك تندم بقية حياتك.

أهملت تهديداته وانشغلت بتطبيب الصبي. كان وجهه مستديراً، وعيناه سوداوين وكبيرتين، وفمه عريضاً ترتفع شفته قليلاً عن ناب ركب على أخيه فظهر ملائماً لذلك الفم العريض. كان يبعد بيده الأخرى القيد كي لا يمس الجرح بينما ظل صديقه يتطلعان إليه بإشفاق، تمتمت برجاء:

- لو سمحت ضع قيده في اليد الأخرى.

- يبدو أنك نحن لوضع يدك مكانه.

فركضت من أمام عينيه، وعدت لدخل المقهى مؤملاً أن أفك قيديهم في الليلة التالية.

جاء طاهر قبل منتصف الليل وسحبني من يدي وعاد بي إلى تلك العشة التي قطنها منذ أن حللنا هذه القرية، التي توازي المقهى وتموت داخل أعشاشها بصمت. أخبرته خبر أولئك الصغار فأمسك بأذني مؤنباً:

- ألم أقل لك لا تتدخل فيما لا يعنك، أم أنك تريد أن تصبح عبداً تباع في الأسواق.

في اليوم التالي استيقظت مبكراً ورغبة ملحة تساورني وأهجس: - الليلة سأطلق سراحهم.

وعندما وصلت إلى المقهى، كانوا يقفون استعداداً للرحيل، تبادلنا النظرات المنكسرة ومضوا خلف ذلك التاجر الذي رمقني بنصف التفاتة، فعادت صورة رقبتي المعلقة بين يديه كشوب بال لأركض لدخل المقهى، بينما كان أولئك الأطفال يتابعونني ببصرهم الداوي.



حرص طاهر على ألا أحمل نقوداً في يدي أبداً.

كان يتنقل بي من بلد إلى بلد، وفي كل مدينة وقرية يجبرني على العمل، ويتقاضى أجري بنفسه، يوصلني لرب العمل ويوشوش له في أذنه ويمضي بعد أن يتناول نقوداً، وأظل أعمل لوقت طويل، وحين أعود إليه أجده مسترخياً كما تركته. ثرت في إحدى المرات واتهمته:

- أنت تستغلني وتتقاضى أجري دون أن تعمل.

نهض من رقدته، وصفعني على وجهي:

- عليك أن تحترم أباك.

فصحت بعناد:

- أو صدقت؟

وأحسست حاجة لأن أصرخ وبكل قوة صحت:

- لست أبي وأنت تعرف ذلك.

لأن بعض الشيء ونهض ليحاوطني بصوت يرققه كلما أراد اقتلاعي محاولاً تعميقه وتفخيمه:

- في الغربة إذا لم يكن لديك أب عليك أن تبحث لك عن أب بديل، وأنا أبوك هنا والمسؤول عنك حتى عودتك لأهلك.

- أنا أريد أن أعود.

- وأنا مثلك أود أن أعود لزوجي وبنتي، ولكننا محتاجان للمال لكي نعود، أو أنك تود العودة ماشياً خالي اليدين وتتسبب في حسرة أمك التي أخرجتك لتعود بالمال.

- لم أعد محتاجاً للنقود. فقط أريد أن أعود.

- لا أقدر على تركك تعود بمفردك فربما اختطفك أحد وباعك.

انتفضت وشعرت برهبة تسري في أطرافتي، ووقفت صورة أولئك الصبية المقادين بسلسلة واحدة في غيظتي، وعادت رقبتي تتلوى من تلك السلسلة القصيرة، لكن رغبة العناد تمت بداخلي:

- أنا أعمل طوال الوقت وأنت تنام الليل والنهار.

فعدا لسطوته واحتد غاضباً:

- أنت سيء الظن، كل الذي أعمله من أجلك تحمده.

ونفض يداً بيد وصاح حتى بانت عروق رقبته متوترة بتشنج:

..... بل أعمل أكثر مما تعمل وأحرص على أن تعود

لأهلك سريعاً، فقط أن تعود إليهم رافعاً رأسك.

- أريد نقودي.

- أي نقود تتحدث عنها؟

- لقد عملت في قرى ومدن كثيرة وكنت تتقاضى أجري، أريد

هذا الأجر.

- ألا تفهم؟ أنا أجمع لك النقود كي لا تفرط بها أو يسطو عليك

أحد ويأخذها منك، لكنك سيء الظن.

ونفض واقفاً، وامتدت يده لكرميه وأخرج مفتاحاً صغيراً،

وأداره بفقل صحارة اشتراها قبل أيام وأخرج نقوداً وصاح:

- هل تسمي هذه نقوداً، فهذه لا توصلنا إلى أي بلد قريبة ولا

تنس أنك خرجت من أجل أن تعود محملاً بالذهب. وأنا أخطط لك

لكي تعود محملاً بالذهب.

كنت صامتاً أنظر إليه بتحد وجمود، تحرك حتى قابلني ودفع

بتلك الأوراق المهللة في يدي:

- إذا رغبت في العودة بهذه فخذها ولا تريني وجهك من

الآن.

وكمن شعر أن جلته لم تعبر عن استيائه فأتبع:

- وليكن في معلومك طريق العودة أكثر خطورة، فكثيرون

يتظنون العائدين ليسلبوهم، وكل ما أخشاه أن تسرق وتباع.

قبضت على النقود، ووقفت حائراً، وعادت صورة أولئك

الصبية المسلسلين بالقيد تفتش غيظي، بكيت فاقترب مني وحضنتني

بساعدته، فنالته النقود، وارتيمت على سريري أجهش بالبكاء.

خلال هذه المدة كنت لا أعرف عنه شيئاً سوى اسمه ونفث باهتة

عن امرأة يبحث عنها. كان غامضاً يحيرني بكثير من تصرفاته. وفي

إحدى الليالي أنهضني وبكلمات مقتضبة أخبرني بالعزم على الرحيل:

- إلى أين؟

- ستعرف فيما بعد.

وانطلقنا في رحلة طويلة.

كنت أردد في داخلي (ما الذي يحملني لمصاحبة هذا الرجل،

كان عليّ أن أعود إلى قريتي منذ أن ماتت جدتي. وفكرت مرة أخرى

في العودة لقريتي. كنت كل ما أخافه أن أسرق في الطريق، فقد

عمق في داخلي هذا الخوف. كان لا يترك مناسبة حتى يذكرني

بالاحتراز من أي كائن. في البدء كنت أنظر لتحذيراته بشيء من

الاستخفاف، وأيقنت منها حين وجدت أولئك الأطفال الثلاثة يقادون

بسلسلة واحدة، فكلمنا فكرت بالهرب منه، تخيلت نفسي أقاد بسلسلة

طويلة بيد ذلك التاجر الذي رمقني ذات مساء وكأنه يتوعدني بالبيع).



وصلنا إلى جدة.

مدينة شابة تنام في أحضان البحر. وفي الصباح تفيق وتغري

في مناكبها الحياة. كنت أظن أن جيزان أكبر مكان يمكن أن أصادفه

في طريقي، لكن تلك المدينة تقازمت أمام جدة ذات المباني الحجرية

العالية، المزيّنة برواشين منمنمة دقيقة الصنع.

دخلنا إلى أسوارها المهذمة مع الغروب. كانت السيارة التي أقلتنا من الليث قد توقفت بالموقف وتناثر المسافرون في عجلة. كنت أجلس في مكاني مندهشاً فخطف يدي وأمرني أن أقفني أثره، فعبرنا أزقة ملتوية، وكلما أوغلنا في سيرنا تلاشت تلك الشوارع النظيفة والمشجرة والطرق المسفلتة وبدأت تستقبلنا روائح خورية لمياه آسنة، وقمائم ترامت على جنبات الشوارع الضيقة.

وقف أمام بيت متداع وأخرج من كمره مفتاحاً صغيراً وأداره فانفتح الباب بأزيز مرتفع لينهض سؤال من داخل البيت لامرأة سكنها الحزن - على ما يبدو -:

- من بالباب؟

.....

زاد إلحاح الصوت: من هناك؟

وبضيق ردد:

- أنا.

تهلل صوته، وانفتح الباب وذراعها، وعندما رأني أقف خلفه تراخت يداها وظلت عيناها تشعان بفرح غامر، وتقافزت بنتان من داخل حجرة ضيقة وتعلقتا برقبته وهما تصيحان:

- أبي.. أبي.

قبلهما بعجل وأزاح أيديهما المعلقة برقبته، ودخل لـ «بيت الماء» مستعجلاً. وقفت حائرة أمام تلك العيون التي تترى بي، اقتربت البنت الكبرى وسحبني من يدي وأجلستني على كروية وابتمت:

- ما اسمك؟

تلعثمت قليلاً ورددت بارتباك: يحيى.

- أنا اسمي عواطف وأختي اسمها حياة.

كانت امرأة أربعينية تجر قدميها وحزنها نظرت إليّ بنصف عين، ووقفت على باب الحمام تنتظر خروجه، وقف أمامها مباشرة:

- لا تنظري إليّ هكذا، جهزي لنا ما نأكله.

- وهل تظن أن لدينا ما نأكله؟

- كلما غبت أقول ستتغيرين. لكنك مثل الأشجار اليابسة تتغيرين نحو الأسوأ.

نظرت إليّ وأعادت وجهها نحوه ورددت:

- من أين جئت به؟

زيجر بصوت محدد: هذا لا يعنيك.

- وما الذي يعنيني

.....

..... أن أظل أنتظر عودتك من كل سفر، كل يوم

في ترحال وأنا أحمّل العنت والجوع وتدير كسرة خبز لابتتيك.

فصاح محتدأ:

- هذا الذي أخذه منك، تذر وشكوى.

كانت البنتان تنظران لشجارهما بانكسار، كنت متضايقاً متمنياً لو أنني أستطيع مغادرة مكاني، رأيته يفتح كمره ويمد إليها بالنقود التي

عملت بها في المدن والقرى.

- دبري أمرك.

تناولتها باستخفاف:

- يا ما جاب الغراب لأمه، سوف نصوم على هذه النقود سنة كاملة.

فكشر عن أنيابه وصرخ بها:

- أحذرك من مغبة الاستخفاف والاستهجان.

فانكملت وهي تتطلع إليه بغیظ بينما كان لسانه يتدل للخارج بصلف:

- والله لو لم تصمتي لأفد بك خارج البيت في هذا الليل.

انسحبت لداخل الغرفة الموازية للحوش، وبقيت فريسة لنظرات تلك البنتين، وإن بادلت البنت الصغرى النظرات بشيء من الفرح.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت الغالية مريم خالدية

المحترمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن سألتكم عن صحتنا فهي تسركم لا ينقصنا شيء سوى رؤية وجوهكم الغالية ربنا يجمع شملنا عن قريب إنه سمیع مجیب.

طالت الغيبة يا مريم ونحن متفرقون في هذه الدنيا وكنا غم موسى وكل ليل ونهار وأنا أدعو الله أن يجمعنا ولا يفرقنا بعد لقاء.

أنتظر قدومك مع إطلالة الحجيح، وكنت أمني نفسي أن أراك مع حجاج هذا العام، وأسعد بضمك لصدري فقد طالت الفقرة ونحن جسدان من بطن واحد، الله يا مريم كم هي الدنيا واسعة تفرق الأحباب وتبعدهم وما أقول إلا الله المستعان.

ويا غارة الله عليك، تقطعي عني جواباتك وتحرميني من أخبارك وأنت العارفة أنه مالي في الدنيا غيرك، وتعرفني المثل الذي يقول «ما المخوة إلا في الدنيا وفي الآخرة بخت تلقاني» فوالله الذي لا إله إلا هو إني أبأت الليل أفكر فيك وفي سبب انقطاع جواباتك، ولعبت بي الوسواس، ساعات أقول مريضة وساعات أقول الرسائل ما توصل وساعات أقول حصل مكروه وفي كل مرة أستعيز بالله من هذه الوسواس وأطلب من الله أن يبيحك لأولادك، ولي، فأنا مالي في الدنيا غيرك، فالله الله على الجوابات لا تقطعها عني، فبعد أن فرقنا الدنيا لا تفرقنا بقطع أخبارك ورسائلك ولا تفرقنا الدنيا وتبعدنا الهموم، يكفي ما أشعر به من غربة، ولولا أن الأولاد (مصريين) على البقاء هنا ما بقيت يوماً واحداً، وكما تعرفين ليس لنا في القرية مصدر ثقتات منه ونحن هنا ربنا ميسر علينا فأنا أسعى في الدنيا هذه، أبيع أقمشة وعطور وإذا قصرت غسلت كم قميص وأهو ربنا مباركها، وأخاف إن رجعت للقرية يضيّعوا أولادي ومن أجل هذا فأنا متحملة الغربة والبعد عنك، وعن قريتي وناسي.

أختي مريم:

أخبرينا عن الولد يحيى ما هي أخباره، أنا لم أياس فلا زلت أرسل إبراهيم وحسن للبحث عنه في الأسواق وفي أماكن تواجد الحجاج، ولكن بدون فائدة، وكما تعلمين أن حجاج كل سنة تتغير أماكنهم ويحل حجاج جدد، ومع ذلك كنت أمني نفسي أن أجده،

فكنت أذهب بنفسي في أوقات كثيرة وأقف على بعض الحجاج الذين استوطنوا وأسألهم عنه، وكلما ذكرت الأوصاف التي كتبتيها لي في جوابك القديم وأسأل عن صاحبها يقولون ليس هناك أحد بهذه الأوصاف، وأظن أن الرجل الجليل الذي صحبه لم يقدم على الحج وبقي في مدينة أخرى أو لا قدر الله يكون باعه لأحد التجار، وأنا لا أريد أن أخوفك ولكن كل شيء جائز.

أكتب لك هذا الخطاب وأنا عارفة بما تحسبن ولكن يشهد الله إنني ما أنام وطوال الليل والنهار أفكر فيك وفي أولادك، وما يكدر خاطري إلا غياب يحيى، وقبل يومين سمعت من أحد الجيران أنه رأى ولدًا يباع في السوق يشبه الأوصاف التي ذكرتها لي، وقد خرجت إلى السوق بصحبة جارنا الذي أخبرني بالخبر وسألنا البائع فقال إن الذي اشتراه رجل من أهل مكة، ولا زلت أدور على عنوانه وبمشيئة الرحمن أصل إليه وأتأكد من خبره، ويقول النحاس الذي باع الطفل إنه اشتراه من تاجر العبيد محسن أبو حصان وهذا التاجر - حسب ما يقول الناس - يتلقت الأطفال من القرى ومن الأودية البعيدة ويغريهم بالمال والحلوى ويجذبهم إليه ثم يقودهم إلى بلدان بعيدة عن بلدانهم ويبيعهم.

وإذا كان ابنك هو الذي بيع في مكة لك على عهد أن أعقبه حتى ولو تطلبت قيمته من الأسواق أو بيعت أحد أولادي، فاهنتي وقرى عيناً وعسى الله يجمع شتاتنا بعد فراق إنه سميع مجيب.

أختي الغالية:

في خطاباتي السابقة كنت أقول عسى يحيى يصل جدة ويسأل عني وألتقي به وكل ما أخافه أن يسأل يحيى عني فلا يبدله أحد، فأنا هنا لا أعرف بخديج خالدية فكل أهل الحارة ينادونني ناجية ولم

أخبرك بسبب هذا الاسم من قبل، فعندما قدمت إلى جدة اصطدمت سيارتنا الأنيسة بسيارة أخرى ولم ينج من هذا الحادث إلا أنا وأبنائي وتم نقلنا للمستشفى ولم يعرفوا اسمي فسجلوني في سجلاتهم باسم ناجية تيمناً بنجاتي أنا وأبنائي والتصق هذا الاسم بي وأصبحت لا أعرف إلا به، ولم أحب أن أعكر عليك فلم أخبرك في السابق بهذه القصة، ولا أظن أن يحيى يعرف اسم أبو الأولاد وهذا يعقد بحثه عنا لو استطاع الوصول إلى جدة لكن ربنا كريم. ولا أدري لماذا أحسن أن يحيى يرجع إليك، وأتمنى أن يأتيني ردك وتجبريني أنه عاد. أوه يا مريم لو رجعت لك يحيى عليك الله أول ما تخلصي من قراءة هذا الجواب تكتبين لي وتفرحيني، وقد نذرت أن أذبح خمسة كباشة وأوزعها على أبناء السبيل.

أختي الحبيبة:

الحمد لله نحن بخير، والأولاد يعملون، فحسن يقرأ بالليل ويعمل بالنهار، وقد حصل على الشهادة الإعدادية، ويرغب في مواصلة دراسته، أما إبراهيم فهو يعمل صبيّاً ببيت أبو سبعين ويعاملونه كأحد أولادهم، ويزورني كل جمعة.

أختي مريم:

تجدين مع الرسالة وصية أربع كرت، وبدلة ليوسف، وثلاث بناجر كل بناجر لواحدة من البنات ومضربين عطر جنة النعيم، وروح الروح ومعاهم ثلاث ريات عربي وثلاث فنايل وحوك لجبريل. وفي الختام تقبلي سلامي على نفسك وأولادك فاطمة ولبلى وحسنية ويوسف وجميع من يسأل عنا بدون تخصيص.

أختك خديج خالدية

حرر بتاريخ ٢٤ - ٣ - ١٣٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخت خديج خالدية

حفظك الله، آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصل كتابكم وقمعنا ما به وما منعني عن مكاتبتك إلا قلة المسافرين للحجاز، وفي كل يوم أكتب لك كتاباً ويبقى في يدي وأنا أدور وأسأل عن من ينوي السفر إليكم فلا أجد أحداً متوجهاً نحوكم وأظن أنتظر حتى تأتي أيام الحج وأبعث به، وفي أحيان يتنافر بعض التجار للحجاز لكنهم يمتنعون عن حمل الجوابات ويقولون إنها تعطلهم، وفي أحيان يحملون لي رسالتي لكنهم يعيدون كتابي بحجة أنهم لم يصلوا جدة، ويبتلعون وصية السمن والعسل الذي أبعثه إليك، أصل تجار قريتنا بهم خسة.

قرأت كتابك وتغنيت أن أفرحك، وأقول لك لقد عاد الغالي، لكن هذه الأمانة لم تتحقق، فأنا يومياً أخرج لأطراف القرية وأظن أنتظر عله يعود من هناك ومع الغروب أعود وقلبي موجوع. فالطيور - يا خديج - تعود لأعاشاشها والغائبون يعودون لأهلهم إلا قطعة قلبي ما أعرف أين هو، يا الله يا خديج لو تسكنني في حشاشتي وتحسي بالنار التي تحرق داخلي من فراقه، كل يوم أستقبل القبلية وأرفع يدي وأدعو الله أن يرد الغائب، والله والله إنني ما أبأت الليل فكلما خطر ببالي أن ابني تتلقفه الأيدي وهو ضائع في بلاد الله أصبح بكل صوتي وأنتحب حتى إن البنات أصبحن خائفات عليّ أختنن، وأسأل الله القدير أن يلطف به وبني، فأنا لم أعد قادرة على تحمل غربته، ولو كنت أعرف طريقه لهان عليّ الأمر لكن حسبي الله ونعم الوكيل،

وقبل ما يغيب يحیی كان قلبي مخلوعاً على فراقك أما الآن فنار الفارقة تأكلني عليك وعلى الغالي، ادعي لي في الكعبة تعلقي بستانرها وادعي من قلبك إن الله يجمعني بكم.

كتابك الأخير رد قطعة من روحي، وأظن أن الولد الذي أخبرتني عنه في كتابك هو يحيى، فأسألك بالله يا خديج تذهبي لمكة وتسألي عنه، بحق بيت الله وقبر سيدنا المصطفى، ولو كان الولد الذي ذكرته في كتابك هو يحيى فسأبيع كل ما أملك وأدفع به لذلك التاجر حتى لو أبيع نفسي.

حلمت يا خديج بيحيى، رأيته مرمياً في مطبخ وجده مسلوخ والذباب يأكل من عينيه، وبقيت أبكي وأنوح، ويعلم الله إنني لا أهنا بليل ولا بنهار، وقد تأثر حالنا، وخرج البنات للعمل مجاودات في الحقول، وعندما لا ينزل المطر يحتطبون وربنا ما يضع عبده.

أختي خديج:

أهنئك بدخول شهر الخير والبركة والإيمان أعاده الله علينا وعليكم باليمن والمسررات، وأسأل الله بهذا الشهر الفضيل أن يجمع شملي بابني ويجمع شملي بك. ولو تدرين إنني أصوم على الطوى وأنوح مع كل فطرة حين أتذكر يحيى وتلاوته للقرآن في عشتنا وإحياءه ليلنا بالذكر والتلاوة.

أسأل الله بحق جاهه أن يرد عليّ ابني ويقر عيني برويته إنه على كل شيء قدير.

أختي خديج:

فرحت لحسن وإبراهيم وأدعو الله أن يرزقهما من حيث لا يحتسبان، أما قولك إنك تريدان المجيء إلى القرية فهذا يسعدنا ولكن

كما تعلمين قريتنا تعيش بالحسد. ولو كان بيدك كسرة عيش يحسدونك عليها، وليس عندنا إلا الجوع والمرض. ونصيحتي لك إبقى مع أولادك وربنا يسخر لكم ولا تفكري بالعودة، فهنا الكل يتمنى أن يسافر للحجاز ويترك هذه الحقول الميتة، فقرّي مع أولادك، وربنا يسعدك ويرزقك من فضله.

أما قولك إنك كنت تنتظرين مقدمنا مع وفود الحجيج فكما تعلمين أنا محملة بالبنات ولو تركتهن من يرعاهن وكلهن شابات، ولو تركتهن وحججت فالخرجة تريد مصروفاً وأنا كل ما ألقاه منك ومن بعض الأعمال التي أزالها أملاً به بطوئهن المفتوحة. ومصيبي معهن أن عيوئهن مفتوحة، فكل شيء يرغب فيه، وهن لسن مثلنا. تذكرين حين كانت أمنا - يرحمها الله - تعطينا شيئاً نفرح به ملء الدنيا. لكن بنات هذا الزمان كل ما أعطيتهن شيئاً يطالبنك بزيادة ولا خاصة بناتي.

أدعو أن الله يسهل لهن أولاد الحلال وأتخفف من حمولتي، وأخرج للحج وزيارة قبر الهادي الأمين والصلاة في الروضة الشريفة ومن ثم البحث عن يحيى.

وما أخفيك لا أستطيع مغادرة القرية فعندي إحساس أن يحيى سيعود بنفسه إلينا، فهو الآن رجل. لقد مضى على رحيله خمس سنوات وأظنه الآن يعرف كيف يتصرف. هذا إذا كان صحيحاً معافى ولم يتعرض لمكروه أو كما خوفتني أنه بيع كعبد، تصوري يا خديج ابن الحر يصبح عبداً، دنيا الله لا ورانا تقلباتها وأن يرجع الغالي إلينا.

وأخاف إن أنا خرجت أن يعود ابن عمنا حمد فأجد خبره معه لذلك لن أخرج من هنا حتى أراه أو أسمع أنك لقيته.

أختي الغالية:

يا غارة الله عليك يا خديج تدسين عني خبر صدمتك بالسيارة كل هذه المدة، أسألك بالله أن لا تحبّي عليّ شيئاً يصيبك أو يصيب الأولاد لا سمح الله، وأدعو الله أن يمن عليك بالصحة والسلامة وأن يبعد عنك كل مكروه.

أختي ناجية.. لالا.. ما أحب هذا الاسم، أختي الحبيبة خديج:

وصلتنا وصيتك وما تدرين كم فرحنا بها، فقد جاءت في وقت كنا محتاجين لها. وربنا يخليك ويرزقك من أوسع أبوابه. وأخبرك أن جبريل ضاغي ويقول خديج ما تفكرني بشيء لأنّي أخوها من أمها أو لأنّي منعته من السفر فحاولت أن أهون عليه، وأعطيته من الوصية التي أرسلت بها وقلت له هذا من عند أختك، ولا تشغلي بالك فجبريل طيب وكان يعتب وهو يضحك.

ويصلك مع حامل الرسالة فارورتا سمن وقارورة عسل، وكنت أتمنى أن أرسل لك جهشة، لأنّي أعرف كم تحببها ولكن المسافة بيننا بعيدة وسفر طويل ولن تصلك خضراء.

أبشرك هذي الأيام يبرق ويرعد ويمطر والوادي دفع وننوي زرع حب وجلجلان ومتظرون الخير، ربنا يبارك لنا ويعيد الغالي.

أختي خديج:

البنات يسلمن عليك، وتقول لك حسينة تمنى منك أن تشتري لها شيزر فقد تقطع شيزرها وتستحي أن تخرج به بين صاحباتها، ونحن نكتب هذه الوصية مدت (حسينة) لسانها وغمضت عينيها وهي تضحك وتقول: سلمى لي على خالتي وقولي لها تشتري لي دبلول بدل

الدبلول الذي باعته أمي . والدبلول أنا بعته لما كنت أستعد لاستقبال
أمناء الله يرحمها ويدخلها فسيح جناته .

وفاطمة ولبلى تريدان زمامين وكل يوم تقولان :

- خرمتي أنفينا ليلعب بهما الهواء .

أما يوسف فهو يريد بدلة عسكرية لها فصوص مذهبة .

أعرف أننا ننقل عليك لكن ما لنا في هذه الدنيا إلا أنت، ربنا
يحبك لنا ويدم عليك فضله، وفي الختام تقبلي سلامنا وسلام جميع
أهل القرية .

ويا خديج لا أوصيك، الوصية أمانة، أوصيك على يحبي
والبحث عنه بزموش عيونك .

وفي الختام سلامنا على نفسك وأولادك وكل عزيز لديكم .

أختك مريم خالدية

حرر بتاريخ ١٢ - ٩ - ١٣٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الحبيبة مريم خالدية

سلمك الله ورعاك

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلت رسالتك وقرأناها وفهمنا ما بها، وما لك عليّ حلفان
لو قلت لك إنني لا أبات الليل من حرقتي على الابن يحبي، وزكنت
على خلق كثير وأعطيتهم أوصافه ليدلوني عليه، وقد سافرت إلى مكة
من أجل هذا الخصوص، ونويتها عمرة ودعيت على باب الملتزم وفي

زمزم وفي الحجر أن يجمع الله شملنا ويرد عليك غاليك، وبعد العمرة
خرجت للسوق الصغير أدور عن التاجر الذي قالوا انه اشترى صبياً
من جدة، وظللت أتردد على السوق حتى قابلت التاجر الأفندي وقد
ندم عندما سمع القصة وقال انه باع الصبي لأحد تجار الرياض والذي
خفف عليّ أن أوصاف الصبي المباع كانت مغايرة لصفات ولدنا،
فالمباع كان أخضر البشرة، فملوج الأسنان ولا أظنه يحبي حسب الهيئة
التي وصفتها لي في كتابك القديم . وقد وعدني التاجر الأفندي أن
يبحث عن يحبي في سوق العبيد، وأقسم إن وجده ليشتريه بنصف
ماله من أجل أن يعيده إلى أمه، فقد حكيت له تبك وحرقتك على
ابنك وقد سجل اسمه كاملاً في دفتره ووعد انه يساعدنا في البحث
عنه .

ولم أتركه حتى أعطاني عنوان ذلك التاجر وقد قلت له إنني
ذاهبة للرياض للبحث عنه، وما أخفيك الرياض بعيدة ولا أعرف
أحدًا هناك . ولكن لك عليّ عهد أن أدور لك عنه عن طريق أحد
جيراننا، فجارنا سائق يعمل على خط الرياض وهو يغيب لشهور
ويعود لزوجته، وسوف أحده بأمر يحبي عندما يعود وقد أجد طريقة
تدلني عليه غير السائق هذا .

وسمعنا في جدة أن بها صبياً تم جلبه من ناحيتنا، وأتأمل أن
يكون هو وأعدك إذا عثرت عليه سأرسل لك رسالة في الحال .

أقول لك : نذر عليّ إن لقيته أعود أنا وهو لنفري فرحتين .

وسلمي لي على جبريل وقولي له تقلك خديج :

رفسنا في بطن واحد، ورضعنا من ثديين لأم واحدة، ومهما
حصل في الماضي عادك أخويه ابن أمي، وما نسيبتك في يوم لكن

كنت أقول مريم حرمة معيلة وجبريل رجال قادر على كسب قوته،
واسمحتني إن أخطيت عليك.

مريم: الله الله على نفسك وحافظي على أولادك.

ويصلك وصية زمامان للبنتين فاطمة ولبلى ودبلول وشيظر
لحسينة وبدلة ليوسف، وكرتان شيت ومصر وسديرية لك، واعذريني
ما قدرت أوصيلك بفلوس، ومع الوصية ثلاث فنابل وحوك لجبريل،
وهي رضوة. وإن شاء الله أرسل له ما يسعد خاطره. وفي الختام
سلامنا على الجميع وعلى من يسأل عنا.

أختك خديج خالدية

حرر بتاريخ ١٦ - ١ - ١٣٨٢

(الفصل الخامس)

- المدينة تعلمك القذارة.

هكذا كان يقول طاهر، ولم أعرف أي قذارة يعني.

في كل مرة يجلس بمفرده ألمحه يردد كلمات اللوم والتفريع،
ويسرح ويعاود نشر وساوسه بصوت مسموع، ويطبق عينيه صائحاً
كمن داهمه قزع الموت:

- يا الله.

وفي لحظات شروده التي يسرقها خلصة ممن حوله يصاب
بالسعار وينيب من يقترب منه.

في إحدى تلك الحالات وقفت على رأسه زوجته بحنو وهي

تردد:

- بسم الله عليك ماذا أصابك؟

فوجدت نفسها محاصرة بشتائمه واتهامها بالتلصص عليه وولغ
الآنية التي يشرب منها، فطفقاً يتبادلان الاتهامات، لينتهي إلى انزوائها
باكية وخروجه لإحدى سفراته المتعددة والتي تمتد أشهراً.

مع زوجته يتعكر دمه سريعاً ويتحول إلى ذئب جارج، يظل
يعوي ويدور حول جسده يتمحك بأي شيء ويطلق تهديدات مرة،

وقبل أن يبدأ غضبه تنبيه الطرقات البعيدة.

وطاهر من قرية الوصابة، إحدى القرى المعلقة على جبال الخضصري. وجد نفسه في فخاخ المدينة متورطاً في شراك امرأة وابيتين، وكلما حاول الفكك منهن وجد نفسه يعود لقيده متبرماً.

جاء إلى جدة بحثاً عن حياة جديدة، فعمل بالبنط عند أحد تجار صناعة القوارب الشراعية (كان يطلق عليه أبو الزين)، وأبو الزين هذا - كما يقول طاهر - كانت له منجرة تكاد تكون هي المنجرة الوحيدة المتميزة بصناعة الدقالات التي تمخر عباب البحر لزمن طويل قبل أن تتفسخ أخشابها وتنخرها المياه. كان يصفه بأنه هامة يتلعب كل شيء ويظل جسمه طبيعياً لا يبين ما تلوكه نواجذه.

يقول عنه طاهر إنه كان بحاراً معدماً، ترك البحر وجلس على شاطئه يجمع الأخشاب وأسلاك الصفر وعلب التوتوة ومن هذه النفايات صنع منجرته ومن ثم عمل في صناعة القوارب.

الشخص الوحيد الذي لا ينسى طاهر ذكره هو أبو الزين، دائماً يتحدث عنه بخل، وفي أوقات قليلة بإعجاب. ويصفه بالموسى ويردد في لحظات شروده المباغثة:

- أبو الزين كالموسى جرحه رقيق ودمه غزير.

ذات ليلة أجلسني بجواره وأسر لي برغبته في الحديث عن عمه - الذي أكله كما يزعم دائماً - جلست مصغياً بينما جلس يتحدث عنه بازدرأ:

- أبو الزين قذفه البحر ذات يوم على شاطئ جدة مثلنا ومثل أناس كثيرين جلبهم البحر إلى هنا. يقولون إن عروقه قوقازية. هرب من بلاده خوفاً على دينه، وآخرون يقولون بل فارسي قدم للحج

وعندما وجد عملاً مغرباً حل إحرامه ونسي الحج وعمل أجيراً في إحدى المراكب جامعاً للؤلؤ، ثم غادر ذلك المركب وعمل في جمع الخشب والوقوف على الميناء لتقديم خدمات للقوارب القادمة. ويقسم - طاهر - أن أبا الزين كان يتخفى خلف تلك المهن البسيطة ليعبد عنه العين، فقد اتهمه بسرقة لؤلؤ صاحب المركب الذي كان يعمل عنده. وبعد أن مات تاجر اللؤلؤ أخرج أبو الزين أكياس اللؤلؤ وبدأ تجارته ليمضي في طريق ملوث بالخسة والدناءة.

كان يجمع المعدمين ويسخرهم لخدمته بمبالغ زهيدة، فجمع حوله نفراً نفضتهم الغربة على أطراف المدينة. أولئك النفر الذين حولوه لحوت على اليابسة. عملوا معه وسفكوا أيامهم من أجله فابتلع كل مدخراتهم وكان يدهم بالأماني. فقط الأماني العذاب.

في أوقات كثيرة كان - طاهر - يتسلل إلى بعض ممتلكات أبي الزين فيعقرها إن كانت دواباً ويتلفها إن كانت قوارب، وعندما يقوم بإتلاف شيء من تلك الممتلكات يعود منتشياً مترنماً، وقبل كل من يجده. في مثل هذه الليالي القليلة تسعد زوجته بقليل من رضاه وتظل تسأل:

- ما الذي يغير طاهر بهذه الصورة؟

جاء طاهر للمدينة غريباً فالتقطه أبو الزين من محطات الغربة، وعمل معه لثماني سنوات، كان خلالها يأكل ويشرب وينام وعندما يتذكر هذه السنوات يصيح بقهر:

- ابتلعتني هذا الحوت.

دائماً يكرر هذه الجملة بحسرة. في أحيان كثيرة يقودني ويشير لي بممتلكات أبي الزين ويردد بنهم:

- لي في كل ما يملك نصيب .

وإذا هيجه تعب سرد قصته من البداية :

كان أبو الزين يخرج للمقاهي ومأوى الضائعين في هذه المدينة ويعود بهم لصنادق ابتناها بجوار الشاطئ . كان يخرزنا كالأسماك المجففة ، يحشرنا حشراً ويطعمنا ، وقبل أن نطحن تلك اللقيمات يملئنا فؤوساً ويدفع بنا لوائي بني مالك لنقطع الأخشاب ونعود بها على الدواب ونخزنها في مخزن كبير أعده لهذا الغرض ثم تتحول هذه الأخشاب إلى قوارب تشق البحر ، هي عدة صفقات سريعة وغامضة فإذا به صانع للقوارب ، ومتاجر في اللؤلؤ .

جئت من قريتي أحلم بقافلة الذهب التي جئت أنت من أجلها ، وفي إحدى دوراته لمحني ، وضمني لبقية رجاله . كنت فيما مضى هزلاً فأجلسني لأقوم بمهامه الخاصة . وفي غفلة مني زوجني بابتنة أحد خدمه والتي تكبرني بعدة سنوات فأنجبت عواطف وحياء .

تسهر بالضغينة تفوح من كلمات طاهر كلما تحدث عن أبي الزين ، وغالباً ينعتة نعتاً ساقطة كلما خطر بباله أو قادنا الحديث عنه . نعتة في إحدى المرات بالمرابي ، ومرة بالفاجر ، وبصاحب الذمة الواسعة . وفي كل مرة يحذثني عنه يصفه وصفاً بذياً .

ذات يوم ، بعد أن تعب من شتمه قال لي بحذراً :

- أريد أن أبعدك عن مثل هذا الطريق ، فالبشر في المدينة أفاع عليك أن تتعلم كيف تعيش معهم وأنت آمن من لدغهم المميت حتى أنا نحرز مني .. أنفهم ؟

في كل مرة يسكب وصاياه وأصدقه ، وأقترب منه أكثر . كان العمر الزمني الذي يفصلني عنه كبيراً ، ومع ذلك كنت أناديه باسمه

مجرداً - حين نكون منفردين - فلا يدعوني لتبجيله أبداً ويردد :

- إما أن تكسب الحب وتفقد الاحترام ، أو تجد الاحترام وتفقد الحب .

وفي أحيان كثيرة يضحك بعق ويضرب كفاً بكف :

- أنا كالأرض الجذباء لا ماء ولا شجر ، لقد تشربت بالخسة فأصبحت أرضي سبخاً .

ويضرب جبهته أحياناً :

- لماذا كل هذا العنت ؟

في أحيان كثيرة تشعر أنه ضحية ، قدمته القرى قرباناً للمدن ليتصالح بقية أبنائها مع شوارعها الضيقة الملتوية وتمنحهم قليلاً من رضاها ، هو يقول كلاماً قريباً من هذا .

يقول :

- دفعني قريتي للمدينة كي يسيل دمي ، وإذا جاء أحد منهم إلى هنا كان من معاتيق المدينة لذلك عجن نفسه بماء المدينة ، وانسلخ عن قبيلته ، دافئاً عاداتها وتقاليدها في داخله ، اصطك لهجة مغايرة وانتمى للمدينة ونسي كل التفاصيل التي يمكن أن تعيده لقريته . وحين رأى تلك الفتاة تقف بالباب عاد يحفر عن جذوره ويستذكر لهجته ويحرص على التفوه بها في كل أموره . ولم يعد يشغله سوى الخروج والسياسة بين قرى تهامة بحثاً عن تلك الفتاة التي صعقت ذات يوم .

خرجت عواطف تحمل وجه أمها وكثيراً من عنادها وطول أبيها وشغفه بمن يحب ، وكانت حياة أكثر عدوية وفتنة وقد تشربت وجنتها بصخب الأنوثة والرغبة في الحياة .

يقول طاهر عن حياة: إنها سلافة الروح، وضعها في رحم أمها حين كانت تشاغل باله تلك الفتاة التي أحالت حياته إلى بحث دائم، لذلك سماها الحياة معرفة فنكرتها أمها.

في كل ليلة يصعد سطح المنزل ويظل يلوك لوعته بالشعر والأغاني، وإذا سمع زوجته تنادي عليه ليكف عن ذلك الغناء رماها بأقذع النعوت وعاد يندن بحرقة.

كنت أجد في لوعته قرباً من لوعتي، فكل الأغاني التي يسمعها تحرك لواعجي، أنصت له وأتحرق شوقاً معه. في إحدى المرات صعدت إليه، كان وجهه يتلظى وحرقة نفوح من تلك الأشعار التي جمعها وظل يردد ها بهيام منكسر. أجلسني بجواره لأستمع لتلك الأشعار، واقتربت منه. كل يوم أسمع نتفاً عن تلك المحبوبة التي أحرقتها ورحلت تاركة نيرانها تتأجج بصدرة. أجلسني بقربه وهو يردد أغنية بالية، يقطعها بأهة منغمة:

- أنت الآن فتى وإذا أردت أن تعرف سر الحياة فعليك بالحب، هو الشيء الوحيد الذي يمنحك سر الوجود.

وتناسل حديثه:

كنت يتيماً، وهربت من قريتي بسبب تعنت عمي، وجدت نفسي أرافق قافلة طويلة بلغت بنا جدة بعد مشاق مضنية، وهنا تلقفني أبو الزين ومضغني سنين طويلة، كنت أعبت بشبابي كثيراً، فلحقني العطب سريعاً، فأوكل إليّ بأداء المهمات التافهة البسيطة. وكنت ألح في طلب الزواج فدفق إليّ بإحدى بنات رجاله وقد عبرتها سنون طويلة من الجفاف، كنت محتاجاً لأي شيء ينهي هممي، فالتصقت بها، وسرعان ما مللتها. كانت كالشجرة اليابسة. ميزتها

الوحيدة أنها واقفة في وجه تقلبات الفصول. هناك نساء يعلمنك الفضيلة، فالمرأة الكاملة تبعد غواية الشيطان عنك، وهناك نساء كالبصل المعطوب يدفعنك للرديلة حتى ولو كنت عابداً ناسكاً، فقد تدفع بنفسك لطريق الغواية لتهرب منهن ومن فروجهن اليابسة.

بعد زمن استعدت صحتي، ولم أفرط في سكب مياهي في تلك البئر الخربة، واشتقت للخلاص. لم أكن أجد وسيلة تبعدني عنها إلا وقمت بها، ومع كل محاولة لغادرة بابها أجدها تسبقني لغلق باب آخر. رضيت بهذه الحياة البالية وفي انسكابها للقدر أفقت: لو لم أرها لكان حالي أفضل من الآن.

رايتها أول مرة تقف على الباب، فصعقت لجمالها، وغدوت متيماً بها، ووجدت نفسي مندفعاً إليها. كانت تجاورنا، تعرفت على أبيها، وأصبحت أقضي الوقت الطويل معه، ألمحها بين الحين والآخر، وأفتعل الأعذار لرؤيتها أو سماع صوتها، وشاغلته حتى أصبحت هواءها، وذات ليلة طرقت الباب، وطرقت وبت بجواره باكياً.

- لقد رحل ذلك الرجل بابته.

كنت على وشك أن أخطبها، على وشك أن أجد الحياة بين تلك العينين اللتين تفيضان سحراً، علمت أنها من إحدى قرى جيزان، وخرجت أبحث عنها. في كل مرة أشد الرجال إلى قرى تغلق أبوابها دون الغريب فأعود أكثر جذباً مما مضى:

- الله كم يقتلنا الحب، وكم نقتل أنفسنا حين نفرط في لحظة أن نعيش، هي لحظة إذا لم تكن متنبهاً لها وتستغلها تضيع. وها أنا أمضي ما تبقى لي من عمر أبحث عن تلك اللحظة الضائعة، تلك

للحظة التي ضيعتها بكثير من الماطلة. ليتني خطبتها قبل أن أثير خوف ذلك الرجل على ابنته.

وختم حديثه بتنهيدة حارقة:

- ساعة الحظ لا تعوض.

وأوصاني مراراً:

- لا تضيع فرصة تعبرك أبداً.

هو شخصية متقلبة لا يمكن أن تمسك بظئته، فهو كالأباريق المصطنية بنارين، رخو وصلب، خشن وناعم، حارق وبارد، ولا يمكنك من الإمساك بخصلة دون نقيضها.

تألفت مع عبوس زوجته، وأبديت تعاطفاً معها فسربت إلي كثيراً من حكايتها. كانت تقول:

- طاهر مثل الشمرة الحسنة. عليك أن تتعامل مع الجهة الناضجة، وهو دائماً يحاول أن يظهر هذا الجانب فقط.

وعلمت أنه بدد نصيبها في إرث أبيها على سفراته المتعددة ولم يبق لها إلا حسرة تجري بحلقها يومياً. كانت تحبه بشغف، تستقبل القبلة وترفع يديها داعية أن يرحمه الله من تعب يسيران تلك المشوقة أو الالتقاء بها، وأقسمت مراراً أنها لو التقت بها لتخطبها له بنفسها.

في المساء تنزين فيزداد بؤس وجهها وتطفر التجاعيد الصغيرة المتنامية أسفل رقبته وتتراخى وجنتاهما فتبدى كالحروق المكرشة. تطرق بابه فلا يجيب، وتظل منتظرة أن يحن عليها ويفتح لها الباب، وهي تتوسله:

- طاهر افتح لي الباب.

في أوقات كثيرة كانت تنام بجوار الباب المغلق.

أشفقت عليها، فمنحتني كثيراً من حبها، وأصبحت تحمل هم عودتي لأهلي، وقد أخطأت ذات يوم حين فاتحت طاهر بهذه الأمنية:

- لم لا تعيد يحيى لأهله.

فار فجأة، وشمها وغادر المنزل لثلاثة شهور، كنت خلالها أقوم بمهام عديدة داخل البيت، وكلما حاولت العودة لقريتي ترجوني زوجته أن أبقى حتى يعود ووجدت نفسي منجذباً للبقاء لبعض الوقت، وفي كل يوم ازداد التصاقاً برغبة البقاء.

لم يكن يؤخرني من العودة لقريتي سوى خوف من أن أقع فريسة لأحد تجار الرقيق، وقبل ذلك لم أكن أملك النقود التي تحملني لأهلي، فبدأت البحث عن خالتي بداخل جدة.

- انفجرت جدة خارج أسوارها ولم يعد أحد يعرف أحداً.

هذه أول جملة وجدها في طريقي حين سألت عن خالتي في سوق العلوي، قالها الصدفة بثقة، وأردف بمثل:

- لا تبحث عن أحد.

يقولون إن الصدفة يعرف كل أزقة جدة وحواريها؛ فقد ظل لنصف قرن يدور من الغلس بين منعطفاتها ويمضي ظهيرته منتقلاً بين مقاهيها وفي المساء يعود لينام بالقرب من البحر، انتظاراً لسفينة أبجرت ذات ليلة علماً تعود ذات يوم من الهند وتحمله لأهله. لم يياس. كان يومياً يعلّق شاله على وتد دقه في مواجهة الغرب، حتى

إذا جاءت تلك السفينة ولم يكن بانتظارها، كان شاله رايةً لوجوده وانتظاره لسفينة أبحرت من زمن بعيد.

كان عزوفاً في كل شيء. لم يبع أو يشتري، يقاسم زبائن المقاهي مأكلهم ومشربهم ويسبح في الأرض. كان يضع بقشته بداخل صنبوك تداعى على الشاطئ مترقباً الرجيل دون أن يحمل شيئاً معه. فقط كان حريصاً على حل طين من البقيع حصل عليه كهدية، وقد لفه في كيس صغير وكتب عليه بخط منمق (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب).

وقلة قليلة تقول انه عاشق لامرأة من أهل المدينة، كانت تقطن بجوار البحر فتيم بها واشتغل بحبها فترك كل شيء واقتفى أثرها. وكان يجمع التراب الذي تسير عليه وصر بعضاً منه في كيس وكتب عليه تلك الجملة، وعندما تزوجت وتركته يذرف عشفها، تسكع في الشوارع عله يلمح عينها ولا أحد بالتحديد يعرف تلك المرأة. فقط إذا هيجته الشوق نثر قصائده الركيكة وتناشج ببكاء مكتوم وهو يتضرع لله: اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب.

يضحك كثيراً حينما يتذكر شيخ الحواتين عبد الصمد:

- رحمه الله هو من أطلق عليّ لقب الصدفة.

كنت صغيراً حينما وجدت نفسي منسياً على ميناء جدة. كنت أمسك بيد أمي، وأبي يحمل عفشنا عبر صنبوك لداحل البحر حيث رست سفيتتنا التي سقلنا إلى يومي. انزلت من بين يديها وذهبت باتجاهه. ويبدو أن أمي ظنت أني معه وهو ظن أني معها بينما كنت أتابع سرب نوارس كانت تتخاطف سمكات صغيرة تقافزت وتعاركت لا ابتلاع فتات عيش طفا على سطح البحر، بعد أن قذف به المسافرون

إعداداً لروح البحر الشريرة عن طريقهم، وبسرعة عجيبة غادرت السفينة موقعها لأجد نفسي هائماً على الميناء. كنت أبكي بحرقه وأنظر للمدى البعيد، وألوح بيدي، لم تفلح تلك التلوحة في إرجاع السفينة الماخرة عباب الغيب، تجمع حولي نفر وحاولوا حلي معهم فأبيت وظللت في مكاني بالقرب من رائحة البحر وصياديه، أشفق عليّ الكثيرون، ومن فرط إشفاق أحد النواخذ أقسم على حلي للهند، لكنه تراجع حين خطه على ظهره أبو غنيمة:

- أين أنت وأين الهند؟

فأردف:

- والله لو كانت في آخر الدنيا.

أبو غنيمة: وهل تعرف مكان أبيه؟

الدقل: وهل تظن الهند كجدة؟

يحيى المصبن: والله لو بحثت فيها عشر سنين لن تجد ضالتك. فيها بشر كالودود.

حسين المبشيش: هيا اذهب وصم كفارة عن يمينك.

صدقة: نحن نتكفل به، وكأنه عند أبيه.

التف حولي الكثيرون، ولم أصطحب أحداً منهم وظللت بهذا المكان لا أبحره إلا للمسجد، وهناك تعلمت القراءة والكتابة، وما أن أنهيت من الصلاة والدرس حتى أعود راكضاً لهذا المكان. ومنذ ذلك الزمن أطلق الشيخ عبد الصمد عليّ لقب الصدفة، ونسيت اسمي ونسي معي الناس ذلك الاسم (مختار خان).

تبتت علاقتي بالصدقة بصورة غامضة، وتآلفنا. كانت الأيام

تقربنا من بعضنا وتربطنا ببعضنا، وكلما توثقت علاقتنا استعصى عليّ أن أسأله عن صرة التراب التي يحملها معه أينما اتجه. أول مقهى عملت به كان قريباً من جلسته فكنت أعبره محبباً وفي أحيان كثيرة مصافحاً. استجيب لدعوته أحياناً وأحياناً أغافله قبل أن يدعوني لمشاركته وسأوسه. كان يقضي معظم وقته تحت ظل عمارة بخش يقلب كفيه، وفي أحيان كثيرة يرفع صوته متحسراً:

- لا يدوم إلا هو الباقي وجهه.

يقولون إن سبب تردده جلته هذه أنه تزوج امرأة من بنات جلده - بعد أن يش من العثور على محبوبته - فلم تطق خروجه وهجرها والوقوف في مواجهة البحر، فعاثته ورحلت بابنه الذي في أحشائها.

كان محط إشفاق الكثيرين. فبعد أن قرضه الزمن نسجت حوله كثير من الحكايات. لكنهم أجمعوا على سحر كلماته فأصبح محطة لكل متظلم ليكتب لهم المعارض التي تذهب وتعود حاملة إليهم حقوقهم. لكنه لا يتقاضى أجراً على هذه المهمة.

كان يسيح في طرقات المدينة وحيداً، وكلما قيل له:

- الآن تستطيع العودة لبلدك.

يردد:

- ومن يخرج الغربية من داخلي لقد سكنتني ولا فائدة من الرحيل.

وفي أحيان يردد:

- أضعوني صغيراً ولم يبحثوا عني والآن لا حاجة للبحث

عنهم.

كنت أشعر بغرته التي يجمعها بأهات حارقة ويظل يقلب كفيه ويصيح بجملة:

- لا يدوم إلا الدائم.

سلمت عليه:

- عم صدقة يقولون انك تعرف كل أهل جدة.

- كان زمان.. أما الآن فقد انفجرت جدة خارج أسوارها.

وأخذ يتحسر على أيام زمان، ووقفت أستمع لحكايات كثيرة نثرها على مسامعي حين كانت البيوت تتلاصق بجدرانها قبل القلوب. كنت أقف معه جسداً بينما كان يذوب حسرة ويضرب كفاً يكف على تفرق شمل أهل حارته، وكمن وجد أذنأ تصغي له انفرط يعدد العائلات التي غادرت مواقعها:

- يا خسارة كلهم نسوا الماضي، لا أحد يلتفت للوراء.

اعتذرت منه، وهملت بالمغادرة، فاستوقفني:

- إياك أن تبحث عن الماضي قد تجده متعكراً فتموت مرتين.

- أنا أبحث عن خالتي، فأنا غريب هنا.

- كلنا غرباء في أيامنا.

أحسست بالضيق، فخطوت من أمامه، استمهلني مرة أخرى:

- لا تزال صغيراً ستجلس ذات يوم وتتحسر على الماضي. لكن

أخبرني ألسن ابن خيرية وأجاب بنفسه:

- خيرية ليس لها إخوة، أخذها أبوك كمتاع وتركها مع بناته،

ألم يعد؟

- من؟

- طاهر، أبوك.

- لا لم يعد.

تمنيت أن أقول انه ليس أبي وخشيت أن يدخلني في حكاياته التي لا تنتهي فنهضت، وهو يوصيني بالنساء:

- النساء يعرفن ما لا يعرفه أحد. إسالهن.

فتركته ومضيت وهو لا يزال يردد:

- لماذا يضيع الناس حياتهم بالفراق؟

تسللت كلماته لداخلي وأخذت تعيث فساداً في روحي، ظللت أردد جملة كثيراً:

- لماذا يضيع الناس حياتهم بالفراق.

أمسكت بياضات الملابس والمغسلات في البيوت أسأل عن امرأة تدعى خديج خالدية، وكلما سألت إحداهن بادرتنني بأسئلة أكثر صعوبة من بعضها:

- أين تسكن؟

- ما هي أوصافها؟

- بماذا تشتغل؟

فأحترار أمام هذه الأسئلة. وعندما حاولت أن أسأل عن أبنائها لم أتذكر اسم أيهم.



كان النهار يشرثر بين أزقة الحواري ويجر خلفه رطوبة فاترة تنلهى على أجساد المارة تاركة ضيقاً يجوس على الملامح برتابة.

كنت أشعر برغبة ملححة للتخلص من ثيابي التي التصقت بجسدي الفائر وعرق غزير يتصبب من أماكن متفرقة من ثنانيا جسدي.

وقفت أمام بيوت كثيرة أسأل عن خالتي، كنت أدور كالمحموم واسمها مبيل في لساني، وكلما أمسكت برجل وسألته، نظر إلي بارتياح، وتركتني. وبعضهم صرح باستكافه بصوت عمتلى بالدهوة:

- ألا تستحي تسأل عن امرأة، ما اسم زوجها أو ابنها!

في أحيان كثيرة لا نهتم بالتفاصيل الصغيرة. حين كنت في قريتنا لم أسأل أمي يوماً عن اسم زوج خالتي، أو عن المدينة التي تقطنها، أي شام هذا الذي يقصدونه، واكتشفت أن الحجاز سلسلة طويلة من المدن، تلففت اسم جدة من قم جدتي حين قالت:

- سنصل جدة ومن هناك نتوجه إلى مكة، فهل تسكن خالتي بمكة؟

اخترت أن أعمل ليلاً بالمقهى لأتمكن في النهار من البحث عن خالتي. وما أنا أقطع الشوارع والأزقة سائلاً دون أن أعثر على طريقها. أعود مع الظهيرة - للصندقة التي ابتناها لي طاهر في آخر الحوش - كثيراً، فألتف على نفسي كأفعى ملت من بياتها الشتوي وظلت تسترجع ذكريات قديمة من دفاء العيش الرغيد. كانت عواطف تنفقدني في كل حين وتقدم لي ما أحتاج، فأقدم لها شكري، فترخي رأسها وتتمتم بصوت منخفض:

- يسعدني أي شيء أقدمه لك.

مشطت حياً نبت في خاصرة جدة وأصابني الإرهاق واليأس،
فجلست بجوار أحد البيوت المسورة بأشجار الليمون واللوز الهندي.
اجتاحني هواء لطيف فشعرت بالانتعاش وتلهفت لشربة ماء، كانت
عيني زائغتين بين تعرجات الحارة، كنت أفكر أياً منها أسلك لمواصلة
هذا البحث العقيم، وفي أحيان كثيرة أفكر بالكف عن البحث،
خبطني على ظهري وهو يتسم:

- أتذكرني؟

حدقت في وجهه، وجه دائري، عيناه سوداوان وكبيرتان، فمه
عريض ترتفع شفتاه قليلاً عن ناب ركب على أخيه فظهر ملائماً لذلك
القم العريض. كانت قامته طويلة برغم ملامحه التي تشي بيفاعته،
هزاله مفرط كما ابتسامته، ظللت محدقاً به فرفع كم قميصه وأشار
لجرح قديم تقبب واندمل بتشوه:

- هل تذكرت؟

لم أكن قادراً على تذكره وإن كانت صورته تلوح في ذاكري
وتتلاشى. ظللت صامتاً، أتأمل وجهه، فتقرب مني ملامحه ولا أذكر
أين رأيت هاتين العينين الواسعتين والناب المتطرف والمزاح من أسفل
تلك الشفتين الرقيقتين.

- أظنك لم تتذكر.

- نعم، لم أتذكر.

ابتسم، فقفزت شفته للأعلى:

- لقد جرحتي ذات ليلة.

أفاقت من الذاكرة صورة ثلاثة أطفال مقيدون في سلسلة ينامون

على بعضهم شعث غبر، والدماء تلتخ ثيابهم. واقتربت وفاضت تلك
الليلة بمخزونها، ابتسمت وهلت:

- أنت من جرحته.

- نعم.

!!!!!!-

..... واسمي حامد، وأنت؟

- أنا ماذا؟

- أنا حجل منك، فأنا لا أعرف اسمك.

- تعددت أسمائي، ففي كل مقهى أعمل به أخرج منه باسم
جديد، وقد استقروا على البوري. فحضنني بقوة، واندلقت أسئلته
متلاحقة فائرة:

- ما الذي جاء بك إلى جدة؟

- جئت لأعمل.

- وما تعمل؟

- أهو كما ترى، هنا وهنا.

- وأنت؟

- لا زلت عبداً والذي أحده لسيدي إنه رحيم.

- وما الذي جاء بك إلى هذه الناحية؟

- أبحث عن خالتي.

افترقنا بعد أن وعدني أن يبحث معي عنها، واتفقنا على الالتقاء
وأن نصبح صديقين في هذه الغربة. بدأت لقاءاتنا خاطفة، نتبادلها
في أوقات متفرقة. في يوم الجمعة يذهب سيده إلى مكة فيخرج معي

للبحث عن خالتي في أحياء جدة المتفرقة وفي سيرنا كان يحكي لي قصة عبوديته.



في قرية تقف خلف سنابل القمح وتمد طرقاتها بسعة صوب الشرق، كانت لنا أبقار وأغنام تسرح خلف الحقول، وكنت أنا وأخي الصغير نركض خلفها. وفي أحيان كثيرة نمرح بين قوائم السنابل نطارد الفراشات ذات الألوان الزاهية. كنا محبورين بطفولتنا، نخرج في أوقات مختلفة للحقول حاملين الزوائد أو راكضين خلف أغنامنا لإبعادها عن قوائم السنابل التي رفعت سيقانها عن الأرض.

كانت الشمس كوردة يعتصرها الشفق فتسيل أشعتها بين السحب القائمة، وميض برق خاطف يسيل سيوفه من ناحية الشمال منذراً بليلة ماطرة، وأصوات الرعاة تتواصى بالعودة. كنت أنا وأخي غالب ندفع أغنامنا وأبقارنا صوب القرية.

بنغ علينا من بين أشجار الأثل والشمام، شاريه الكث وعيناه الزائغتان أصابتنا بالهلع. انكمش غالب خلف ظهري، فأمسكت به مرتعداً، بكى غالب بحرقة وردد:

- النباش (٢٠).

(٢٠) النباش حيوان أسطوري تعدد مسمياته وفق المنطقة الجغرافية؛ فهو يشبه بالضبع وفي أماكن أخرى بالغوريلا. وتقول الأسطورة إن من يؤذيه يصبح هدفه بعد الموت. . حيث يصبح به أثناء الموت قائلاً: «حلاتي بك ويعقب عقيبك»، أي أن الشخص المخاطب حل له هو وذريته، فإذا مات قام النباش بنش قبره وأكله قبل أن يصبح جيفة، ولذلك يخرج أهل المتوفى الموعود للسهر على قبره ثلاث ليل بعدها لا يقدر النباش على إتيان خصمه.

واسع خطوته حتى اقترب منا:

- أنا غريب عن هذه القرية، أريد ماء.

كان أخي يحمل كوز الماء، فناوله مرتعشاً، سقط الكوز وسال الماء، امتصته الرمال الناعمة بسرعة، حاول أن يظهر ابتسامته فازداد بشاعة، أمسكني:

- أرجوك أريد أن تدلني على قرية الحمام، فلي أهل هناك.

نظرت إليه بفزع، وأشرت بيدي في اتجاه القرية:

- إنها هناك خلف تلك المراعي.

قال:

- لا أعرف كيف أخترق حشائش الحلفا أريدكما أن توصلاي للطريق، لن تتأخرا.

- ستمطر ولن نستطيع العودة.

- لا تخافا فقط أرياني بداية الطريق.

سرت وغالب يسحبني للخلف وهو يسير بمحاذاتنا، وقامتانا الصغيرتان ابتلعتهما حشائش الحلفا. كان يتودد لأخي النافر منه، وكلما أوغلنا في المسير وحاولنا أن نتراجع يتودد إلينا بقطع من الحلوى التي لم تكن نعرفها فنتلمظها ونواصل معه وهو يسكب الوعد:

- عندما توصلاي للطريق سأمنحكما كيس الحلوى هذا.

وأدلجنا في الليل. كان وميض البرق يلمع فينير بعض الطرقات البعيدة، وصوت الرعد يقصف مسامعنا بدوي مجلجل. بكى غالب،

وأحسست بيده تجذبننا، وننعطف عن ممشانا. أذكر أننا أخذنا نبيكي وهو يدفنا بغلظة، أدخلنا لعريش قبع في منطقة نائية، وكمم فمينا. لم نتم ليلتها. كانت دموعنا مستيقظة، وقلباننا الصغيران يرفان كأجنحة طيور مجعدة وثمة مطر بالخارج يتصبب كالمرج.

في الصباح امتطى فرسه وقادنا بسلسلة طويلة خلفه، بعد ليلتين كنا في بلد جديدة وحال جديد. مر بنا لإحدى القرى والتقى بأحد رجالها فاستضافه وأسلمه طفلين آخرين - كنت شاهديهما في المقهى - أما غالب فلم يقطع تلك الليلة.

مات غالب في اليوم الرابع حين بتنا في حظيرة خيول صديقه، فقد تجمعنا في الليل على بعضنا ونمنا وشهقاتنا تتعالى. كنت مستيقظاً، دار حصان حول الفرس لمنافحتها فأحرنت، قفز برجليه الأماميتين على وركها فتقدمت عنه لتسقط حوافره على رأس غالب. شهق شهقة عالية وارتفعت قدماه للأعلى وشخب دمه في وجوهنا وعلى صدورنا، وصرخنا، وغالب يتخبط بين دمائه، وعندما همد جسده ظلت دماؤه لزجة على وجوهنا وثيابنا فظللنا نصرخ الليل بطوله دون أن يجيب صراخنا أحد. وفي الصباح أحلوا يده من بيننا وحملوه بعيداً عنا، وواصلنا الرحلة ولا أعرف أين دفنوا جسد أخي غالب.

عندما فشلت في فك قيدينا بالمقهى، انطلق بنا محسن أبو حصان - وهذا اسمه - إلى الطائف وعرضنا للبيع، فبيع ياسين لأحد التجار هناك وانتقلت أنا وعمر لجدة فبيع عمر لتاجر من أهل مكة واشتراني سيدي. فأحمد الله أنك لم تبع في الطريق وأن الله سخر لك رجلاً طيباً كطاهر حماك من مغبة الطريق وعبودية ذليلة.

الفصل (الساوس)

كنت جائعاً، فرجوتها أن تجهز لي أي شيء ألوكة، وتبعنتها. كانت منكشفة شمس في قرص حنطة خلط بزيت سمسم، فيما كان ريقى يموج باشتهاء، وقف على رأسنا ومد يده بقوة على صدغي:

- هل أريك لهذا.

بهت ولم أدر ما أصنع، كانت يدي تتحسس تلك الصفعة وأنطلع لعيني المزمومتين بغيظ. كان منفعلاً ورغبة معاودة صفعي تطفو على أطرافه:

- الرجال لا يقفون في المطبخ.

نهضت أمني وخباتني خلفها وهي تنافحه بالصوت:

- كان جائعاً وطلب أكلاً، ما الذي حدث؟

- لا أريد رؤيته بالمطبخ أم تريدني يصبح (رابع خواته)^(٢١).

(٢١) رابع خواته لفظة تحقير تطلق في عدة مواقف: لو وجد الرجل في مكان خاص بالنساء، أو أظهر ميوة لا تتناسب مع مظاهر الرجولة، أو تكس عن تحمل الأعمال الشاقة التي يقوم بها الرجال. وعادة تطلق وفق عدد أخوات من يقوم بهذا الفعل فإن كان له أختان يقال له (ثلاث خواته) وهكذا.

- وهل رأيته يجيز أو يعجن؟

- يكفي أن أراه هنا والرجال لا يقفون مواقف الذل حتى وإن ماتوا.

هي أول مرة أتلقى فيها صفة مباحة من أبي، تلك الصفة التي حرمت دخولي للمطبخ وجعلتني في كثير من أموري المعيشية لا أستطيع تدبر أمري مهما كان الأمر هيناً.

في المقهى ظللت أقدم الطلبات دون أن تطاوعني نفسي لدخول المطبخ وإعداد الشاي والحليب، وفي كل مقهى أعمل به أظل مقدماً للطلبات. فكان هذا التصرف يثير دهشة أصحاب المقاهي وزملائي من القهوجية ويخس أجري.

وفي بيت طاهر كدت أموت في الأيام الأولى فلم أكن أجرو أن أتحدث عن جوعي، لم أكن أعرف تجهيز أي أكلة يمكن أن تسكت أمعائي المفتوحة على الدوام. كان علي أن أنتظر فقط مواعيد الأكل انتظاراً يصل حد الضرر.

في إحدى المرات كاد يغمى عليّ، نما جوعي وأخذ يفتك بأمعائي فتسللت للمطبخ، ووجدت نفسي عاجزاً عن فعل أي شيء فعدت للبرودة مرتعشاً وأعراض ألفتها: هبوط حاد وجفاف يتييس بجوف حنجرتي وعرق يتصبب بعنف فخرجت أستند على الحائط. كان صوتي وهناً، وعصف بي دوار وغابت الملامح الأمكنة. يبدو أن عواطف لمحتني، وقبل أن أقع انتشلني طاهر مستفسراً:

- ماذا بك؟

- أشعر بخواء وأن معدتي ستسقط.

تراكضت بنتاه وزوجته، وأجلسني على السرير. كان صراخ زوجته يصلني من مكان بعيد وهي تولول بفزع:

- أنت لا تجلب إلا الموت. وكل الخوف أن يموت هذا الصبي هنا.

- يا بومة كفي عن الصراخ، فأنا أعرف حالته.. بطنه مملوء بالدود. احضري له أكلاً وسينفض في الحال.

أحسست بيدها تحشر لقيمات في فمي، بعدها شعرت بقواي تعود لي رويداً رويداً.

ومنذ ذلك اليوم لم تترك عواطف بطني فارغاً قط.

كانت عواطف تقاربتني في السن وتتفانى في خدمتي. تمنحني اهتمامها وتقوم بغسل ملابسي، وتجهيز طعامي، وعندما تراني واجماً تحاول التخفيف عني، تمازحني وتحتلق المواقف لإضحائي. تخالس أمها وتأتي، تحدثنني عن أمور كثيرة، وتنتشلني من ترددي، وكلما خطوط خطوة ناجحة فرحت وضمت يديها على صدرها بغبطة وهي تردد:

- ستحقق كل أمانيك. فقط احرص على نفسك.

في أول أيامي كنت طوال الوقت أظل قابلاً في الحوش لا أعمل شيئاً سوى الجلوس واجماً، أقلب بصري بتشتت. رقت خيرة لحالي. كانت تأتيني وتقدم لي بعض الفطائر وتمس شعري بيديها:

- لماذا لا تخرج للتعاب؟

سمعتها طاهر ففار كإبريق انتظر طويلاً فوق نار حامية وصاح

بها:

- هذا الصبي لم يخلق للعب، فاتركه وشأنه.

- وهل يعجبك أن يظل زاوياً هكذا.

- دعيه وشأنه، فأنا أبحث له عن عمل.

ظللت على هذا الحال لعشرة أيام، استيقظ لأجلس في البيت. أنطلق لعواطف وحياء وهما تعملان بشؤون البيت أو تشاركان زميلتهما للعب، فأشعر بالخلج من نظراتهن وضحكاتهن المسترسلة وهنّ يتطلعن باتجاهي، فأبحث لي عن مكان يبعدني عن عيونهن، وأحوم بداخل البيت كطائر لا يجيد الطيران. يعتريني خجل بكر كلما أحسست أنهن يتغامزن عليّ. كنت أعرف أنهن يقصدنني بنظراتهن المائلة حين تكون عواطف محتدمة معهن في الكلام. وفي أوقات كثيرة تتركهن وتأتي لتجلس معي. كانت خيرية تعاملني بلين لكنها تغضب لرؤية عواطف وهي معي فتزجرها بعنف:

- هيا يا بنت العبي مع البنات.

فتتحرك صوب زميلاتها بينما عينها مصوبتان نحوي، في حين تكون حياة مشغلة عن نظراتي بألعاها التي لا تنتهي.

انتظمت في العمل ومضت شهور طويلة أذهب وأعود كالبيت فلا شيء يحرك بداخلي البهجة، فأعود ليلاً استأنس بمصاحبة القهوجي ياسين أبو شنب الذي يسكن في أول الحي، وعندما تمتد خطواتي لدخل الحارة تنبت مخاوفي فأظل أتربص بالأزقة وصور شتى من الاحتمالات تداهم مخيلتي، فأظل طوال الطريق أقرأ القرآن، وأستعيز من كل مكروه.

كنت أحترز دائماً ألا أعبر من بعض الأزقة حيث تتطوح القمامات وتدلّق خدرها وهي تمسك بقوارير خمس خمسات. عند تلك

الأزقة أسلم قدمي للركض ولا أجيب أي صوت يناديني. كنت خائفاً أن تتعلق يد أحدهم بظهري.

أدير المفتاح بباب البرندة وأغلقه، وأرغمي لاهثاً حتى إذا هدأ خوفاً أتفقد ما حولي.

وفي كل ليلة أجد صحناً أعد بعناية وتنوعت أكلاته ألثمه على عجل دون أن أفكر فيمن أعدّه، وأنام وأنا أستمع للراديو. وفي أحيان تهبني أغنية عابرة فأنام مسكاً بدموعي.

ومع توالي الأيام أصبحت عودتي من المقهى ومكوئي مستمعاً للراديو ناساً أطرب له وأظل للهزيع الأخير من الليل مترنماً بأغنيات تبثها إذاعة القاهرة.

مع الصباح الباكر تكون ثمة عينان تتربصان بي من خلف الشقوق الضيقة المنتشرة بالبرندة، فتطردان النوم من مخدعي لأنهنّ، وقبل أن أخرج لرؤيتها تكون قد اختفت.

- إنها هي.

أهتف لداخلي بهذا الهاجس فيتسع صدري انشراحاً وأغدو أكثر بهجة من أي وقت مضى.

في أوقات كثيرة أظل جالساً وعبوس الغربة يفتشر وجهي ويملاً فمي بالتأفف والضيّق، فلا أجد مناصاً من تبديده باستعادة أغنيات حملتها مخيلتي من حقول قرينتنا البعيدة، وفي أحيان ترديد تلك الأغنيات الشجية التي يرددها طاهر، فأسمع خيرية تردد:

- أصبح بيتنا مخفلاً لأغاني البكاء.

ذات ظهيرة جاءني عواطف وفتحت نافذة كانت مغلقة عني:

- لماذا لا تكتب لأملك تخبرها عن حالك .

- كتابتي ضعيفة ولا أعرف أحداً أرسل معه رسالتي .

- الصدفة يكتب رسائل تبكي الحجر ، إنه يكتب لمن يريد . .

إذهب إليه ، وسوف أتدبر أمر إرسالها .

- كلامه كثير فقد سألته عن خالتي ففتح لي أبواباً كثيرة .

- إذهب إليه وقل له أريد أن أكتب رسالة وستجده فرحاً بهذا .

- ماذا أقول له؟

- كل ما تود أن تخبر به أملك .

- ودفعني للخارج برجاء حار .

كان يجلس كعادته تحت عمارة بخش . ترددت في الإقدام عليه .

وعندما رأي أشار بيده لأن أقدم :

- هل وجدت المرأة التي تبحث عنها؟

استقبلني بهذه الجملة فرددت ببرود :

- لا .

- مسير الحبي يتلاقى .

كان يجلس جلسته المعتادة ، رابطاً شاله على ظهره وعاقداً طرفه

على ركبتيه ، ويهتز وكأنه يتأرجح :

- لا تبتش كثيراً .

!!!!-

... فأننا أمضيت سنوات طويلة أنتظر ولا زلت . لكن

الخوف أن من تبحث عنهم أسقطوك من حياتهم . . ساعتها سيكون
انتظارك غباء لا فائدة منه .

!!!!-

- لماذا أنت صامت؟

!!!!-

- عش وكأنك مع من تحب . ساعتها لن تشعر بالبعد .

!!!!-

- لماذا تقف هكذا صامتاً كبنت عذراء خطبها كهل .

غمغمت بكلمات غير مسموعة فتطلع لساعته الصليب وردد :

- لا زال الوقت مبكراً على موعد عملك ، إلى أين ذاهب .

- جئت إليك .

- لتسأل عن تلك المرأة ، أعرف أن أباك قاس في أحيان كثيرة .

لكن لا عليك . . سأبحث معك حتى تجدها .

كنت أتطلع للسانه الذي لا يستقر في فمه بشيء من الجفاء ،

فقربني إليه بتودد :

- دعني أظفر ونخرج للبحث عنها .

تلملمت وتمتمت :

- جئتك من أجل أمر آخر .

- (تراني سداد) قل ما هو؟

- أريدك أن تكتب لي رسالة لأمي .

تسمر في جلسته وهو يتفحصني :

- أَو لا تعرف الكتابة؟

- لا .

- صاح بانفعال :

- انتهى زمن العتالة فالزمن القادم زمن علم ، عليك أن تتعلم .

- الآن أريدك أن يكتب لي الرسالة وسأتعلم فيما بعد .

- والله لن يكتب الرسالة إلا أنت حتى ولو بعد سنة .

وجذبني من يدي ووقف أمام مدير مدرسة الفلاح لتزكيتي .



وجدت نفسي منتظماً في مدرسة الفلاح ، فقد خطفني الصدفة من يدي ووقف أمام مدير المدرسة لتزكيتي بلغة عربية تتقافز عجمتها :

- هذا ولد نجيب ولا بد أن يدرس .

ولم يترك للمدير فرصة لأن يقول شيئاً وقد تعهد بجلب أوراقتي الرسمية خلال أيام .

تركني بداخل المدرسة أثلفت كالمضائق أبحث عن ألفة جديدة بين مجموعة كبيرة من الطلاب . كان منظري بائساً وترددي واضحاً ، دفع بي مدير المدرسة لأستاذ الدين لتحديد مكاني داخل الفصول . وقفت أمام الأستاذ عبد الجواد خير متلعثماً حين سألني عن بعض الفرائض ، قال بصوت رصين تحالط به خلقت معه ، على ما يبدو :

- قبل أن أسألك في شيء عليك بحضور حلقات الدرس التي

تعقد بالمسجد لتقوية ضعفك .

هزرت رأسي موافقاً ، فأبدى استياء من صمتي وقبل أن يتركني سألني :

- أتحفظ شيئاً من القرآن؟

رددت على الفور : أحفظه كاملاً .

نظر إلي غير مصدق : أَو تحسبني سأترك مقولتك تذهب هكذا ، اسمعني من قوله تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ .

استعذت من الشيطان الرجيم وتلوت على قراءة عاصم :

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمكم شنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم...﴾ .

استحسن صوتي وتجويدي ، وأخذ ينتقل بي في سور القرآن وأنا أقرأ بقراءات مختلفة ، عندها فقط التفت إلي مباركاً ومهنئاً وشد على كتفي :

- ستكون من خيرة الطلاب .

وتعهدني بعنايته .

حين عاد طاهر من سفرته وعلم ما حدث ذهب للمصطفة وتخاصماً لبعض الوقت . كان طاهر يردد :

- يحىى جاء ليعمل لا ليقراً ويكتب.

فبادله الصدفة الصباح:

- والله إنك رجل غريب تحرمه من أمه ومن نور العلم.

- قلت لك لا شأن لك.

- أشك في أنك أبوه، فليس من أب يحمل قسوتك.

- يا صدفه لا تتدخل فيما لا يعينك، وهذا الصبي لا بد أن يعمل.

وجدت نفسي أ تدخل بصوت ضعيف مرتعش:

- سأعمل بالليل.

خفتت حدة طاهر وتعالى صوت الصدفة:

- غداً عليك أن توصل أوراقه الرسمية للمدرسة.

- وأي أوراق رسمية!

- طلب بالالتحاق بالمدرسة وصورة من التابعة.

- لكن يحىى ليس مسجلاً بها.

- ألسن تقول انه ابنك؟

- بلى.

- وإلى الآن لم تلحقه بالتابعة.. يا لغفلتك، اتق الله في هذه الأمانة.

كان طاهر ينظر إليه بحنق، بينما كان الصدفة يجذبه من يده:

- قم فانا أمون على أبي فاطمة سيلحقه بتابعيتك وأنت واقف.

وقفت أنظر إليهما حتى غيبتهما الأزقة الملتوية، وبعدها بأيام قلائل أصبح اسمي الرسمي: يحىى طاهر محمد الوصابي، وإن كانت تنازعه ألقاب كثيرة حصلت عليها من خلال العمل في المقاهي، ولم أعد أعرف إلا باللقب البوري.



وبدأت أتعلم، كنت أعمل ليلاً، وفي الصباح أقف في طابور المدرسة مغشياً عليّ من شدة النعاس.

حفظي للقرآن سهل مهمة أن أتعلم بسرعة متناهية، كان طاهر دائماً يبيدي تدمره:

- وما فائدة أن يتعلم الإنسان؟.. على الرجل أن يتعلم كيف يجلب رزقه، أما أن تبقى طول اليوم تقرأ، فهذا الذي لا أحبه لك!!
وبعد عدة أشهر كنت أكتب بدون أخطاء، جئت لعواطف فرحاً، قلت لها:

- كتبت رسالة لأمي. لكن لا أعرف مع من أرسلها.

قفزت فرحة ورددت بحبور:

- أبي يعرف كل شيء، أسأله.

جاء من سفرته الأخيرة أكثر مكابدة ووجداً بمن يبحث عنها.
كان ذابلاً كعروق نبتة أخرجت من أرضها وظلت لأيام ملقاة في العراء، وقفت أمامه:

- أريد أن أرسل هذه الرسالة لأمي.

طرفت عيناه بوميض مدهش، وتتم:

- أرسلها.

- لا أعرف أحداً يوصلها.

حك شاربته، وتناول رسالتي، وأعادها إليّ وتتم:

- أقرأها عليّ.

وما أن انتهيت من قراءتها حتى وقف معترضاً:

- هل هذه رسالة ابن غائب عن أمه ثلاث سنوات ونصف

ويريد أن يفرحها بدل أن يغم قلبها.

- هذا الذي شعرت به.

- اجلس واكتب.

تناولت ورقة بيضاء ناصعة، وأخذت أكتب وهو يملئ عليّ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمي الحنون مريم بنت خالد

سلمك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أنا في أحسن حال، وقد منّ الله عليّ وسخر لي رجلاً كان لي الأب والأخ في هذه الغربة، فبعد موت جدتي قررت ألا أعود إلا وأنا أسوق أمامي قوافل الذهب، وأطمئنك أنني بخير وفي عافية، سؤالي الدائم عن صحتكم الغالية.

أفيدكم أنني أصبحت أعمل وأتعلم أيضاً، ولن نحتاجي لأحد

بعد اليوم. فأنا سوف أنكفل بإرسال كل شيء لك.

يصلك مع حامل هذا الخطاب خمسون ريالاً عربياً، وسوف أرسل لكم في الأيام القادمة مبلغاً آخر. سلامي للجميع وخاصة إخوتي، فاطمة وليل وحسينة ويوسف.

ابنك البار

يحيى الغريب

حرر بتاريخ ٤ - ٥ - ١٣٧٩

وتناول الورقة وطواها ودسها بالظرف، وطالبني بوضع الخمسين

ريالاً.

- كل نقودي بين يديك، إُدفع لي مما أَدخره عندك.

- لا تذكر تلك النقود أبداً فهي وديعة. لو ألفت الأخذ منها

فلن تعود إلى أمك بما تحلم.

- ولكنني لا أحمل نقوداً. كلها معك.

- تصرف.

- ماذا أصنع؟

وأمام حيرتي ربت على كفتي متصنعاً الحزم:

- لا عليك سوف أقرضك المبلغ وعليك أن تسدده فيما بعد،

وهذا يتطلب أن تبذل جهداً مضاعفاً للحصول على دخل مضاعف.

شعرت بالهزل منه ونهضت أقبل رأسه، فتركتني وهو يردد:

- سوف تصل رسالتك خلال مدة وجيزة، أنا أعرف رجلاً

مسافراً لتلك النواحي وسأوصيه بإيصالها بنفسه، لا تهتم.

ولأول مرة أشعر بشيء من السعادة. كانت عواطف تكاد تطير وهي تراني على هذه الحالة، كانت في مواجهتي تقفز معي وفجأة ضمنتني إليها فتخلصت من بين يديها بصورة منكورة وخجل عنيف يعترك بداخلي، وبدأت أتحاشي أن يجمعنا مكان واحد أو أن أبادلها النظرات. كنت أبحث عن عيني حياة في كل لحظة من اللحظات، لكنها كانت تذهب بهما بعيداً فأزداد شوقاً لرؤية حور عينيها، وزاد قلقي حينما لم تعد تلك العينان تترى صان بي من خلال شقوق البرندة.



على غير عادة جاء طاهر فرحاً. كان وجهه يشع بفرح بكر، حضنتي وكلماته تسابقه:

- تصور ماذا أحمل لك؟

لم يكن بذهني بارقة خير يمكن أن تأتي منه، فقد ألقت طبعه غير المبالي والمفرط في الأهمال، فرفعت كتفي ومطيت شفتي:

- لا أدري.

- فكر.

- عمل جديد.

ضحك بجفاف ودس يده لجيبه وأخرج مظروفاً مهلهلاً:

- أنظر.

أحسست بقلبي يخفق وأنفاسي تتسارع:

- ماذا؟ .. جواب.

هز رأسه، ودفعه إليّ، فتحت على عجل، وقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم
الابن الحبيب يحيى الغريب

المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا تتصور مقدار فرحتنا بجوابك، فقد سعدت به سعادة بالغة، ومررت على كل بيت بالقرية أخبرهم بخطابك، والذي أثلج صدري النقود التي بعثتها إلينا وأتني أن تعمل وتعمل من أجل إخوتك، وإياك أن تفكر بالعودة فنحن محتاجون لعملك لكي تبعث لنا بما نحتاج.

الابن يحيى:

يظهر أن طاهر الذي حدثتني عنه في كتابك هو رجل طيب، فسر معه واسمع كلامه وإياك أن تخالفه، بحق طاعتي عليك لا تخالف له رأياً، فالكبير كبير يا ابني.

يحيى:

أخبرك أن خالتك انتقلت إلى مدينة الرياض وهي مدينة تبعد كثيراً عن جدة ونصيحتني لك أن تبقى مع طاهر، فقد سألت عنه الرجل الذي أوصل جوابك وعلمت أنه رجل فاضل يحب عمل الخير، فامكث معه ولا تلق بنفسك في التهلكة بسفرك الطويل لخالتك. ولو فكرت بالسفر للرياض فلن تصلها بسهولة وكل الذي أخشاه عليك أن تبتلعك الصحراء أو أن تقاد إلى حظيرة الرقيق وتصبح عبداً ساعتها سأموت من الكمد، فعليك بملازمة طاهر كظله واسمع ما يقول دون معارضة.

ابني يحيى:

نريد منك مبلغاً من المال فنحن في أحوج حاجة إليه، نتمنى أن تبعثه مع الرجل الذي بعثت معه الخمسين ريالاً السابقة، فهو رجل

أمين، وكل شهر وهو بالقرية لأن له تجارة عندنا، لا تنس أن تبعث معه بالنقود.

الابن يحيى:

لا أوصيك.. اسمع كلام طاهر في كل شيء، وتقبل سلام اخوانك فاطمة وليلى وحسينة ويوسف.

أمك مريم التي تحبك

حرر بتاريخ ٧ - ٨ - ١٣٧٩

شعرت بالسعادة تغمرني، فأخذت أصفق وأقفز عالياً، وأقبل طاهر، وأصبح بزوجه:

- أنظري، جواب من عند أمي. إنها سعيدة جداً.

وقف طاهر في مواجهتي ومد إليّ بورقة:

- ما هذه؟

- أكتب أنني أقرضتك.

- متى؟

- أو تنسى بسرعة.. الخمسين ريالاً التي بعثت بها لأمك. لقد

تأكدت من وصولها.

- أوه، نسيت.

وكتبت له، فطواها وخبأها في جيبه:

- الآن عليك أن تضاعف من عملك فأملك محتاجة للمال.

- نعم سوف أوفر لهم كل ما يطلبون.

- وقبل ذلك عليك أن تسدد دينك، وتدفع الخمسين التي في

ذمتك.

- حسناً.

- هيا.

- الآن؟

- نعم الآن.

- خذ من مالي الذي عندك.

- ألم تنفق أن تلك وديعة لا تمس؟

- ومن أين أحضر لك بخمسين ريالاً.

- دبر أمرك، وتعلم أن لا تبات وفي ذمتك دين لأحد، وكى

لا تكون هذه الورقة شفرة على عنقك، وأشار للورقة التي كتبت فيها تهديدي بدفع الدين الذي يعنقي، سمعته يردد:

- أنا أعلمك وعليك أن تحذر من كل شيء.

شعرت بخسته فجأة، وطوال الطريق إلى المقهى وأنا أفكر في

تقلباته التي لا تحظر ببال، وتغيبت لساعات وعدت أحمل في يدي مائة ريال ودفعتها إليه:

- خمسون ريالاً، الدين الذي عليّ، والخمسون الأخرى أبعث

بها لأمي، وسأكتب لك كتاباً.

- ها أنت تثبت رجولتك، ولكن من أين لك كل هذه النقود؟

- اقترضتها.

- وهل هناك من يقرض مثل هذا المبلغ؟

⊗ ⊗ ⊗

وقفت أمام صاحب المقهى متوسلاً:

- أريدك أن تقرضني مبلغ مائة ريال.

تطلع لوجهي باحتقار:

- مائة ريال دفعة واحدة.

- نعم.

- وماذا تريد أن تصنع به؟ هل تريد أن تشتري السوق؟

- أبعث بها لأمي.

ضحك فاهتز كرشه عالياً:

- لو بعت هذه القهوة وصيبتها معها ما حصلت على مائة ريال.

كنت أرجوه بحرارة، فدفعني صائحاً:

- إذهب وانجز عملك، فالزبائن ينتظرون الطلبات.

- ولكن حاجتي ملحة.

- قلت لك لو عملت ثلاثة أشهر متوالية ما سددت هذا المبلغ.

وصرخ بقوة لأثرك من أمامه منكسراً، تلقفني قدورة:

- لماذا يصرخ بك المعلم؟

وجدت نفسي أسكب على مسامعي نغماً من مشكلتي، فمد يده

إلى جيبه:

- هذه مائة ريال تصرف بها وغداً عليك بمغادرة هذه القهوة.

دس المبلغ بجيبتي، وخرجت لأمنحه لطاهر كي يبعث بنصفه

لأمي، وأصبحت أعمل ليل نهار لكي أوفي بالتزامي. وفي كل مرة أكتب خطاباً وأبعث لأمي بالقدود.

الفصل السابع

ديك شرس يخرج من بين الماء نافشاً ريشه وخامشاً الأرض ينقم حبيبات خضراء، يمشي بعجلة وعرفه الأحمر يتدل على رأسه الصغير، عيناها الصافيتان لا تستقران على موضع.

دجاج وصوص يبتعدان عن خطواته، أعجبنني منظره. صفقت له، التفت صوبي واقترب مني. نقم أظفاري فتقرحت وسال دود مسود له أرجل مشوكة ابتلعه بشراهة. ومضى ينقم أطرافي فأسقط بجواره نصف جثة. الملح رأسي يتدحرج فيتبعني، يستقر رأسي بجوار حظيرة الدجاج وينغش الدود من فتحات رأسي، فيصبح الديك ليتجمع كل الدجاج والصوص على هامتي، فقاً إحدى عيني فقفزت من محجرها كحبة عنب خسنة، وحين هم بقوء عيني الأخرى صحت بعنف، فتجمع طاهر وزوجته وبناته، كانت خبيرة تضع رأسي على صدرها وتقرأ المعوذات وصوت طاهر يصر:

- ماذا بك؟

!!!!!!!-

قالت عواطف بإشفاق: استعذ بالله.

شعرت بالخجل حين وجدت نفسي مغروساً في صدر خبيرة فسحبت نفسي مردداً:

- هذا الكابوس يعاودني من ليلتين.

فضحكت خيرية:

- لو أنك جلست لأقرأ لك طالعك لحففت عنك.

صاح طاهر بضيق:

- أنت تقترين من الحرف قبل الأوان.

حادثته بنظرة خاطفة قصيرة، وعقبت:

- هناك أناس لا زالوا يمارسون أعمال الشباب بينما رأسهم

ابيض وهمتهم بردت.

طفر الغضب من عيني طاهر:

- تنهني لما تقولين، فنحن لسنا وحدنا.

وأمر ابنتيه بالمغادرة وأمسك شعر خيرية بعنف:

- لو أحرق شعري البياض فسأظل فحلاً. كل ما في الأمر أنني

أعافك من زمن بعيد.

لم تكن خيرية مكترة بشد شعرها أو حديثه عن فحولته، كانت

تنظر إليّ في خجل مما يقول:

- استح يا رجل فضحتنا.

- الآن أستحي؟ أين كان حياؤك حين قلبت ما قلبت؟

فاندفعت من أمامه واضحة يدها على فمها، بينما تبعها وهو

يلعننا في كل كتاب، وجلست في سريري متلهفاً لرؤية عيني حياة.



زوجة طاهر فترت ودأبت على المكوث تحت ظل البرندة الكبيرة
تقلب أوراق الكوثينية وتتسلى بقراءة الغيب.

في البدء كانت تسلي نفسها، وحين أقبلت عليها جاراتها
مستحسنات أخبار أوراقها المقلوبة انتعشت وأخذت تصدق كل كلمة
تنفوه بها، وكلما جاءتها إحدى جاراتها أخذت تعدد لها ما سيحدث
في الغد.

كانت تدعوني لقراءة يخني فانشغل عنها، وبعد أن كبر وهمها
استوقفتني متسائلة:

- هل تظني كاذبة؟

.....

- والله إني أشعر أن أحداً يتفوه بما أقول، فتعال
أخبرك بأخبار أمك.

بعد عدة دعوات جلست أمامها. كنت فقط أريد إشعارها
بالخراقة التي بداخلي، قلت لها:

- أحب فتاة وأريد أن أعرف هل تبادلني الحب.

فتحت عينيها على اتساعهما وضحكت بعقم وهي تمسح بيدها
في اتجاهي:

- هل عرفت هذا الداء؟

فهزرت رأسي. خيبتني على كتفي ونشرت أوراقها، وطالبتني
بسحب ولد السبيت - وفعلت كما أمرت - وضعت يدي وقربت من
أنفاسي ووشوشته له برغباتي، فاخطفته من يدي وغرسته بين
الأوراق و«فطت» أوراقها، تطلعت لوجهي بتأمل مفتعل:

- ثلاث نساء يقتربن منك، اثنتان تحبانك والثالثة تنأى عنك
وستحبك عندما تنأى عنها. وأنت تبتعد عنهن جميعاً، تحلم بالمال
وتأخذ منه الكثير لكن لن يصل بك إلى مكان. وهناك طائر لن يعتقك
أبدًا، أنظر..

فجأة قلبت الورق وتمتت:

- طالعك صعب ولن أستطيع أن أخبرك أكثر مما أخبرتك.

اعتراضي الفضول ورجوتها أن تواصل قراءتها، فناولتني ورقة
أخرى، وأعدت القول نفسه بإضافات طفيفة، فتركها دون أن أعتذر
منها فصاحت:

- صدقتي يا يحيى طالعك وعمر.

فضحكت ورددت عليها:

- عندما يصبح منبسطاً أخبريني.

وبعد زمن أحست بمطاردة عيني لابتتها حياة فاقتربت مني
هامسة:

- دع هذا الطريق، فطالعك صعب يا يحيى!



شيء ما يمترق.

أحسست بتوتر أعضائي، ورغبة ملحة لأن أمسك بامرأة.

- يكفي.

هتفت به، وهو منهمك في وصف مغامرته الليلية والتي انتهت
بنشوة احتلت كل مفاصله. لم يزدجر وواصل وصف تلك المغامرة
الليلية.

- هل ترغب في أن تجرب.

شعرت بالارتباك، ولذت بالصمت، وإن كانت عيناى تشيان
برغبة دفينية، قال بحزم:

- الليلة نذهب سوياً.

- إلى أين؟

- ستعرف فيما بعد، فقط عليك إحضار خمسة رياللات.

مع الغروب، وقف عمر النعمة أمامي وهتف محرضاً:

- هيا.

- والعمل.

- لن تنغيب كثيراً.

أحسست بأنني أسير وراءه مسلوب الإرادة، كنا نخترق الأزقة،
ووصاية تطاير:

- نظرق الباب ونمضي ثم نعود فنجدته مفتوحاً.. لا تنسى..

إياك أن تتراجع.

بلغنا زقاقاً ضيقاً لا يكاد يسمح لاثنتين بالسير، طرق الباب
طرقاً مغماً سريعاً وواصلنا السير، وقبل أن نبلغ منتهى الزقاق عدنا
فوجدنا الباب موارباً، دسنا جسدنا للدخول بعجلة. كانت تقف
كبقرة وحشية ضافئها سرحت بنمنمة بدية. جذبتنا وأدخلتنا لغرفة
شبه مظلمة تطايرت أبخرتها الأفريقية النفاذة، وبسطة بخسف جدل
بإتقان وتدلّت من على الجدران معلقات فاقعة الألوان، وثمة فراش
بقي مهيناً للمضاجعة غطي بلحاف ناصع البياض، لكزتي بكتفها
بغنج:

- من منكم سيبدأ أولاً.

دفعني عمر:

- هذا.

ونغزها في خاضرتها التي طفحت بالشحم وتثنت بتعرجات
بشعة:

- لا زال بكراً. عليك أن تعلميه كل شيء.

ضحكت فبان سن ذهبي تغلغل بداخل فمها وتحدثت بعجمة
واضحة:

- هذه النوعية متعبة ولا بد أن يدفع عشرة ريالات.

- سيكون زبونك الدائم.

خرج عمر وبقيت بمفردي معها، كانت رواثعها النفاذة تختقني
ورغبة مجنونة تدفعني إليها. حوطتني بذراعيها، أحسست بجسد رخو
انغرس به كالقطن ودفعتني للفراش الممدود، وغبت في لهاث انتهى
بصرخة مكتومة وطفح جرى بيننا. كنت مغروراً بها وهي تلزني لزأ،
فدفعتها وخرجت مسرعة بالرغم من صرخات عمر التي كانت
تتبعني:

- انتظري حتى أتهني.

شيء ما يحترق.

ظلمت لأيام ثلاثة أشعر أنني دنس، كنت أدخل للحمام وأصب
الماء صلباً، وأدعك جسدي بقطع صابون ذابت بين مخاشمي، وفي كل
مرة أحس بذلك الطفح يسيل بين فخذي ويفرقني في مساحة شاسعة
من الدنس.

جاء عمر النقمة مصطحباً شاباً دقيق الملامح عيناه واسعتان

وسوداوان تغريان بالتأمل في حداثتهما، وله ابتسامة عذبة فترت على
فمه باسترخاء، صافحتني عمر بحرارة، وعرفني على مرافقه:

- صالح مستعجل.

فضغط على يدي وبقيت ابتسامته متأرجحة بين شفثيه فيما
واصل عمر حديثه:

- صالح راغب في التعرف عليك وهو يسعى لهذا.

ارتبك صالح فجأة وعقب:

- سمعت عنك.

وتلغثم مرة أخرى وهو يبحث عن كلمات هربت من لسانه:

- لم أسع، عفواً.. حدثني عنك عمر فأحببت التعرف عليك
فأنا أثق بأصدقاء عمر.

تدخل عمر بالحديث:

- أين أنت بعد تلك الليلة. لقد أفزعت المرأة.

حاولت أن أثنيه عن مواصلة حديثه، لكنه واصل:

- ما دام صالح سيكون صديقنا المشترك فلا بد أن أخبره
بحكايتك على أقل تقدير. ستكسر هذه الحكاية تخرجكما من بعض.

وعادى في سرد تفاصيل تلك الليلة واصفاً لصالح كيف أنه
سمع صراخ نشوتي وكيف انطلقت راكضاً لا أُلوي على شيء. علق
صالح بخبث:

- يبدو أنه أول مرة يصل.

- يا شيخ هذا غشيم، لقد روت لي أنه أتعبها.

ودس فمه في أذن صالح ليكمل له ما حدث، وانفرط الاثنان
في ضحكة محمومة.

فأحسست أنني أهوي وأهوي إلى قرار سحيق من الدنس.
شيء ما يحترق.

لكي أوفي بطلبات أُمي أصبحت أعمل ورديتين متابعتين.
كل ليلة أعود مع قرابة الفجر، وآوي إلى هذا الركن القصي من
الحوش، أقذف بجسدي وأنا، لم يعد هناك وقت. لن أفكر بغريتي.
في أحيان كثيرة نتأقلم مع أحزاننا ولوعتنا ويصبح الراحن حياة
لا تريد أن تستبدلها، أو لا تريد أن تجدد جراحك القديمة. في
أوقات كنت منسجماً مع نفسي، أقتات لوعتي القديمة وأبتلعها كما
تبتلعني أيامي المتسارعة.
- عد بسرعة.

لم تعد هذه التوصية تبكي، بل شعرتني بالغيظ وتآمر غيلتي
مع هواجسي في إضرار حنفي:

- لو أنها تحبك ما أخرجتك وأنت لا تزال صغيراً، كما أن
رسالتها كانت متلفة للمال ولا شيء غير المال.

ظللت أياماً أبكي لهذه الوحدة، حتى سكنتني. فلم أعد أطيق
فراقها. وسعيت لتطبيق جهلها بتلك الرسالة:

- إياك أن تعود يا يحيى فنحن بحاجة لعملك، اعمل وابعث لنا
بالنقد.

أصبحت مكلفاً بالعمل. ليس لي من دور في هذه الدنيا سوى
العمل.

شيء ما يحترق.

- هل أستطيع أن أحدثها؟

تجمع على الدوام، فأزداد تعلقاً بدلالها.

- لماذا نحنُ للنساء إذا عصفت بنا الوحدة؟

كنت أضع هذا السؤال أمامي كلما وجدت نفسي وحيداً أقتات
ذكريات قديمة، ولا أجد جواباً شافياً.

في برودة قذفت في حوش واسع، كنت أمضي أكثر الوقت،
وثمة عينان تتربصان بي من بين تلك الشقوق فيعتريني الحبور
وأهجس:

- إنها هي.

وافعل كثيراً من الحركات التي توهم من يتطلب إليّ بامتلاكي
لروح طيبة. كانت تشاركني هذه الصندوق قطة جلبتها من المقهى،
وكلما لمحت تلك العينين تتربصان بي ألأمس جلد قطتي وأبشها
لواعجي، فأسمع تنهيدات تلك العينين، وأحس بقلبي يخفق وأدندن
بالأغاني.

يومياً في الصباح، وقبل دخول الأصيل، ألح تلك العينين
تحترقان وحدتي وتجالساني. وعندما يخطر بالبال أنها هي تصبح قامتني
عالية والمكان مساحة رحيبة وأغدو طائراً يخفق بجناحيه الفضاء.

جاس بداخلي إحساس غريب، سرى بخدر ولوعة. رؤية عينيها
تصبيني بارتباك ويتصبب عرق، وأتلعثم كلما حدثتها. فأهرب من
أمامها كلما جمعنا مكان، وأعود أبحث عنها.

عينها واسعتان تلتهمان ما تصادفانه وتتركانه جنة خضراء.
نخطت الثامنة عشرة للتو ففارت مفاتنها ونضجت بصدرها غيمتان

وتدلت من شفيتها جرتان ملتفتتان تزعمهما بغنج، وترك يدها صاعدة
هابطة للقبض على غرتها وتسيقها على جبين استوى واتسق مع وجنتين
ممتلئتين بالأنوثة.

- لو لم تكن بها هذه الأنفة!

في أحيان كثيرة ألوم نفسي لكلمة بدرت من داخلي، وأظلم
متخاصماً معها لوقت طويل، وكلما حاولت أن أكبح جماحها يفيق
بداخلي ذلك الإحساس فتغلبنني نفسي على أمري فأعاود الحماقات
نفسها ويتكرر التقريع واللوم. لم تكن تأبه بتحديثي بعينيها، شيء
مهمل ألقى في طريقها فتعبه يومياً بلا اكتراث.

كنت في زيارة لحامد ببيت سيده، استقبلني استقبالاً حافلاً،
وظللت عنده لبعض الوقت. وقبل أن أخرج رأيت وردة بيضاء تحتال
على غصنها، وقفت بجوارها أتلمسها، ضحك حامد بخبث:

- أحب الورد؟

- نعم أحبه.

- خبطني على ظهري:

- لا أقصدك أنت.

- تقصد من؟

- تلك التي تحدثني عنها.

- لا أعرف ماذا تحب وماذا تكره.

امتدت يده لتلك الوردة وقطفها وهو يضحك:

- جرب واعطها.. فالنساء يحببن الهدايا.

أمسكت بالوردة وعدت فرحاً. كانت تجلس بجوار الشيش

تتطلع للشارع بلهفة، دخلت وناولتها الوردة، قذفت بها جانباً
ومتمت:

- ألا تذهب لعملك؟ أم أنك تتسور جدران الناس لقطف
ورودهم.

أحسست بشيء حاد يخترق أحشائي وينمو كرهاً بغيضاً لنفسي.
توقفت عن التطلع لعينيها. كنت أمني نفسي أن تراجع عن كبريائها.

بعد هذا الموقف بليتين كنت أجلس بالبرندة كعادتي وسمعت
صراخها فاطلقت فرساً لأراها، كان مسمار صدي قد انغرس بقدمها
فحاولت جذبه فطوحت بيدي:

- قلت لك ألف مرة لا أريدك أن تفعل شيئاً من أجلي.

تركها وعدت إلى داخل البرندة، لتلحق بي عواطف وهي
تعتل:

- لا تغضب من حياة فهذه عاداتها.

كان اعتذارها عن تصرفات أختها جافاً، ولم تكن كسابق
عهدا. سألتها:

- وأنت ماذا بك؟

- لا شيء.

ألححت عليها ففطرت دموعها فجأة:

- كنت أنتظر أن تعطيني الوردة.

ومضت مسرعة تغالب دموعها المتساقطة. بدأت أحس بها،
وتلوعني عينا حياة، تلك العينان اللتان تبحانني وتركاني موجة مبعثرة
تحاول جمع نفسها على شاطئ قريب.

الفصل الثامن

في المقهى تتطاير الكلمات، والقفشات وأدخنة الشيش، وشيء ما يفوح من هناك له طعم الحلم. حكايات مبتورة، وأغان ركيكة، ومزاح ثقيل. لعب، وسعال ونظرات، وعشق نام وعشق تيس في الذاكرة.

أشكال وألوان مختلفة من البشر يتقاربون في مقاعدهم ويتعارفون ويشعلون الليل بكلام عابر، وضحكات عذاب.

ألفت كل شيء هنا، وغدوت جزءاً من المكان، ألفت خصام المعلم وطرده لي، وإعادتي للعمل بجاهات وتوصيات ممن يعرفه ومن له حظوة من زبائن المقهى. وتألفت مع تلك الصيحات الغاضبة والمازحة والطالبة والسائلة. تألفت مع كل شيء حتى تلك النبزة التي أطلقها عليّ آدم التكروني والتي كنت أتذمر منها وأسعى جاهداً للتخلص منها، أصبحت تمثل شخصية أخرى أعيش بها ولها نمطها وعاداتها التي تألف معها زبائن المقهى، كنت أسير بالمقهى صائحاً:

- وعندك واحد بوري^(٢٢).

(٢٢) في أقصى الجنوب، وتحديدًا في المناطق التهامية المحاذية للحدود اليمنية، يطلقون لفظة بوري على الشيشة، أما في الحجاز فإن لفظة بوري تعني صوت بوق السيارة.

وأعطى لفظة بوري بصوت صارخ، فتخلق لدى رواد المقهى شيئاً من السخرية أو تكون باعثاً للضحك، ونسي الناس نبؤي القديمة وأصبحوا ينادوني بـ (البوري).

اغتنظت من هذه التسمية، وحاولت التخلص منها بتحذيرات وأهمية كنت أطلقها على مسامع من يناديني بالبوري، وكلما تماديت في غضبي تمادوا في تعليقها على مسامعي. وعندما لم أجد مناصاً من الإذعان لهذا المسمى الجديد أصبحت أعجب لمن لا يناديني بتلك النبؤة.

كنت منسجماً مع عملي الذي يبدأ مع الغروب إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، فيشع المكان بالبهجة وتنتال الضحكات صافية ريانة، بينما تجلس مجموعة من الشباب في ركن منعزل من المقهى يديرون أحاديثهم بصمت، وفي أحيان كثيرة يحتد جدلهم وينتهي بإسكات بعضهم بعضاً.

كان قدوري أكثرهم عدوية، فعندما يحذثك تتمنى ألا يوقف حديثه، وكنت أقوم على طلباتهم بنفسي، فأسمع منه كلمات رقيقة مهذبة فأنجذب إليه وأصبح يربطنا ود كبير، وزاد حبه في قلبي حين نقدني مائة ريال لأفك ضيقتي.. ومضت الأيام دون أن يطالب باسترجاعها، سألني ذات مرة:

- هل تقرأ؟

- قليلاً.

- أشعر أنك لم تخلق لهذا العمل.

!!!!

... عليك أن تبحث لك عن فرصة أخرى.

- لا أعرف شيئاً.

- تعلم.

- أنا أدرس في الصباح.

- عظيم... عظيم، وعليك أن تقرأ كثيراً وتفهم ما يدور حولك.

ومنحي عدة كتب كنت ألتمها وأعيدها له، مطالباً بالمزيد.

قال لأصدقائه ذات مرة حين وقفت لتلبية طلباتهم:

- هذا القهوجي أفضل من أناس كثيرين تدب في الأرض ولا تفهم ما يدور حولها.

شعرت بالزهو. لكن رفيقهم حسن لم يمكنني من مد قامتي طويلاً، فقد عقب على مقولة قدوري بإشارة مستخفة من يده:

- هذا؟

- نعم هذا.

لوى حسن فمه باستنكار:

- هذا الذي يمشي صائحاً بوري بوري يفهم؟ أشك في ذلك.

فهز قدوري رأسه وعيناه مثبتتان بوجه حسن الذي أكمل حديثه:

.... أنت تسبغ عليه حلة أكبر من حجمه، هذا إذا قلح يمكن أن يصبح صاحب مقهى.

شعرت باحتقاره يجري في دمي، فتبادلنا نظرات عدائية، لأسمع أبو عزة يتدخل بجملته قصيرة:

- هناك كثيرون أفضل منا فلا تنقص الناس أقدارهم.

فضحك أسعد أبو الليل وضرب كفاً بكف:

- هذه هي الناصرية بواري وأبواق، ألم أقل أنكم تجمعون الأبواق فقط لتعزفوا بها.

عدت لتلبية الطلبات، بينما كنت أرمق قدوري يعنف حسن.
وقبل أن يغادرا القهى دس قدوري في يدي كتاباً وهو يوصيني:

- اقرأه ولا تدع أحداً يراه.

عدت إلى البيت، كان طاهر قد ابتنى لي برندة صغيرة في آخر الحوش، ملائها بمستلزمات متواضعة. فراش وسرير وغطاء وصحارة. وأصبحت هذه البرندة هي المأوى الذي أستكين إليه، عدت ممسكاً بكتاب قدوري ومثلهفاً لقراءته ووصيته ترن بأذني:

- لا تدع أحداً يراه.

كان عنوان الكتاب عريضاً يمتد على ورقة جلدت من الخارج بدقيق وجعت دفني الكتاب بورق مقوى ذائب. قرأت العنوان بتمهل (القومية العربية). وبدأت أقرأ. . كانت كلمات كثيرة تتسرب من مخيلتي دون أن أعي ماهيتها، وظللت أقرأ لعدة أيام، ووجدت نفسي أردد بعض الكلمات مع أصدقاء وأبتهج بما يبتهجون.

قال قدوري لأصدقائه:

- لقد كسبنا قهوجياً قومياً.

وأسر لهم بقراءتي لعدة كتب أعارني إياها، فنهضوا لمصافحتي. وحين عرفوا بحماسي الشديد للكلمات التي كانوا يدسونها في أذان بعضهم زاد تقديري لديهم وإن ظل حسن محتفظاً معي.

كانت عين المعلم معنا، وبعد أن عدت كانت عيناه تعبان

بمخيلتي. أهملته تماماً وتشاغلته بتجهيز الشيش، أشار لي بالاقتراب من مجلسه. تحركت صوبه بتخاذل:

- يبدو أنهم يحبونك.

!!!!!!

- لماذا لا ترد؟

- وأنا أحبهم.

ندت من فمه ابتسامة ساخرة وقال مستفسراً:

- دع الحب جانباً، لماذا يصفاحونك؟

- يعرفون قدري.

كركر بعمق:

- قدرك، وما هو قدرك؟. انتبه! هؤلاء الشباب من أسر غنية وتحميهم أسرهم مهما فعلوا، بينما أبوك لا يقدر على حماية نفسه.

وعندما وجدني صامتاً ردد:

- إقبالهم عليك يجعلني أشك بك.

- تشك في ماذا؟

- أنت تساهل معهم في الحساب ولهذا هم يحبونك.

- قبل قليل قلت إنهم من أسر غنية، أي أنهم ليسوا في حاجة للقروش القليلة التي يقدمونها لك.

لمعت عيناه بمكر:

- نعم لا يمكن أن يجمعكم هذا السبب والأرجح أنك تعمل

على إشباع رغباتهم.

- أنت كالبهيمة لا تفكر إلا بما تحت نواجذك أو ما بين فخذيك .

قذف بالي الملتصق بشفتيه وفز من جلسته وصفعني على صدغي :

- تذكر أنك صبي .

كان هجومي مفاجئاً ، لم يتوقعه البتة . فقد انطلقت غارساً رأسي ببطنه بقوة فسقط على الأرض جاذباً معه الطاولة والشيشة فتناثر الجمر على جسده وظل يستغيث ببقية صبيانهِ ويلعن الساعة التي جعلته يقبل بي أجيراً عنده . تجمع حولنا نزلاء المقهى وأحاطت بي ثلة الشباب وفي مقدمهم قدوري ، بينما ظل صبيان المقهى يسكبون الماء على المعلم لإطفاء تلك الجمرات التي استقرت على جسده ، ولم يستطع المعلم أن يعود للشجار معي واكتفى بأن طالب جميع القهوجية بأن ينفوا على حرقه الملتهية ، وهو يصيح بحنق :

- والله لن أعيدك للعمل معي حتى لو قبلت قدمي . ولن أقبل فيك شفعياً هذه المرة أبداً .

وعندما أحس أنه لم يشف غليله صاح :

- منذ أن رأيتك قلت أنك لا تصلح إلا للمضاجعة .

وصاح بالقهوجية المتجمهرين على رقدته :

- صبوا الماء هنا . لا بل هنا ، صبوا الماء على كل جسمي .

وأخذ يتأوه ويهف بيديه على جروحهِ النابتة . وعندما وجد مرزوق القهوجي معلمه على تلك الحالة أبدى كثيراً من الامتناع والفتعل ، وظل لسانه يذرف الكلمات ويحاول الوصول إليّ ، بينما

وقف في وجهه وجدي وعمر . ولكي لا يفوت على نفسه فرصة إظهار محبة لمعلمه صاح بي :

- أمن أجل مجموعة فاسدة ليس لها إلا الكلام تفعل بمعلمك هذا الفعل ؟

فصحت فيه :

- يابو زبيبة أذنك من فين (٢٣) .

واشدت ملاستنا وأخذنا نتفكك من الأيدي المسكة بنا ، وكل واحد منا بعد خصمه بسحق عظامه ، فوقف قدوري أمام مرزوق وخاطبه بلين محاولاً تهدئته بالتربيت على كتفه فنظر إليه إسماعيل بعين باردة :

- أنت الوحيد الذي استخسرك في هذه المجموعة .

فرد وجدي بزهو :

- وأنت الوحيد الذي لا تفهم ما يدور حولك .

وتبادلا السباب لوقت قصير ، لينهض المعلم من سقطته عاري الصدر بعد أن مزق ثوبه وفانلته وتبلل بالماء وفمه يقذف حمماً من الشنائم اختتمها بقسم غليظ :

- محرم عليكم دخول هذا المقهى .

(٢٣) أبو زبيبة إشارة للعبودية . وأبو زبيبة تطلق على العبيد ذوي البشرة الغامقة ، فيقال فلان أبو زبيبة إشارة إلى أنه عبد ، وإذا أراد شخص أن يضرب مثلاً على فساد عقلية العبد قال :

أذنك من فين ، وهذا المثل دلالة على حكاية لا أعرف بالتحديد مصدرها تنص أن عبداً سئل : أين أذنك فلف يده حول عنقه وأمسك بالأذن البعيدة عن يده ، ويدلّل بهذا المثل على فساد عقلية العبد .

وأمر صبيانه بإخراجنا بالقوة، تدافعونا أمامهم كالقطيع المنفلت
وصباح المعلم يتعالى:

- سأعرف كيف أقتص لنفسي.

كنت حزناً لهذا الموقف، فقد عرضتهم لما يكرهون. وعندما
رأني وجدي واجماً علق يديه بكتفي مهوئاً مصيبي:

- لا تحزن، جهز نفسك في الغد لتعمل بديكان أبي بدلاً من هذه
المهنة التي لا تليق بك.

في صبيحة اليوم التالي كنت أقف بديكان الأفندي، ونسيت
طريق المدرسة، غرقت بين الأعشاب وخلطاني وبدأت أتعلم سر مهنة
العطارة، أظل طوال الوقت أستمع لشكوى الزبائن وتقديم الأعشاب
المناسبة لكل علة بمساعدة رجل هندي يعمل منذ عشر سنوات في
هذه المهنة وقد أوصاه وجدي أن يعلمني كل أسرار هذه المهنة.

في المساء أنضم للشباب بمقهى آخر استبدلناه عوضاً عن المقهى
الذي كنت أعمل به، واجتذبت معي عمر النعمة وصالح مستعجل،
وفيما بعد دعوت حامد لأن يكون معنا.

كان حامد يأتينا لبعض الوقت حين يكون سيده بمكة ويجلس
للحظات مجاوراً خوفه وعجلته، وسرعان ما يغادر المقهى قبل أن يحف
أول الكلام فأصبح محطة تندر لشباب (البشكة)، وأطلق عليه عزيز
لقب (الحمامة). فلم يكن أباه بتلك النبزة، وظل على تحوفه في كل
مرة يأتي للمقهى وعندما علم عزيز بقصة حامد حضنه مخففاً عنه
ومعتزلاً عما سلف من الاستخفاف به وعلق:

- لن يخلصك من عبوديتك إلا شخص مثل أبراهام لنكون.

كان ردي يفتر للكياسة والترث حين صحت بحماسة وبأسئلة
حقاء متلاحقة:

- أين هو لنكون هذا؟ .. تعرفونه؟ .. دعوني أقابله لأرجوه أن
يساعد حامد.

تصاحكوا بصوت صاخب، وتمادى حسن في إظهار اغتباطه
بالاستلقاء على ظهره وقذف قدميه في الهواء وهو يحاول إسكات
ضحكاته، وقبل أن تنضب قهقهاته ردد بكلمات مقطعة:
- هذا هو (الفلتة) الذي تعدنا به يا قدوري، فضحتنا مع
ضيقنا.

تبسم اثنان كان يجلسان بمحاذاة وجدي، وأطلق أحدهم ضحكة
جافة:

- أنتم لا تبتعدون كثيراً عن صاحبكم. تخلطون كل شيء
وتظنون أن لنكون بائع خردوات في الحراج. شعرت بكل العيون
تقتحمني واحتقارها يسيل من أهدابها، وتبرع قدوري لتخفيف
فجيعتهم بما تفوهت به:

- البوري من الطبقة الكادحة ولا يفهم كثيراً من الأمور،
ومصيره يفهم ويعي كيف تسير الأمور. أوقفه الرجل نفسه بإشارة من
يده:

- انتبه بقولك هذا تستعير مصطلحات الشيوعيين، وأنت لا
تعلم أو أنكم تجمعون من تجردونه في الطريق.
عاد حسن لصرامته وردد بانفعال:

- هذا ليس منا.

أحسست بالضآلة، فأنهضني قدوري لخارج المقهى عندما رأى
عيني تموجان بدمعة كبيرة، ومضى يتحدث مخففاً عني ومحاولاً
إخراجي من وجومي الطافح على سحتي:

- الناس تسخر من كل شيء، تريد أي شيء لتسخر منه، ليس عيباً أن تخطئ لكن العيب أن تستمر على هذا الخطأ ولكي تتجنب الأخطاء لا بد أن تتعلم.

كنت أستمع له وأنا أمسك بحسرتي وهواني، وشيء مر يعبر حنجرتي ويصيب كلماتي بالتيس بينما واصل حديثه بثقة:
- العظماء لا تغير طرقهم الألسن المعوجة.

كان يسكب كلمات كثيرة ويحثني على تخطي كل المعوقات التي من شأنها أن تؤخرني عن دوري القومي.

أول سؤال تبادر للذهني بينما كان حامد يسير معنا بصمت:

- من هو أبراهام لنكولن.

- (هذا زعيم أميركي ظهر في القرن الماضي علم نفسه طوال حياته ومارس المحاماة. اعتبر الرق ظلماً وشرّاً وقاوم اتساع نطاقه، ويعتبر محرر عبيد أميركا).

قفز حامد من الخلف:

- وهل سيحررنا؟

ظهر الغيظ على محيا قدوري، وأردف:

- أنتما لن تفهما بسرعة.

ومن أجل هذه الجملة قرأت كثيراً لأفهم، وبدأت أفهم شيئاً فشيئاً، وأسمع ترديد اسم جمال وأتابع خطبه وسياساته من خلال صوت العرب.



كان جدالهم مرتفعاً وقد ارتج على بعضهم ما يحدث على الحدود. كنت أصغره ولم أستمع أن أسفه ما يقولون حتى وإن

أبدت رأياً فلم يكن يعتد به. كنا ثلاثة أشخاص نحضر هذا المجلس ويصفوننا بالناصرين الصغار (عمر النعمة، وصالح مستعجل، وأنا) ولم يكن لرأينا أي قيمة، فقد تركزت الآراء السديدة عن الناصرية عند قدوري ووجدي، فهما على حد زعمهما أكثر تشرباً بالناصرية لقربهما منها حين كانا متواجدين بالقاهرة لإنهاء دراستهما هناك. . فقدوري انضم لفئة الناصريين وتشبع بمبادئهم وأهدافهم، ووجدي كان يكتب في الجرائد المصرية باسم مستعار عن زعامة عبد الناصر وما يحمله للأمة العربية من وحدة قومية تجعل العرب يستعيدون أمجادهم الغابرة. هما فقط صاحبا الرأي الثمين من قبل المجموعة ويعتبر قولهما المحطة الأخيرة لتلك الآراء التي تنسكب من تلك الأفواه المتروية في جلساتها بمقهى اتسعت أطرافه.

فجأة طالب وجدي جميع المجموعة بالالتقاء في منزله بالشرقية. كان الجميع يعرف سبب تلك الدعوة باستثناء الناصريين الصغار. فقد جلسنا نسمع ونسكب دهشتنا مع كل رأي ينطلق في فضاء المكان. كنت حريصاً على الانتباه. فقد اكتشفت أنني أجيد الحفظ أكثر من الفهم، فركزت لأحفظ كل كلمة يتفوهون بها لكي أعود إلى البرنذة وأستعيد مقولاتهم علني أصل إلى شيء يزخرح ظنونهم ويعزز قيمتي عندهم.

اجتمعنا ببيت وجدي بعد صلاة العشاء، كانت وجوه المجتمعين تشي بالقلق والتوتر وكانت كل الأفواه تمضغ الكلمات وتدمغها على أنها الحقيقة التي لا ريب فيها.

كان الاختلاف محتدماً. بينما تناثرت بعض قصاصات الجرائد المصرية على أرضية الغرفة التي نجلس بها.

هدأ وجدي تلك الكلمات المتضاربة ورحب بالمجموعة المتنوعة

والمتباينة ونوه بابتسامة صافية تخالطها غمزات سريعة وقصيرة:

- قد تجدون وجوهاً لأول مرة تشاركنا المجلس؛ فهؤلاء زملاء لنا نختلف معهم في التوجه وطريقة المعالجة ولكن لا بأس من تواجدهم معنا هذه الليلة لنقف على الرأي المعارض. ولكي نفهم بعضنا علينا أن نلتزم بالإصغاء لكل متحدث.

بدأ الحديث رجل بلحية كثة ووجه منبسّط كابتسامته المسترخية بعد أن حرصه وجدي على الكلام:

- لنبدأ بسماع العجيلي فهو يمثل اليمين المعتدل.

اتسعت ابتسامة ذلك الرجل ومص شفّيته وتطلع في الوجوه مبتدئاً حديثه بذكر الله والثناء على رسوله وأخذ صوته يرتفع رويداً:

- لقد جاء الإسلام راسماً كل الخطوط التي يجب علينا كمسلمين اتباعها بينما صاحبكم يمد يده للسوفيات ويريدنا أن نؤمن بمقولته، هذا أولاً. أما الأمر الآخر فإن دعوتكم تحمل طابعاً مناقضاً للدين حيث تجعلون القومية العربية مكان الإسلام وهذا الذي لن يحدث. فلربما تجد هذه الدعوة أرضاً خصبة عند المتحمسين لها والغافلين عن هذا الفصل لكنها لن تجد القبول عند الغالبية العظمى من الشعوب العربية. فمشروع القومية يفترق إلى الديناميكية المحركة لها لكي تحقق وجودها. وأرى أن تحريكها لن يتم إلا بالانكفاء على الدين كمنطلق جوهرى، والأمر الأكثر خطورة أن صاحبكم وضع يده بيد ملحدين وهذا يؤكد ابتعاده عن جوهر الإسلام.

قاطعته وجدي بلباقة معتذراً من الجميع للرد على العجيلي:

أولاً، القومية لم تطرح نفسها كبديل للإسلام وإنما هي دعوة لتوحيد الصف العربي في مواجهة قوى أخرى تسعى إلى تفتيت الصف العربي وجعله أصواتاً متفرقة، وهي بهذا تنادي بحق مشروع مثلها مثل

كثير من الدعوات التي ارتدت لجذورها، وارتدادنا لجذورنا العربية لا يعني بالضرورة النكوص عن العقيدة التي جاءت بلساننا، أما وضع يده بيد السوفيات فليس له دخل بالعقيدة فهذا عائد للتحالفات الدولية ضده، أو نستيم العدوان الثلاثي بسرعة.

فتداخل معه خليل أبو الحدا:

- صاحبكم يفتقر للكياسة وصراخه وعجلته في إظهار أنه الزعيم الأوحيد أدباً إلى العدوان الثلاثي، فقد رغب في تحدي القوى العالمية ذات المصالح الجوهرية في المنطقة وجاء تحديه بشكل سافر حين تم تأمين قناة السويس، وهذا التصرف أضّر بمصالح دول عديدة. وما قامت به الدول الثلاث إنما يمثل رغبة الكبار في ضربه وتأديبه. كما أنه تناسى وقوف كثير من الدول العربية بجانبه إبان ذلك العدوان، حتى أن أميركا وقفت معه. أنسيّت إنذار أميركا؟ وموقف الدول العربية المشرف بالرغم من صراخه الذي كان يستهدفهم مباشرة؟ ونحن الذين أوقفنا تصدير النفط لفرنسا وبريطانيا من أجل خاطر عيونه؟ كل هذه الجمائل قابلها بالشتائم لا يقدم عليها رجل الشارع، فما بالك بسياسي يطرح نفسه رمزاً للوحدة.

رد عزيز بانفعال:

- يبدو أن أبا الحدا ينسى مسببات كل ما حدث ويعلق التحرش بأسباب واهية، إن الغرب - يا عزيزي - لا يريد رجلاً مثل جمال ولذلك حاول قص جناحيه قبل أن يحلق على هاماتهم وصوره في عيون القادة العرب على أنه الموت الذي جاء لينتزع أرواحهم من بروجها.

صاح أبو الحدا محتجاً:

- هذا الكلام المنمق لا يصلح في السياسة وأرى أن تكتب شعراً

خير لك من متابعة أخبار السياسة . السياسة - يا صاحبي - وقائع
وتاريخ ولعبة توازن ومصالح . وقولك هذا قول مراهق يلعب
بالكلمات .

تضرج وجه عزيز بألوان مختلطة وغدا فائراً:

- أنتم الذين تراهنون على الغد بالكلمات وتنسيقها، هل
نسيت... .

تدخل قدوري:

- لم نحضر إلى هنا للمماحكة . جئنا من أجل الوقوف على آخر
الأخبار وما الذي يمكن أن يحدث بدون مزايدات أو الدخول في
هتك بعضنا بهذه الصورة . نريد كلاماً موزوناً .

قال العجيلي: أحسنت... . فلتهدأوا قليلاً، وما دمتم ترون في
صاحبكم موحداً عظيماً فلنعد لنماذج العالم ونطبق ما يفعله صاحبكم
مع تجاربهم . هل أبدأ؟

ودون أن ينتظر من أحد الموافقة واصل حديثه:

- لنأخذ غاندي، هذا العظيم الذي يسعى لتوحيد قاره حافي
القدمين ويجمع القلوب بالحب لا بالتهديدات ونسف الأرض؛
وبسمارك من قبله لم يكن محباً للدم كما هو صاحبكم، ولم يحوج شعبه
من أجل هدف قصير المدى ولم... .

قاطعهم حسن:

- صلاح الدين حارب المسلمين والكفرة في الوقت نفسه من
أجل وحدة الكيان .

قال العجيلي: لا تدخل صلاح الدين فيما نحن فيه، فصاحبكم

لن يصل إلى كعب صلاح الدين، وما قام به تدخل سافر في شؤون
الغير .

فصاح حسن بوجدي:

- ما الذي جعلكم تسمحون لغير الناصريين بالحضور؟

رد قدوري بهدوء:

- يا حسن... . كلنا ننشد الصالح العام ومن نتوسم فيه الخير
نسمع منه، ولا عليك من كلام الإخوة الأعداء فهم سيصبحون عما
قريب في صفنا .

وضحك ضحكة قصيرة بادلها العجيلي بضحكة متسعة وهو
يكركر:

- هذا بعدك .

كان سؤالي يلوب في خيلتي ورغبة حادة لأن أقذفه على
مسامعهم . فلم أكن أطيق البقاء ساكناً بينما الكثيرون يتحدثون . كنت
أريد أن أكسب وجوداً بصوتي... . انطلق سؤالي كسهم منكسر ندم على
خروجه الناصريون العتاة:

- لماذا لا يعلن جمال الوحدة ويتبهي كل شيء؟

كان سؤالاً ساذجاً تلقاه المستمعون ببرود، لكن أبا الخدا مسك
السؤال ضاحكاً ومتهمكماً:

- انظروا كيف تسطحون الأشياء، فقط يعلن الوحدة ويتبهي كل
شيء .

وضرب كفاً بكف:

- أي وحدة تتحدثون عنها ونحن لا نعرف بعضنا بعضاً ونحارب بعضنا بعضاً؟ أي وحدة وصاحبكم قد فشل مع سوريا! فهل تتصورون رجلاً ينادي بالوحدة العربية ويعجز عن تطبيقها بين دولته ودولة أخرى، حتى اليمن التي كانت طرفاً ثالثاً أقدمت على الدخول في هذه الوحدة الهشة حذراً من مقولات صاحبكم. وأتصور أن دخول الإمام أحمد في هذه المعاهدة إنما هو خوف من صراخ صاحبكم المنادي بضرورة التخلص من الحكومات الرجعية. ولأنه يبحث عن صوت يقف معه فقد استند على الجزائر عندما وجد أن سوريا انضمت للعراق في رفضها الاعتراف بزعامته لجناح اليسار العربي. ولأن الجزائر صوت واحد لا يحقق له نفث هيئته يلجأ الآن لليمن ليحقق أوهامه.. واختتم حديثه بتوصية حارة:

- دعوا الأحلام جانباً وتنبهوا! فصاحبكم سيحرقنا.

عقب وجدي بصوت أقرب للانفعال:

- الظرف لم يسمح بقيام الوحدة مع سوريا، وأي تجربة أو فكرة تخرج بأخطائها، كما أن الغرب يعمل بكل أدواته من أجل انهيار أي وحدة عربية وهذا مخطط له من اتفاقية سايكس - بيكو حين توزعوا العالم العربي، وتحمل الاتفاقية ضمنياً ألا تقوم وحدة عربية. وقولك أنه يتكوى على الجزائر أو اليمن فهذا حق من حقوقه، خاصة وأن حلف بغداد أنت تعلم من يقف خلفه.

- ماذا تعني؟

- أنسيت أن حلف بغداد ما هو إلا تنفيذ لرغبات الغرب وفي مقدمتهم بريطانيا وأميركا؟

قال محمد الوافي:

- دع التمحك بالغرب وتحويله إلى شماعة، فصاحبكم استند عليه في قيام ثورته لو أردت الحقيقة. فالملك فاروق عندما أصبح ورقة محروقة التفتوا فوجدوا في صاحبكم جنون السلطة ووضعوا نجيب في المقدمة فقط كتكتيك، لكن جنون السلطة قاده إلى مزالق كبيرة أهمها مناداته بالوحدة وهو غير قادر على تمثل الواقع. وأول الدروس الفاشلة التي ألقاها أنه لم يفلح مع دولة واحدة فكيف يريد أن يطبق الوحدة مع بقية العرب.

فر عزيز من صمته غاضباً:

- أمثالكم من لا يقدر شيئاً، كل ما يفعله الرجل تتحدث عنه بهذه البساطة.

رد أسعد أبو الليل:

- وأمثالكم يطلبون للهواء العابر ويعدونهم مقبرة عظيمة.

وعقب العجيلي:

- بدل أن يرسل جنوده لليمن يرسلها لإسرائيل، وسيجد كل العرب معه بدون أن يحتاج لكل هذه الشعارات.

اغناظ وجدي:

- هذا كلام ساذج وغياب عمّا يحاك في الخفاء.

وتدخل حسن بعشوائية صائحاً:

- وهل يجارب بمفرده، لا بد أن يوحد العالم العربي ثم يجارب.

قال أبو عيشة:

- لا أعرف من منكم قال إن صلاح الدين كان يجارب الكفرة

والمسلمين في الوقت نفسه، فلماذا لا يفعلها صاحبكم أم أنه يخاف على زعامته من السقوط.

رد وجدي:

- وهو ما يفعله الآن.

تنحى النويري:

- لو سمحتم أريد أن أقول رأيي في صاحبكم.

صفاق قدوري بحدة:

- الرجل الأحرى يريد أن يتحدث سيعيدنا لعصب الاقتصاد.

ضحك النويري وهو يتمتم:

- نعم فالاقتصاد سيد الأشياء ولا أتصور دولة فقيرة مهما كان زعيمها فلذا قادراً على تحريك وتفعيل بقية العناصر لصالحه، ولا أخفيكم أن ظهوره كان مفرحاً لنا لكنه سرعان ما خيب الآمال. وأرى أن انحيازه للكتلة الشرقية ليس قناعة بمبادئها ولكن لظرفه السياسي، ودليل على تخبطه اندماجه بتكتل ثالث هو دول عدم الانحياز. وهذا دليل آخر أن الرجل يسعى لأهداف ليست منهجية وإنما قفزات خيال. والدليل الآن ما يحدث في اليمن، فقد سمعنا مساندته لثورة اليمن وتكبيد بلاده خسائر لا طاقة لها بتحملها.

وأمن العجيلي قائلاً:

- بالرغم من الاختلاف الحاد والجوهري مع المبادئ التي يعتنقها النويري لكنني أضرم صوتي معه، فكيف لدولة مضعضة أن تقف موقفاً عدائياً من جميع الدول سواء الغربية أو العربية وتستند على دولة فقيرة أيضاً.

قال حسن: أي دولة تقصد.

- هل نظن أن السوفيات دولة غنية، هي أفقر من حلفائها.

صاح النويري بالعجيلي: أختلف معك جذرياً فالسوفيات دولة عظمى.

- عظمى أو عظيمة فهي لا تقدر على حماية مناصريها، ومن يحاول الخروج عليها تدق عنقه. ألم تسمع بموقفها مع حلفائها من دول أوروبا الشرقية.

اشتط النويري غضباً:

- أنتم تمثلون التخلف، تريدون القفز من تخلف إلى تخلف آخر بصورة يحاول إفهامكم أنها تمثل التقدمية.

وقبل أن يواصل رده رجاهم وجدي بلباقة للعودة للحديث الرئيسي:

- تذكروا أننا جئنا لتقييم الوضع الراهن وليس لفتح دفتر الحسابات. السؤال: هل من الممكن أن تقوم حرب على حدودنا؟

تبرع قدوري بالإجابة الأولى:

- لا.. هو أعقل من هذا.

فرد أبو عيشة:

- لا.. صاحبكم أهورج. ومن الممكن أن يفعلها وستجد أنفسنا محترقين بمقولاته؟

والقى العجيلي قبلته:

- لو فعلها كيف سيكون موقفكم أنتم؟

فصمت الجميع، وتناسلوا بالخروج.

خرجنا أنا وقدوري وعزيز وحسن ونحن نتلفت خوفاً، وتفرقت بنا الطرق دون أن يودع أحدنا الآخر.

كانت أصواتهم تتعالى في مخيلتي وبقلبي حريق، ماذا لو قامت الحرب هناك؟ يا الله.. سيحطم كل أحلامي. فأنا على وشك أن أعود، أريد أن أرى قرיתי كما تركتها، علي أن أرحل، فلم أعد صغيراً. أستطيع أن أندبر أمري، وأستطيع أيضاً أن أستثمر الأموال التي جمعتها. أوه.. هل أستطيع أن أغادر عيني حياة!

كانت الأخبار التي تصلنا تنبئ بانفجار الحرب.

وقفت أمام قدوري أستشيريه فأشار عليّ بالعودة وحمل أسرتي لجلدة وردد:

- التحليلات والواقع يفضيان بقيام الحرب عن قريب.

وقفت أمام طاهر:

- أريد نقودي.

- أي نقود؟

- التي أجمعتها عندك.

- وماذا تريد أن تصنع بها؟

- نويت العودة لأمي.

قال طاهر بثقة:

- لا يمكن أن تعود.

- لماذا؟

- ألا تسمع ما يحدث على الحدود.

- ما الذي يحدث؟

- لقد انفجرت الحرب.

خاتلني طاهر وغادر جدة.

استدنت مبلغاً من الأصدقاء، واستأذنت الأفندي في الرحيل وعدت. كانت السيارة تمتاز في سيرها المتكاسل ومحركها يئنز برتابة وذاكرتي تسبقني بالالتقاء بالأحبة. وحسرة مرة تجري بالبال. كل شيء هناك ألمح يقترب من أهدي: قرיתי وحقولها المتعبية ووجه أمي وشغب إخوتي وغنمتي الوحيدة، وفرحة الأعياد، وغناء الجمالة والمجلاّب وسوق الحوالة. كل شيء ألمح يدنو. لم أكن فرحاً بالعودة كما كنت أتوقع، فقد قتل تلك الفرحة خوف تمدد بين الضلوع، وحسرة أن أعود فارغ اليدين، والتياغي لعيني حياة وفزع الحرب التي تنامت على الحدود.

طوال الطريق كانت وصيتها القديمة تتفافز:

- ستعود وأنت تدفع أمامك قوافل الذهب.

الطريق طويل.. وأنا أجلس في مقعدي أمش أمامي سرباً من خوف شرس ينشق بالبال:

- لن نجد أحداً يستقبلك.

تنقلت الأجساد كنمل نشط بين العشش المتقاربة، وثمة حكاية جديدة تشعل مساءهم بالحديث والاستماع. قلة منهم كان يمتلك الحقيقة ويقدر ما حدث، أما البقية فقد تناقلوا الخبر كحكاية يبدأ بها

المساء جولته على تلك الأجساد المهلهلة. كان الكثير منهم لا يأبهون بما حدث ولا يعني لهم شيئاً سوى خلق جو جديد من الإثارة:

صوت ١: قامت ثورة في اليمن.

صوت ٢: وما هي الثورة؟

صوت ٣: سمعنا إن السلال قتل الإمام أحمد.

صوت ٤: الإمام أحمد مصوب من العام الفائت.

صوت ٣: يقولون قتله وهو مريض.

صوت ١: لا لا.. الإمام أحمد مات مائة ربه.

صوت ٣: لا والله يقولون قتله وهو على الفراش.

صوت ٥: يا غارة الله عليه ماذا فعل به؟

صوت ١: يريد جمهورية.

صوت ٦: وما هي الجمهورية؟

صوت ١: يعني تتجمهر.

صوت ٧: وماذا يعني تتجمهر؟

صوت ١: لا أدري.

صوت ٨: خلاص قتلوا الإمام أحمد وابنه.

صوت ١: يا جماعة الخير، الإمام أحمد مات مائة ربي، ونادوا بالبدر إماماً وسمعت خطبته في الراديو، سمعته يقول إنه سيجعل اليمن سويسرا الشرق وانقلبوا عليه قبل ما يتم ثمانية أيام في حكمه، وسمعت من بعض الهاريين أن واحداً اسمه حسين العسكري أطلق النار على البدر.

وقفز صوت ضئيل من آخر المجموعة:

- يقولون البدر مات وعاد عمه الحسن لليمن ليكون إماماً.

رد عليه من جاء بالخير: لا لا، البدر هرب علينا فحسين العسكري عندما أطلق النار على البدر تعطل زناد البندقية وتم القبض عليه، لكن العقيد عبد الله السلال اغتتم الفرصة ونادى بالجمهورية.

صوت ١٢: يقولون إن المذبر للثورة ضابط اسمه عبد الغني قتل أثناء المقاومة من رجال الإمامية.

صوت ١١: من قال لكم كل هذا الكلام.

صوت ١: راديو صوت العرب وبعض الهاريين من رجال الإمام.

صوت ٣: والبدر صحيح قتلوه.

صوت ١: أقول لك هرب علينا تقول قتلوه.

صوت ٤: ولد الإمام يهرب.

صوت ٣: مسكين، بعد الملك يصبح هارباً.

تأوه نفس الصوت بحرقة:

- ما دام مات أحمد وجنائه^(٢٤)، فلا بد أن شياطين الإنس قد تفلتوا.

صوت ١: ليتهم يتفلتون من كل مكان ويربحونا مما نحن فيه.

كان من يمتلك جهاز راديو يديره على إذاعة اليمن فتتصاعد

(٢٤) كان يطلق على الإمام أحمد حميد الدين إمام اليمن أيام المملكة المتوكلية لقب أحمد واجتهاد إشارة لارتباطه بالجن وتسخيرهم لخدمته والدفاع عنه، خاصة بعد عدة محاولات لاغتياله دون أن تنجح تلك المحاولات. ويبدو أن ما قاله هذا الصوت هو اجترار لقصة سيدنا سليمان مع الجن.

الأناشيد الوطنية، وبين حين وآخر ترتفع خطابات حماسية تتناثر بها الكلمات فتصفق لها أكف نشوى لا تعرف سوى التصفيق، وتتمایل مع محمد مرشد ناجي وهو يتغنى:

يا طير يا رمادي بكر غبش ينادي
أنا فدى السلال وأنا فدى بلادى

فجأة تحولت قريتنا إلى مجموعات كبيرة من مناصري الإمام. كان تعاملنا معهم حذراً، فبعد أن أبدوا كثيراً من الامتناع من عيوننا المبلقلة بهم بدهشة واستغراب، بدأنا نشعر أن الغد سيكون أكثر رهقاً. كان الجو خفيفاً وتناقل الناس أخباراً وحكايات مرعبة.

يقولون:

- ستقوم الحرب.

- حرب من مع من؟

- جمال أرسل جنوداً يحاربوننا.

- ويحاربوننا لماذا، هل نحن كفار؟

صوت آخر:

- أليس هو الذي يقول إنه سيحرر القدس؟

صوت ساخر:

- كنه يحسب القدس هنا.

- والله يقولون إنه أرسل جيوشاً ودبابات وطائرات لليمن ليحاربنا.

- الله.

- يا غارة الله عليه، ماذا عملنا له؟

- يقولون يريد البدر.

- وماذا يريد من البدر؟

- يريد تسليمه للسلال.

- وأين رجال صعدة، ألم يدافعوا عن إمامهم؟

- تفرقوا، نصف مع الجمهورية ونصف معه.

- صحيح في حرب.

- نسلم إنه في حرب.

- تقول ما ينقصنا إلا الحرب، فقد أكل الجوع كل شيء ولم يعد باقياً علينا إلا الحرب.

- دع هذا الكلام وتدبر أمرك.

اجتمعت كل القرية في فناء المسجد. كان الخطيب إسماعيل مرتبكاً وكأنه يقف لأول مرة على المنبر، وأوصى المجتمعين بالصبر والاحتساب. كانت الأسئلة متلاحقة وهو لا يعرف بماذا يجيب، وسرعان ما تحولت الاستفسارات إلى رعب وتواصت القرية بالهرب.

[جزء مما رواه عبد الله عمر ليحيى الغريب عند عودته]



أعلنت الحرب

هكذا فجأة وجدنا أنفسنا في وضع جديد، وغادرت القرية أعشاشها بعد أن قدم حسن موسى من نجران. كانت حكاياته كفيلاً يجعلنا جميعاً نفكر بالهرب.

فقد تناقل الناس حكاياته، وتعددت تلك الحكايات، وتقول
أهل القرية كل واحد يروي ما عنده:

عبدہ ابراهيم:

فين تهرب، المصارية معهم مناظير يرونك وأنت داخل عشتك
ولو كنت في ليل أحلك.

يحيى صمدي رداً على سؤال أطلقه أحد الفلاحين: ما هي
الدبابات والقنابل؟

- الدبابات صفيح صلب لها أيادي تمسك بمن يهرب، والقنابل
مثل الحبوب يرمونها من الطائرات تحرب البلد كلها.

للي عبيدة تروي عن زوجها في مجلس ضم كثيراً من النساء:

- احضروا جنوداً كأنهم العماليق يسقطون من الطيارة على
الأرض بواسطة شرسف دون أن يصاب أحد منهم بأذى.

وقال عمر أبو الكرايب: كانت الطائرات في نجران تخلق على
ارتفاع منخفض وترمي كميات كبيرة من الحلوى، وعندما يخرج الناس
لالتقاطها تمطرهم بقنابل ترك أجسادهم متناثرة..

وروت حفصة: البارحة جاء محمد ولدي يلوك حلاوى فأصابني
الجنون. سألته من فين لك تالحلاوى. فقال لقيتها. وخفت تكون
مسممة وجلست أنغره حتى طلع كل ما في بطنه، وكل لحظة أحس
جسمه كنت خائفة يموت. أصل المصارية يرمون حلاوى من طائراتهم
يقول جنودنا إنها... إنها حلاوى مسممة. وزاد من رعيننا تلك
الحكايات التي رواها على مسامعنا حسن موسى العائد من نجران:

(في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً عاودت الطائرات المصرية

الغارة الجديدة على نجران، وألقت قنابل مضيئة فوق البلد حتى أننا
نرى الشوارع والبيوت والأشخاص كما لو كنا في منتصف النهار ثم
أمطرت البلد وإبلاً من القنابل والصواريخ، وكانت مهمة المقاومات
الأرضية تتركز في إطفاء القنابل المضيئة وذلك عن طريق إطلاق
القذائف عليها لتمزيقها وإسقاطها حتى لا تهتدي الطائرات المغيرة ليلاً
على أهدافها، وفعلًا نجحت المقاومات الأرضية في القضاء عليها،
وفي أثناء الغارة شعر الناس بهلع شديد وخاصة أنها الأولى من نوعها
إذ لم يسبق أن جاءت غارة جوية في الليل ولأول مرة نعرف القنابل
المضيئة.

وكان مدير الشرطة يجري في الشوارع ويمطم المصاييح والقناديل
المعلقة في الشوارع والأسواق لكي لا تهتدي الطائرات إلى البلد عن
طريق هذه المصاييح، وكان يحمل في جيبه مجموعة من عروق البصل
ليسعف بها المصابين من الغازات السامة.

وقررت مجموعة منا أن تغادر البلد حيث لم يعد مكاناً آمناً ولا
بد من الخروج إلى خارج البلد حيث تتوفر كهوف بمثابة ملاجئ
فأخذنا أولادنا ومواد تموينية وقضينا ليلتنا بداخل تلك الكهوف.

وقد هجر معظم السكان البلد ولجأوا إلى سفوح الجبال بحثاً عن
ملاجئ إذ كنا نتوقع مزيداً من الغارات، ومع إشرقة الصباح كانت
عيوننا معلقة في السماء مترقبين غارة جوية^(٢٥). وفي هذا الجو عدت
إلى قريتي لأهل أولادي لمكان آخر أكثر أماناً.

(٢٥) في هذا الفصل استفدت من مذكرات شاهد عيان كان بنجران تم تحويل
اسمه وإدخاله كأحد شخصية الرواية، وقد احتفظت بصفتين من
المذكرات، وعند كتابة هذا العمل لم أستطع تذكر المؤلف أو الكتاب.

- وأين عبد الله مبروك؟

- حاولت أن أصحبه معي لكنه تسلق مقبرة ونزل في أحد القبور، وقال لو جاءت منيتي فهذا قبري، ويبدو أنه من شدة الرعب مات في مكانه، ففي صباح الغارة عاد بعضنا لداخل المدينة فوجده ميتاً في مكانه، وقد تبقت يده خارج القبر بعد أن امتلأ القبر بالتراب، ويبدو أنه مات قبل أن يدفن نفسه.

ارتفع صوت زوجة عبد الله مبروك عالياً، فنهروا الإمام إسماعيل صائحاً:

- وفري صراخك يبدو أن الموتى سيكونون كثراً.

والتفت إلى حسن موسى متسائلاً:

- إلى أين ستجبه؟

- إلى جيزان فهي أكثر أماناً، ونحن هنا قرييون منهم.

وانطلقت مقولته بين أهالي القرية فحمل كل منهم أبناءه وانطلقوا هاربين باتجاه جيزان.

[جزء مما رواه علي بن أحمد ليحيى الغريب عند عودته]

حالة الحرب التي اجتاحت القرية كانت كفيلة بجعل الناس يسكرون وعيونهم زائغة وقلوبهم واجفة لا يستقرون على أمر، يتحركون وألستهم تهذي بكلمات لا يعرفونها وإن بقي سؤال مذعور غارق بينهم يتبادلونه بقلق:

- ماذا نصنع؟

حالة جديدة وفريدة أقلقت مرقدتهم فهرب التوم من الأهداب

وركض الخوف في الأفئدة. وأطل شبح الموت من خلف الوادي، ووقف الجيش على الحدود.

مجموعة كبيرة من الناس تجمعت من كل حذب وصوب يرتدون الملابس الزيتية المبرطقة ويحتزمون بأسلحتهم، بينما ظلت عيونهم مبحلة في الفراغ.

كنت أخرج في الصباح وأدور بينهم أسألهم عن أهل الحجاز، وقفت أمام الكثيرين ووقف معي سؤال واحد:

- هل أنتم يحيى؟

فيسألون معي:

- من يحيى؟

- يحيى ابني.

- ماذا به؟

- خرج منذ سنوات ولم يعد هل رأيتموه؟

فتنتزه ضحكاتهم على وجوههم، وتتبعني سخريتهم، وكلما رأوني أقف بسؤالي بينهم تصايخوا:

- ابني يحيى.

ظنوا بي الجنون، يتركونني أهذي على مسامعهم طويلاً، ويتبرع بعضهم بحبك الحكايات عن يحيى. كنت ألح غمزاتهم المستخفة وهم يروون حكاياتهم الوهمية، أظن أنني كنت وسيلة تسلية جيدة لهؤلاء العسكر.

عسكري طويل وله شارب كث:

- رأيت يحيى في مدينة الطائف وقال لي سلم لي على أمي.

عسكري مربوع ابيض شعره قبل الأوان:

- يحيى صديقي وقد تزوج وأنجب طفلين سمى أحدهما على اسمي.

عسكري قمحي اللون استقر شج غائر بوجته:

- يحيى يسكن بجواري وقد أوصاني أن أسلم عليك.

عسكري نخاصمت عيناه وظل فمه يوزن احوالهما بابتسامة ثابتة:

- يحيى أصبح بائعاً للغنم ويوصيك أن ترسلي له كل الغنم الموجود بالقرية.

حكايات كثيرة نشرها على مسامعي، وفي كل حكاية أعيش للحظات وأكتشف أن السنتهم ابتعدت عن باب الحقيقة، فأعود لسؤالي:

- هل رأيتم ابني يحيى؟

بعضهم يصفه. وعندما أستنكر أوصافه بعيد وصفه كما وصفه لساني. بعضهم يقول إنه رآه ويظالني بالبشارة.. حكايات كثيرة كنت أسمعها وأسعد بها وقبل أن أتم فرحتي أكتشف أن من أخبرني كان يكذب.

فتر لساني من ترديد اسمه بين العسكر ولم أياس في أن أجده على أحد الألسن.

في إحدى المرات خرجت أسأل عنه بصحبة حسينة. وقفنا أمام

رجل «شرقي»^(٢٦) تجاوز الأربعين أو وقف عليها، كان يزم عينيه ويفحص وجه حسينة باشتهاه:

- هذه ابنتك؟

- نعم.

أحسست بعينيهِ الدوديتين تنخران جسد حسينة الغض، وقد ظهر كنفها الأيسر من خلال كرتة فاطمة الحمراء:

- أنا أستطيع أن أوصلك لابنك فأنا أعرف مكانه.

لم أصدق. لكنه كان بارعاً في حيك حكاية جعلتني أتعلق بكلماته ووعوده ويبدو أنه حيك حكاياته من تلك الحكايات التي كنت أهذي بها للجنود. أصبحت أسيرة كذبه. يوماً أتته وأقدم له الهدايا كي يكمل سيرة يحيى التي يعرفها، فكان يماطل كثيراً، واشترط أن يتزوج بحسينة لكي يوصلنا ليحيى. منحته «وجهي»^(٢٧) أن أزوجه بحسينة إن أوصلني لابني، لكنه طلب الدخول بها قبل أن يوصلني للغالي فتركته وعدت للبيت ونار حامية تجري في عروقي.

وعندما علم جبريل بخروجي ووقوفني بين العسكر اشتط غضباً وأقسم أن يقطع قديمي لو خرجت مرة أخرى.

والتزمت بيتي، وإن كنت أثوق لكذبة أخرى أسمعها عن يحيى.



(٢٦) في منطقة جيزان يقال لمن يأتي من نجد شرقي.

(٢٧) لك وجهي جملة تسم دون الإتيان بقسم صريح، فالقاتل يكتبني بقوله: لك وجهي ويمر سباته من مفرق الرأس إلى الذقن بخط مستقيم، وعمل ما أظن أن لها جذراً أسطورياً كقبة مثل كثير من باقي الأفعال التي تمارس بالمنطقة.

أيام قلائل وارثك كل شيء، فأخبار الحرب لم تعد أخباراً
وتحولت قريتنا إلى موجات من الذعر كان خلالها الكل يسأل:

- ماذا نصنع؟

لم تكن هناك إجابة شافية، كلمات إسماعيل إمام المسجد كانت
مبعثرة، وفي أحيان كثيرة حائرة، لم يحرص على تجويدها كما كان
يفعل في خطب الجمعة والأعياد، وعندما أعياء ترديد جمل الصبر
نفرت من بين شفثيه جملة حارقة:

- عليكم بالهرب.

فضح المسجد باللغظ، وصمت صمتاً ثقيلاً ظننا أنه يهم بالهرب
من حينه، ولكي لا يحدث ما توسوس به نفسه ثبت قدميه في الأرض
غارزاً عصاه الطويلة التي يتوكأ عليها بين حرائج المنبر وأطلق صوته
التردد للإسكات المجتمعين بتذكيرهم بالابتلاء، وقبل أن يتمادى في
خطبته يعود إليه ارتبائه وتشتته كلما سمع ذلك السؤال الغامض:

- ماذا نصنع؟

تركة المجتمعون معلقاً بعصاه وانجهوا صوب شيخ القرية، وزاد
قلقهم حين علموا بسفره لجيزان. وقف ابنه الكبير مرحباً بهم فأنبرى
له علي بن أحمد:

- لم تأت لتضيفنا. أين أبوك؟

ارتبك ابن الشيخ وأجاب بعسر:

- تم استدعاؤه إلى هناك.

- استدعاؤه... أم هرب وتركنا للموت.

- يا عم علي نحن جميعاً هنا، فعيب عليك هذا القول.
قفز عبد الله عمر من أول الصفوف المجتمعة متفاعلاً:
- ذهب ليجهز لكم المأوى.

وصاح بالتجمهرين:

- صدق إسماعيل اهربوا لجيزان قبل أن يأكلكم الرصاص.

⊗ ⊗ ⊗

- رأيت ابن عمك حمد.

فززت كالملدوغة ولم أصدق أذنّي وفاطمة تروي لي تلك
الواقعة:

من الجهة الضيقة التي تقود إلى جبال الطوافرة حير محملة ومن
خلفها كان حمد يمتطي بغلة متعافية ويسوق أمامه تلك الحمير. كان
يلف على رأسه شالاً ناصع البياض، ولم يكن مستقراً على دابته
فالتفاتاته مسترئية، انحرف بحميره شرقاً صوب حقول العريني، وحين
رأته صحت به فرحة:

- حمد.

فأحكم شاله على وجهه ونهري بصوت حاول تغييره:

- من حمد؟

- ماذا بك ألم تعرفني أنا فاطمة ابنة الغريب؟

- وماذا يعني لي اسمك حتى تذكرته؟

- ألم تعرفني؟

- ومن تكونين؟

- قلت لك أنا فاطمة ابنة الغريب.

- أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

- حمد كف عن مزاحك.

- تأدبي يا بنت أنا لست من تقصدين.

ودفع حميره أمامه بعجل. كانت الحمير تسير بثقل تحت أكياس نفرت منها رؤوس مدببة كأنها خناجر مسنونة.

صحت بها:

- هل أنت متأكدة مما تقولين؟

- والله كما أقول لك وقد تركت خطيبتك الناحية وجئت لأخبرك.

لم أنتظر، خرجت صوب الناحية التي أخبرني بها فاطمة، وسرت طويلاً ويقين غائر في ذاكرتي أنني سأجد عنده خبراً عن يحيى.

كان العسكر يتجمعون حول حمير خرطت أكياسها وفتحت عن بنادق متعددة الأحجام بينما وقف بينهم حمد مكتوف اليدين، وعندما حاولت الاقتراب عن كثب نهري بعض العسكر فتراجعت على كره، وصحت:

- حمد.. أين يحيى؟

كان صوتي واهناً، وظللت أنظر لما يحدث بعجب، وعلى عجل تحرك صوبي ذلك الرجل الشرقي الذي خطب حسينة وجذبني من يدي مبتعداً بي عن المكان:

- ما الذي جاء بك؟

- جئت لرؤية حمد.

- من حمد؟

- هذا الذي بينكم.

- عليك بمغادرة هذا المكان في الحال فليس ليحيى مكان هنا.

- ولكن!

- قلت لك ابتعدي من هنا قبل أن تصابي بأذى.

- ما الذي يحدث؟

قال بعجل:

- تم القبض على مهرب سلاح وإياك أن تدعي معرفتك به.

وعاد حثيثاً لمكانه وهو يوصيني بالابتعاد.



- الحرب قادمة ولا بد من الرحيل.

قال جبريل جلسته تلك وجلس شارداً.

- جميعنا.

- نعم.

- وأرضنا وبيوتنا نتركها لمن؟

- وهل تحتاج الجثث لبيوت تظللها؟

كان وجهه ضامراً منطلقاً، وعيناه شاردتين وأسنانه تقضم شفثيه الرقيقتين، وشيء ما يجري في دمائه بخبث، قلت جملتي بارتعاش ورعب من المجهول:

- إلى أين يمكن أن نمضي، ولماذا؟

- ليس لنا خيار سوى الرحيل.

- ولو عاد يحيى.

شعرت بضيقه الطافح من خلال عينيه وقمه الذي كان يدفع الكلمات دفعا:

- الآن لم يعد هناك أي تفكير. يجب أن نخرج.

- ويحيى؟

حتى لو فكر يحيى بالعودة فلن يعود في مثل هذه الأيام وكل الخير أن نستعجل بالخروج.

- تلقي بنا في مدينة كبيرة لا نعرف بها أحداً. لنبق هنا ونحتكم بأمر الله.

- هنا بأمر الله وهناك بأمر الله لكن هناك أكثر أماناً.

- هنا نحن في بيوتنا وهناك أين سنبقى؟

- سنزل عند غيلان أخي زوجتي.

- غيلان.. أعرف زوجته لها نفس مرة وهي لا تقبل بزوجه وأولادها معها فكيف تستقبلنا ونحن بهذه الكثرة؟

- لا أظنها كما تصفين، وعلى أية حال سمعت أن هناك مضيقة كبيرة في صيبا وجيزان لمن لا يجد مكاناً.

- لكن!

- كفي مجادلة ألا ترين القرية خاوية؟ أم تودين البقاء بجوار الأشجار الواقعة؟

وكم أنى مهمة عصيبة وقف على باب العشة موصياً:

- لا تأخذي أي شيء معك.

- يا غارة الله يا جبريل أخرج بطولي.

مضى وهو يردد:

- بعد قليل سنرحل فتهمي.

طريق طويل، ومجموعة من الدواب تحب بالفلاة. شيء ما كان يركض معنا، تكتشفه من عيون الهاربين. فالعيون تدلت من المحاجر وتختطف الطرقات خطفاً وإذا استرخت علقت ضوءها بالفضاء. والأعناق تدور في الاتجاهات، والقلوب تتحقق برعبيها والألسن تلهج بالدعوات أن يسلمنا الله من كل مكروه.

وفي منتصف الطريق وجدنا أنفسنا في حوض إحدى سيارات الجيش التي أفلتنا وخففت عنا عناء ترحال شاق ومتعب.

من بعيد ظهرت مدينة جيزان. كانت مدينة متحفزة لم تظن أنها ستصبح على صوت الطائرات وهي تقصف هدوءها وتشعل الخوف في قلوب أهلها ليخرجوا للدنيا بحثاً عن مأمن آخر.



مشهد أول:

المكان: المنحرجات والسهول المؤدية لمدينة جيزان.

انصب الناس من كل الجهات، من القرى والبرور والجزر القريبة والأودية السحيقة وقصدوا جيزان، ليتبضعوا ويخزنوا مؤناً احتياطية لأيام قادمة لا يدرون إلى متى تمتد، يلتقون كمجموعات النمل في المنحدرات أو السهول وفي الطرقات يلتقون بسرعة متناهية ويتبادلون سؤالاً واحداً:

- متى تقوم الحرب؟

ولا ينتظرون الإجابة. يتشعبون في طرقاتهم، عائدون من جيزان أو ذاهبون إليها ويتواصلون:

- أيام الحرب ستكون طويلة وعليك بتخزين كل ما تستطيع من مؤن.

مشهد ثان:

المكان: مدينة جيزان.

الوقت: ضحى رطب من يوم الجمعة.

في الميدان تثار الباعة حول بضائعهم وتزاحم المشترون حول تلك البضائع. أكياس حبوب ودقيق وقول وتنكات ملئت بزيت السمسم والسمن والغاز. وكثر اللغط عن أجواء الحرب وهم يتزاحمون على تلك البضائع القليلة.

صوت ١: أريد كيساً من الدقيق.

صوت ٢: سوف أشتري كل ما لديك من حبوب.

بائع الحبوب الثاني: أعرف نيتك ولن أبيعك.

صوت ٣: أريد دقيقاً وسمناً وقازاً وكبريتاً.

صوت ٤: يا ناس خافوا الله ابقوا شيئاً للمساكين.

صوت ٢: كلنا مساكين.

بائع الحبوب الثالث:

- لم يعد سعر الحبوب كما كان. فمن يريد الشراء بالسعر الجديد فليتقدم.

صوت ٥: ألا يكفي الخوف الذي نحن فيه حتى تأتي أنت لتضيق علينا؟

بائع الحبوب الأول: من أراد الشراء بهذا السعر فليتقدم.

صوت ٦: وما هو السعر الجديد؟

بائع الحبوب الأول: الكيلة بعشرة ريالاً.

صوت ٤: دقيقك مليء بالسوس وتشرط.

بائع الحبوب الأول: غداً ستبحث عن هذا السوس.

صوت ٧: أو لم تسمع بقول الله ﴿ويل للمطففين﴾.

بائع الحبوب الأول: أو لم تسمع أنت بتذير الحرب؟

صوت ٨: في هذه الحالة سنأخذ ما نحتاج إليه بالقوة.

صوت جماعي: نعم نأخذ بالقوة.

صوت الباعة: تراصوا وسأخذ كل منكم نصيبه.

هرج ومرج وتزاحم وتدافع ودهس وصياح وتنف من البضائع تتخطفها الأيدي وشتائم تنتهي قبل أن تصل لتلك الأقدام المتراكضة بما تحمل.

مشهد ثالث:

المكان نفسه.

بعد الضحى.

تقوم المتبضعون حول الباعة وهم يتصارخون طلباً لحاجياتهم، وقد ذهبت معظم البضائع للقادرين وتبقى الكثيرون يبحثون عن شيء

من تلك البضائع التي تقاسمها القلة وابتلعتهم الدروب المتفرعة. من أول الميدان يظهر عبده حسن حاملاً بندقيته القديمة وعابراً السوق بخيلاء بينما كانت الألسن تتابعه بالأسئلة:

- هه! ما هي الأخبار؟

استأنس بالخفاوة التي حظي بها، فانطلق لسانه يذرف الكلمات بدون هدى:

- اطمئنوا.

صوت ١: كيف نطمئن والجيوش على الحدود.

عبده حسن: وهل تحملهم على ظهره!

صوت ١: هذا يعني أن الحرب قادمة.

عبده حسن (باستعلاء): ستظل الحال كما هي عليه.

صوت ٢: يقولون المصارية عندهم قتابل.

أصوات مجتمعة تصيح بفرع: قتابل.

صوت ٣: لو رمونا أين نهرب، فالقنابل تصل لآخر الدنيا.

ينزل عبده حسن بندقيته من على عاتقه ويغرز كعبها بجوار قدميه ذات الحذائين المهرئين:

- تقول الإذاعات إنه لن يقدر على شيء.

رفع غيلان صوته في أثره:

- تسألون هذا الأهل، وما يدريه؟

نظر إليه عبده حسن شزراً واندفع نحوه غاضباً:

- سأعلمك كيف تحترم أسياذك.

وهوى بكعب بندقيته على صدر غيلان الذي سقط يثن ليتجمهر

حولهما المشترون حاجزين عبده حسن عن مواصلة دق عظام غريمه.
كان صوت غيلان يرتفع متوجعاً والشتائم تتقاذف من بين شذقيه:

- وهل أخبرتك زوجتك أو أمك بأنه لن يقدر!

فاشتط منه واستغل قرب قدميه الممددتين على الأرض وهرسهما بحذائه المهرئ.



بيت غيلان يضحج بالأطفال.

كان نزولنا عليه مدعاة للتعب لنا وله، فقد حشرنا بداخل عشة واحدة، وظللنا نتبادل هواء رثاً وتنقسم الأرغفة كما تنقسمها الطيور الجوارح وتبادل النظرات الصامتة بارتياح، نظرات سريعة مبسرة تغض الطرف وتعود لأعماقها توسوس بتذمرها، وفي أحيان كثيرة بانكسارها، بينما ظلت أنفاس أمنة الضيقة تحرقنا. فقد أبدت تضجرتها علانية. بادلت زوجها السباب ووصمته بالمغل. كان يحاول إسكاتنا وفحيحها يتعالى:

- في زمن يتبرأ المرء من أخيه يتبلىنا بهذه الكومة من الأجساد.

- يا مرا خافي الله.

- من أين نجلب لهم ما يسد بطونهم.

- الله كريم.

- من يسمعك يظن بأنك مضيف. أنسيت...

- يا مرا لا تخزيني مع ضيوف.

- لا أخذك ولا تخزيني. أنا لا أريد أحداً في بيتي.

- والله، والله لو لم تخرجهم لأذهبن لأهلي وأترك لك الجمل بما
حل.

- خافي الله يا مرا.

- لقد أخبرتك.

حاول كتم غظه، وهو يقفز من الحوش لدخل العشة متمنياً ألا
نسمع ما يدور بينهما. لكن أصواتهما المتطايرة وصلت لأذاننا فتكومنا
على بعضنا ننظر لجبريل الذي أطرق صامتاً يخالس زوجته النظر،
ويتأفف بضيق.

انتهى خصامهما بحملها لبنت أهلها، وظل غيلان يحاول
استرضاءنا بابتسامته الشاردة، فقد اكتشف أن زوجته كانت تحمل عنه
تعب أولئك الصبية الذين يتناوبون على البكاء فيحيلون المكان إلى
صرير ينخر الرأس. ظلت يداه تدوران على رؤوسهم بصفعات سريعة
وصوته يذود ضيقاً طافحاً جرى على سحنته فأبيس تلك الابتسامة
المعلقة. همست لزوجته جبريل:

- عليك أن تقنعي غيلان بإرجاع زوجته فنحن السبب في
خروجها من بيتها.

وافقتني، واقتربت من أخيها راجية صفحه عن أمة فوافق على
القور وردد:

- لن تقبل بالعودة. أنا أعرفها فهي تريد «رضوة»^(٢٨) وأنا لا
أملك شيئاً.

(٢٨) إذا غضبت الزوجة وغادرت لبنت أهلها فإن إرجاعها لبنت زوجها يتطلب
من الزوج أن يقدم لها رضوة، والرضوة عبارة عن كسوة وذهب، وتختلف
وفق إمكانية الزوج.

قلت له:

- دعنا نذهب أنا وأختك ونستسمحها.

- أتمنى أن تعود معكما.

قال جلته وانسحب لإسكات تلك الأقواء المفتوحة بالبكاء.

* خرجت مع صالحة زوجة جبريل بصحبة عائشة ابنة غيلان
الكبرى لإعادة أمها.

كانت الشوارع معبأة بالتوجس والخوف، وثمة عسكر انتشروا
بالمدينة كالسحل، والناس يسرون حاملين خوفهم بين أهليهم
ويمضون الأخبار بلا مبالاة ويدفعون ضحكات جافة عبر هواء
رطب. كنت أسير وعيناي تلتهمان تلك المدينة الصغيرة بشيء من
الدهشة والغربة، وشعور بأن قدمي يحیی عبرتنا هذه الأماكن، فتزداد
حرقتي ولوعتي، ولسان عائشة يوصلنا بالأماكن (هنا القلعة، هنا جبل
الملح، هنا المسطح، هنا الميدان، وهناك المطلاع، وهنا...)، آه
الميدان، هذا المكان الذي تاه منه الغالي. تسمرت أبحت عن رائحته
عن وجهه بين تلك الوجوه الشابة التي تتقافز بمرحها وصخبها وتجري
الحياة في أوردتها كمياء صافية غير عابئة بكدر أخبار الحرب.

جذبتني صالحة:

- لماذا توقفت؟

- هذا هو الميدان الذي ضاع فيه يحيى.

- ربنا يجبر خاطرك، دعينا نمضي قبل أن يساء الظن بوقوفك.

- رجلاي لا تطاوعاني.

كانت عائشة تنظر لي دون أن تفهم تفسيراً لهذا التخشب،

تقدمنا وتراجع:

- بيت جدي في الساحل وليس هنا .

وتسحبنا وهي تنظر بدهشة :

- هل أعجبك الميدان؟

وعندما لا تجد إجابة تعاود جذبنا وهي تردد :

- بيت جدي في الساحل وليس هنا .

الميدان مزدحم ، وأصوات الباعة تتعالى . . كنت أتمنى أن أوقف كل شخص هناك وأسأله عن يحيى ، استجبت لجذب صالحة مكرهة . كنت أسير معهما وعتقي ملتوية صوب الميدان .

فجأة نفرت من بينهما وأخذت أركض بصعوبة صوب صبي لا يتجاوز عمره السبع سنوات امتطى ظهر حمار لا أنكره . نعم حمار أُمي . ذلك الحمار الذي امتطته وهي مغادرة لمكة ، لا يمكن أن يكون سواه . هو نفس الحمار ، فرجله الأمامية المسلوخة وكأنها عضد رجل احترق ، كنت أركض وأنادي على الصبي الذي توقف مستغرباً من امرأة تعدو خلفه وقد تخلت عن غطائها .

جذب الصبي لجام حماره وتطلع إليّ بدهشة يخالطها تردد بالمضي ، أمسكت باللجام مع وصول صالحة وعائشة وهما تلهشان وتصيحان :

- ماذا جرى لك؟

أهملت لهماهما وصيحاتهما وأمسكت بالصبي :

- لمن هذا الحمار؟

كان مسترياً ، وعندما أعدت عليه السؤال أجاب مرتبكاً :

- حمارنا .

- من أين اشتريتموه؟

- لا أعرف .

- أنت ابن من؟

!!!!!!-

- لا تخف قل ما اسمك؟

- اسمي طاهر .

- طاهر من؟

- طاهر صالح الحنوني .

- وأين تسكن؟

- في حي المسطاح .

ونغز حماره مبتعداً ، وظللت أردد (صالح الحنوني) كي لا أنسى هذا الاسم ، واستجبت لدفعات صالحة والذهاب لاسترضاء أمنة زوجة غيلان .

بينما كانت عائشة تروي كيف حرم صالح الحنوني من الذرية لسنوات طويلة حتى رزقه الله هذا الغلام الذي أصبح أغلى من عينيه .



صالح الحنوني .

هذا هو الخيط الذي سيوصلني لإبني . عدت للبيت أهذي بهذا الاسم ولم أكتثر كثيراً بالمقابلة السيئة التي استقبلتنا بها أمنة ورفضها العودة لبيتها قبل أن تذلل غيلان .

تخضعنا لها كثيراً ، وبعد مجادلة وتقبيل رأسها مراراً رضيت أن تعود بعد أن أخبرتها صالحة أننا لن نمكث أكثر من يوم واحد ، فعدت معنا ولسانها يحوك الشتائم المبطنة .

فكرت بالذهاب لبيت الخنوني مباشرة، لكن صالحة حدثت من اندفاعي وهي تلومني بلطف:

- ليس من اللائق أن نذهب في مثل هذا الوقت خاصة وأنا لا نعرف الناس، فماذا سيقولون عنا. بصعوبة انجذبت لدفعاتها، وعدت للبيت منتظرة بزوغ الشمس، وكلما غفت عيناى أيقظتهما بتذكر ملامح يحيى، وخاطبتها:

- الغالي يقف على مقربة منك وأنت تغلقين أهدابك قبل أن تراه.

ظللتنا تستجيبان لإغراءاتي، وفي آخر الليل هربتني معها في إغفاءة أكثر إغراء، أرثني يحيى وهو يقف أمامي مبتسماً بملابس نظيفة وشباب غض ماداً يديه ومحوطاً عليّ بذراعيه ويسكب لهفة حارة:

- أخيراً رأيتك.

نهضت لأضمه لصدرى بوقوف بيننا جدار، وسمعت هديرأ وأزيزاً عاليين ولحت السماء تومض بأضواء لامعة وأشياء تنقصف بدوي وفرقعات وغبار يتعالى في سماء المدينة وهم من نار تنسكب بين الشوارع.



مشهد سادس:

المكان: مدينة جيزان - حي المسطاح.

الوقت قبل صباح الديكة بقليل من فجر السبت.

طائرات تحلق فوق المدينة بمستوى منخفض في استدارة نصف قوس. أهل المدينة غارقون في نوم متقلب، أزيز الطائرات يقترب

وتلقي بقنابلها فيثور الدمار ويتطاير الغبار وأوصال من لحم آدمي تناثرت في كل الاتجاهات، وفزع أحرق المدينة، فخرج الناس يركضون في هيثات مختلفة لا يعرفون إلى أي الاتجاهات يمشون، فقط بقيت أصواتهم معلقة:

صوت ١: فعلها جمال.

صوت ٦: الجبان يهجم على مدينة نائمة.

صوت ٧٦: والله لقد رأيت الطائرات وكأنها تهم بالهبوط.

صوت ٤٥: هذا فعل الروس.

صوت ٥٨: الروس ما لنا وما لهم.

صوت ٧٤: لم يعد لنا مقام.

صوت ٨٧: اهربوا إلى صيبا.

صوت ٦٥: لا لا فرسان آمن.

صوت ٨٢: البر آمن.

تناثر الناس في كل الاتجاهات وذهب كثير منهم يجمع أوصال تلك الجثث من بين الأزقة والبيوت ليعيدوا لكل جثة أوصالها المتناثرة.

ووقف المتبقون في المدينة يتقبلون العزاء بدموع غزيرة وشنائم متدفقة لجمال وجيشه.



صباح ليس ككل الصباحات، أفاقت المدينة على أصوات القنابل. كنت أركض مع الراكضين، ولم تعد الحياة مستحبة. كنت أريد الوصول إلى بيت صالح الخنوني قبل أن تقبرني قبيلة أو شظية... الأيدي تشير صوب تلك البيوت التي أصابتها القنابل وحشد كبير

يتراكم صوب تلك الناحية. عندما وصلت إلى بيت صالح الحنوني
كان الناس يبحثون عن يده ورجل ابنه المفقودين.

ولم أستطع أن أسأل زوجته في تلك الحالة من أين جلبوا ذلك
الحمار فأرجأت سؤالي إلى حين.

خرجت لأجد جبريل تلفظني صائحاً:

- أين أنت لقد أشيع أنك مت.

- وأنا ميتة منذ زمن.

- دعي هذا الكلام وتجهزي للهرب. ساكون أنا وغيلان عندكم
بعد قليل.

- إلى أين الهرب.

- إلى فرسان.

واجتمعنا على الميناء، وركبنا قارباً حشر حشراً واتجهنا إلى جزيرة
فرسان.

مشهد تاسع:

مدينة جيزان.

أناس يركضون في اتجاهات مختلفة والهيل عالقاً بألسنتهم

وأصوات تصيح:

- أغثونا.

ومجموعات من البشر نازحة للمدن الشمالية على طريق
الساحل.

مشهد ثالث وعشرون

المكان: وسط البحر باتجاه فرسان.

الوقت قبل منتصف الليل.

كان الميناء الصغير يستلقي بهدوء في عتمة الليل، وثمة قوارب
تحرك سكونه بقلق وأصوات البحارة تتعالى في محاولة لتهذئة الركاب
الذين ارتقوا بوسط القارب يسألون الله النجاة بعد أن رأوا في السماء
أضواء تومض من بعيد، وقد صرخ بهم الناقذة مراراً أمراً بإيهم
بالتزام الصمت وترك اللجاج، وانقلب على بحارته لاعتناً وشائماً حين
لمحهم يرفعون الأشرعة:

- بغياكم ستصيبنا قبلة لا محالة.

وقفز مقدمة المركب صائحاً بهم:

أنزلوا الأشرعة وجذفوا بكل قواكم.

فازداد ارتباك الركاب وتصايحت النسوة وأخذ بعضهن يتحسرن
لمغادرتهم قراهن ومدنهن، فنهرن الناقذة وأقسم على كذف من
يرتفع صوتها طعماً للبحر، فسكتن بينما ظل الرجال يعلقون أبصارهم
في تلك السماء العمياء. وخطب غيلان الناقذة بتهكم:

- بأي نجم ستهدي في هذه الظلمة؟

- بنجم أمك.

شعر غيلان بالإهانة تخترق عظامه وهم بالافتصاص لكرامته
لكنه تراجع حينما سمع هدير طائرة تحلق على ارتفاع منخفض،
فانبطح الجميع على وجوههم وهم يتلون القرآن ويدعون الله متضرعين
أن ينجيهم من قذيفة ترهق أرواحهم.

وعلى بعد.. جلست مدينة جيزان تحتضن خوفها وتأوي
للصمت، وثمة فوانيس من على الساحل تتراقص بضوئها المتخاذل
وتربص بالسماء الخالية خوفاً من ضربة أخرى.

في صبيحة هذا اليوم نفر الناس من جيزان ولم يعد هناك إلا
قلة قليلة، وتعددت سبل الهاربين، فمنهم من قصد جزيرة فرسان
ومنهم من قصد صيبا، والسواد الأعظم انطلقوا إلى البرور بحثاً عن
مأمن يقيهم من طائرات الميغ وقنابل النيبيل [الناپالم] التي صبت على
رؤوسهم فجر اليوم.

كان صباحاً دامياً لم يكن في الحسبان...

مشهد خامس وأربعون:

المكان: مدينة جدة.

الشباب (وجدي، قدوري، عزيز، ويقىة من الناصريين
المتفعلين) يتحدثون عن الحرب ويظهرون وجهات النظر المختلفة،
ويقراءون قصاصات جرائد ويرددون أخبار الإذاعات ويتساءلون
بلخاح:

- هل فعلاً قصف جمال مدتنا؟!

مشهد خامس عشر:

المكان: مدينة جدة.

انتظمت صفوف الشباب وخرجت في مسيرتها التي بدأت من

مدرسة الفلاح عابرة القشلة باتجاه السبعة القصور.

مشهد حادي وعشرون:

المكان: شاطئ مدينة جيزان.

قوارب متعددة وقد قلبت فظهرت من بعيد كالبيوت البيضاء
المتلاصقة، وبالقرب منها وقف الهاربون ينتظرون قارباً يقلهم للجزر
البعيدة.

هدير عال وطائرات تعبر خاطفة وتلقي قنابلها تاركة قوارب
كالقضيض وأجساداً نخرها الموت، ومن بعيد تعالت أصوات مفعوجة
تعدد موتاتها.

الفصل التاسع

ليتني لم أغادر جدة.

هذه الأمنية لازممتني عندما أطلت على قريتي.

لم تعد تلك القرية كما تركتها، تيس الخوف بين دروبها، واستيقظ الحرس وجال بين أطرافها بهمة. ظلت سنابلها تستقبل الريح باهتزاز كسول، وطفحت سيقانها باخضرار شاحب، واستحالت رمالها الفضية الناعمة للون مصفر باهت وفاح عطن بين دوابها القليلة المتناثرة في الحظائر. وفرغت خزائن الحبوب، وجفت الطرقات من المارة. كانت تقف وحيدة تستقبل الغبار وتودع الهاربين وداع الجنائز الذاهبة للثرى.

ثمة قامات قليلة تخب في المنحنيات بسرعة وتختبئ ولا يثبت أمام بصرك سوى قامات لعسكر يقفون بأهدابهم الذابلة على وجهك بريية قبل أن تخطف الطرقات أقدامهم صوب الجنوب.

ثمة شيء يموت هنا.

وقف بيتنا فارغاً من كل شيء. ليس به سوى صحون معلقة بداخل العشة تصدر أصواتاً مع دفعات الريح القوية، وصدى مهول يستفز الرعب لأن يلتهمك، فتقوض، تنهار، تغدو حطباً تجهز ذاتك للاحتراق، تتلمس أطرافك تتأكد أنها لا زالت ترافقك، تضمها خشية

عينها اللتان تنظران إليّ كما تنظران لشيء رث مقزز داهمتاني
فجأة، خصلات شعرها الناعمة، تورّد وجنتيها، استرخاء شفتيها،
وعودها الريان المتليّ، تقف أمامي تماماً تزيد حرقتي.. أوه يا حياة
ليتك معي الآن.

شعرت برغبة ملحة في معاودة البكاء فاستعصى دمعي. بقيت
زماً طويلاً أنتظر أن يتقدم أحد، أن يصيح عابر سبيل:

- يا أهل البيت.

في مدخل القرية كنت متشاغلاً بتلمس الأشياء التي تركتها
وعندما دخلت صادفتني وجوه العسكر وقلة ممن أتذكر وجوههم،
كنت أنطلع إليهم فلا يعيرونني انتباهاً، قوافل من البشر تسير
باتجاهات مختلفة، كنت مستعجلاً للوصول لأمي وحين وقفت في بيتنا
وجدته يحمي مقدمي بطرقعات صحونه المعلقة والمهتزة بدفعات
الريح.. لا شيء سوى طرقعات صحون وريح تعبر المكان بلا
اكتراث.

خرجت متلمساً خيراً عن أهلي.

كان وقوفي أمام عبد الله عمر مثيراً للشفقة، بعد أن عرفته على
نفسى حضنتي وصاح:

- لو تقدمت ليلة واحدة كنت التقيت بإخوتك وأمك، لقد
هربوا مع الهاربين.

- إلى أين؟

- لا أحد يسأل الهارب إلى أين تمضي.

- ألم تسمع إلى أين اتجهوا؟

- سمعت جبريل يقول إنه متجه إلى جيزان.

وصمت قليلاً ونظر إليّ بافتخار:

- لقد أصبحت رجلاً يا يحيى، كان قلبها يحس بك، لم ترض
مغادرة القرية.. كانت دائماً تردد بأنك سوف تأتي ولكنك تأخرت
كثيراً.

مصمص شفته السفلى، وشد مرفقي بقوة وجلافة:

- أصابها التعب كانت لا تمل من ترديد اسمك، وفي أوقات
كثيرة تخرج في الليالي تنوح عليك وقميصك يلتف على عنقها تتشممه
وتنوح نواحاً يقطع نياط القلب، وفي النهار تدلف للأسواق تسأل
التجار عنك وتقبل ركبهن وهي ترجوهم بدموع نضبت من محاجرهما:

- قولوا أي شيء عن يحيى، اكذبوا عليّ!!

وفي صبيحة كل سبت تستقبل الموعدين لسوق السبت وإذا
نهرها أحد تباكّت:

- ربما يأتي يحيى أو يأتي خبر عنه.

سنوات وهي تخرج للسوق وفي كل عام تنذر بنذور وتضاعفت
نذورها حتى بلغ نذرها أن تسفك دم خمسين ناقة وتحرق ثلاثين رقبة.
كانت لوعتها عليك كبيرة وقد رغب بها عبده إبراهيم وفاتحها برغبته
ونذرت أن تهيه نفسها لو عاد بك، وخرج ولم يعد حتى غدونا
نضرب به المثل فنقول (خرجة عبده إبراهيم).

أحسست بنار تشب في أعماقي حين ذكر أن رجلاً رغب فيها،
لكنه لم يكثر بانفاضتي وهز رأسه بندم:

- ليّك تقدمت يوماً واحداً، يوماً واحداً فقط، أوه لو تعلم كم
قيّاست من بعدك.

وصمت كمن يوزن كلمته التي يود أن يطلقها:

- كنت ابناً عاقاً، لم تذكرها حتى ولو بكتاب.

اتسعت مساحات حرائقي وتوزع دمي بتدفق لتتوتر أطرافني

بتشنج:

- كيف وأنا بين فترة وأخرى أرسل خطاباً ونقوداً.

اهتز كرشه بضحكة قصيرة:

- ترسل مع من؟

- عن طريق أحد تجار القرية.

- من هو؟

- لا أعرف لكنني كنت أرسل لها بصورة منتظمة.

- لا داعي لكل هذه المراوغة. لم يصلها شيء منك، كانت

المسكينة تريد كتاباً، خيراً أي شيء يطفئ لهفتها عليك.

- هل أنت متأكد؟

- كل التأكيد، ولولا أن خالك جبريل أغراها برؤيتك في

جيزان لما هربت، لقد وقفت كل القرية على رأسها وهي تبكي يومياً

على فراقك. ولو أرسلت رسالة لسمعنا بها جميعاً، كانت فقط رسائل

خالتك التي تصل بانتظام.

- كيف هذا؟ أقول لك كنت أرسل لها الرسائل وتأتي ردود

عليها.

- قلت لك بواسطة من؟

- رجل كنت معه.

- يكذب عليك... أياكون الرجل الجبلي؟

- وما أدراك؟

- سمعنا به من الحجاج الذين رافقوك إلى الحج بأن جبلياً

اصطحبك معه.

وينظرة مزدرية كرر:

- لقد دمرت أمك وهي لا تزال مرغوبة.

أحرقني كلامه، أحرقني أن ثمة رجلاً كان يشتهيها، تمنيت لو

أستطيع أن أجز لسانه. كنت أنظر إليه بكره وهو يروي لي هيام رجال

آخرين بأمي، فقد استطاب هذه النقطة وأسهب في تعداد الرجال

الذين طلبوا أمي من خالي جبريل، حاولت أن أوقفه بسؤال حازم:

- كف عن هذرك وقل لي ما هي أخبارها وأخبار إخوتي؟

- كلهم بخير قبل هذه الحرب أما الآن فلا أدري، يقولون إن

أناساً كثيرين ماتوا في هربتهم... صمت وعاد حديثه:

- ألم تسمع بالخسيس؟

ظننت أنه سيتحدث عن أحد خطاب أمي فلم أرد فعاود

سؤاله:

- أقول لك ألم تسمع بالخسيس الذي سود سمعة قريتنا؟

وبتأمل رددت:

- من؟

- حمد.

- حمد!!

- نعم حمد ولد عم أمك.

تذكرت خسته حين تركنا أنا وجدتي نواجه الغربة بمفردنا

وعقبت بفتور:

- كان نذلاً. لقد تركنا ونحن في طريقنا إلى مكة ولم أسمع به

منذ ذلك الزمن.

- لقد عاد وليته لم يعد.

وصمت للحظات وعاد حديثه بتأفف:

- أغرته نفسه فعمل مهرباً للسلاح.

- سلاح.

- نعم، ويقولون إن حسين منجلي شريك له. لكن المنجلي لم يضبط معه شيء، فقد تم القبض على حمد متسللاً بذخيرة كبيرة وأظن أن نهايته ستكون وخيمة. كانت أمك تنتظرك وتنتظره وعندما عاد ألبس قريتنا العار، ألم يكن معك في الحجاز؟

- أقول لك لقد تركنا في نصف الطريق ولا أعرف أين مضى.

- هذه خواتم النفس الرذيلة.

وسحبني لبيتته وأخذ يسرد على مسامعي حكايات وحكايات، وكلما اقترب من سيرة الخطاب الذين ودوا الاقتران بأمي تمنيت لو أنني أستطيع جز لسانه.



غيلان.

هذا هو الاسم الذي التقطته من قم علي بن أحمد حين قال:

- أخو زوجة خالك اسمه غيلان فإذا ذهبوا إلى جيزان

فستجدهم عنده.

وارتحلت لجيزان، ووقفت عليها. كانت مدينة نصفها ميت والنصف الآخر هرب وساحت بشوارعها بواق من قامات هزيلة جلست تصفف أحزانها وتقلب سيرة جثثها التي عبثت بأجسادها القنابل.

كانت سيرة تلك اليد المخضبة بالعفص أكثر لوعة، تلك اليد

التي كانت تنهياً لأن تمد أناملها لزوجها غادرت جسد صاحبها في ليلة الحناء حين كانت تنهياً لأن تزف لخطيبها في الليلة التالية، وبعد أن زينت بياضها بمنمنمات الخضاب واسترخت على قعاداتها تروي غيلتها بأحلامها القادمة جاءت شظية لتتغلغل في قلبها وتبعد يدها التي طالما رفعت بها خصلتها المتهذلة على جبينها.

يقولون لم يعثروا على يدها إلا في اليوم الثالث بعد أن دفن جسد صاحبها قبل أن ترفع غرتها التي ارتجت لوقع تلك الشظية. ظلت يدها لبعض الوقت في يد الطفل، عثر عليها بين أنياب كلب كان ينهش بنهرها الطري.

حكايات موحشة وغارقة في الهلع.

طفل انتظره أبوه سنوات طوال وعندما جاء ونما كغصن يشي بالأخضرار التصقت بجسده شظية قبل أن يكمل قبلته على وجنتي أبيه فالتصقا ببعضهما وتركوا أجزاء من أطرافهما تنطير في الفضاء.

أصبحت بالحسرة لهذه الواقعة حين سمعت اسمه يتردد على أفواه الرواة (طاهر صالح الحنوني) ووقفت تلك الليلة بالذاكرة حين كان النذر يزهر على لسان صالح الحنوني وهو يحدث طاهر الوصاي:

- لو تقبل الله منك سأسميه طاهر وإن كانت بنتاً سميتها طاهرة.

تذكرت زوجته الجميلة التي حضنتني ورغبت في أن أكون ابناً لها، فتركتها تمسح خيبة أمها من ردي البارد بعد أن دست بجيبي رياراً مجيداً.

تحركت للساحل.. كنت أتمنى لو أنني أستطيع مقابلة زوجة صالح وأن أرمي في حضنها وأجهش بالبكاء، وأروي لها عذباتي وأستدفئ بجسدها وحنانها. الطريق لبيت صالح الحنوني لم يتغير،

وكانني أسلكه للتو بصحبة طاهر الوصابي أقفز من على ظهر حماري وأجاور طاهر في مشيته، كنت أحس به يجاورني فعلاً، فنبئت رائحة أول خطوات الغربة. كنت أسير في تلك الأزقة الذابلة وأرى أمواج البحر المتكاسلة تمد ألسنتها للشاطئ دون أن تلامس أجساداً طفت على سطح بحرهما كأشجار الرين الباهتة، لا زال الطريق كما تركته وأرى أقدامي تقع على أثرها القديم، وقفت بالقبل الواسع وقد أطلت شجرة النبق من على الجدار وشاخت رديمة الفل فتبيست أطرافها واحتفظت بقليل من اخضرارها في أغصانها السفلية، صحت:

- يا أهل البيت.

صوت مهالك، وصدى بارد، وجو مشحون بالصمت، تردد صوتي بتكاسل وانطفاء، أشعلته بصعوبة فارتفع قليلاً:

- يا أهل البيت.

لا أحد يجيب (هل رحلت بعد أن مات زوجها وابنها، ألم تنتظر لتتقبل العزاء فيهما، أم أنها هربت قبل أن تداهما شظية طائشة؟) لكن آخر محاولة.. جاهدت أن أرفع صوتي عالياً:

- يا أهل البيت.

خرج رجل مسن يتهادى بثقال، تطلع إليّ بدهشة فقطعت تطلعه بعبارة تلعثت في نطقها:

- عظم الله أجركم.

- جزاك الله خيراً.

- كنت أعرف صالح رحمه الله منذ مدة وسمعت بما حدث فجيئت للعزاء.

لقد انتقل المرحوم من هذا البيت للمسطح منذ ستين.

- عذراً.

- لا تعتذر كل المدينة تقبل العزاء، تفضل.

- لا، عليّ أن أذهب.

وجهتني الألسن التي واجهتها في الطرقات حتى أوصلتني إلى بيت صالح الحنوني. وقفت أمام بوابة البيت، كان الحزن مدلل على الأسجف وهنئة متعالية تنبعث من الداخل، وكان الموت لم يجف بعد. خطوت لداخل الفناء، رأيت حماري مربوطاً في المطرح يلوك عجوراً يابساً، وكأنه البقية الباقية من أهلي. ركضت باتجاهه ووضعت رأسه برأسه فنخر وأشاح برقبته بعيداً وأعطاني مؤخرته هاشاً بذيله ذباباً تجمع على بقايا روثه الملتصق بوركيه. أمسكت برقبته وحضنته أحسست برعدة تجري في بدني ورغبة جامحة للنشيج. سألت دموعي المتبسة وشاركت تلك الهنئات المتعالية حسرتها ولوعتها، كنت أبكي وكانني في حضن أُمي. بكيت وبكيت حتى تراخت مفاصلي، وقبلته وتحركت باتجاه إحدى العيش وناديت:

- عظم الله أجركم يا أهل البيت.

كررت عزائي مرتين فبزغت من عمق الدار تلك الخادمة بأنفها المنبطح وضافتها العنكبوتية وابسامتها التي لا تزال كما تركتها قبل سبع سنوات أو ثمان. كانت عينها تومضان وميضاً منكسراً وهي تتحقق من هيائي:

- من أنت؟

- كيف حالك؟

- الحمد لله .. من أنت؟

- نسييتي؟

- أخذت تتفحصني فلم أمنحها وقتاً إضافياً:

- لقد جئت مع طاهر الوصابي من سنوات وعندما سمعت بالخبر جئت للتعزية.

- اتسعت ابتسامتها وعادت لحفرها كمن يجاهد في ضبط مشاعر مفاجئة هزته:

- تذكرتك، أهلاً وسهلاً.

- ومدت يدها للسلام عليّ:

- ألم تغادر جيزان منذ ذلك الزمن؟

- أنا قادم من جدة.

- ستفرح بك سيدتي.

- وقادنتني إلى عشة كبيرة اجتمع بها بعض المعزين، كنت أجلس بينهم على قلقي وحكايات تتناثر عن فواجع الحرب.

- كنت أشعر بالضيق، فأنا لا أعرف بالتحديد ما العمل الذي يجب عليّ القيام به، فكلما هممت بالاستئذان تخشب لساني بحلقي، ووقف سؤال كبير: إلى أين تمضي؟

- حاولت جاهداً أن أجِدَ لنفسي العذر لمغادرة بيت الحنوني، فلم يعد متبقياً سوى أهل البيت من إخوانه وأولاد عمومته. أحسست بثقل بقائي من خلال تلك العيون التي تتفحصني من أسفل طرفها، تململت بجلستي، وحدثت من يقاريني في المجلس:

- أنا قادم من جدة وأبحث عن رجل يدعى غيلان هل تدلني على بيته؟

- غيلان .. رحمه الله، لقد مات.

- مات!!

- هرب من بيته خوفاً من الموت فمات على الشاطئ، مات هو وأسرته وضيوفه الذين نزلوا عليه.

- شعرت بدوار، وشيء عاصف يحتاجني، كنت أسمع أصواتاً متعددة تروي موته وموت من معه، وأصواتاً تسأل:

- هل تعرفه؟

- مسكين كان يؤمل في النجاة فمات وهو يوشك على الهرب.

- مات هو ومن معه.

- موته مع من معه خير له. فلو مات بمفرده لحزن عليه أهله ولو مات أهله لتجنن لفقدهم.

- يقولون التصقوا بالأرض وكانوا يقشعون جلودهم من الأرض قشعاً.

- رأيتهم يحملونهم بسكينة الدركر.

- يا جبروتك .. واتتك نفسك على مشاهدة هذا المنظر!

- ايه والله لقد شاهدت ذلك بنفسي.

- سمعت أنهم دفنوهم جميعاً في حفرة واحدة.

- ليس وحدهم .. مجموعة كبيرة معهم.

- يقولون إن ضيوفه هم الذين تفتت لحومهم بالأرض، فكموا عليهم التراب لتكفل الشمس بإذابة جلودهم المتبقية.

✽ ✽ ✽

- مضت ثلاثة أيام وأنا أنام بمضيضة بيت الحنوني لا أعرف ما

الذي يحدث. كانت تطبيني جمعة، أفقت في اليوم الثالث وهي تنزع رأسي نزعاً من فوق المخذة وتسقيني لبناً ساخناً، وعندما رأت عيني ترمشان استبشرت وفتحت شفتيها عن ابتسامتها البيضاء وقذفت برأسي وهي تصيح:

- قام الغريب يا ستي.

وعادت تحمل طبقاً مليئاً بشورية دجاج. جلست أمامي ورفعت غطاء الحساء فتطاير دخان هزيل، وغمغت ولكنها متداعية إلا أنها أفضل مما سمعتها أول مرة عندما كنت مرافقاً لطاهر:

- سيدتي تبلى عزاها فقد عرفت أن أهلك ماتوا مع غيلان وتشرك على تعزيتك.

اكتفت بتلك الجملة التي يبدو أنها بذلت مجهوداً جباراً كي تقولها كما حفظتها، وأعادت رأسي لراحة يدها اليسرى وأمسكت بالإناء بيدها اليمنى وأخذت ترشقني ذلك الحساء، ولم تغادرني حتى سكبته بجوفي، وفي كل مرة تحرضني بود على احتسائه، نظرت إليها بامتنان:

- شكراً

لم تعجب، وانشغلت بإصلاح الفرش، كنت أشعر بخدر وكلما حاولت النهوض خذلني أطرافي، قمت يدها لصدرتي وترجعني لرقدي:

- لا تحاول الحركة فلا زلت متعباً.

- عاجز عن شكرك .. عفواً فانا لا أعرف اسمك إلى الآن.

غزا محياها وجوم مفاجئ وعكر صفاء ابتسامتها، وردت باقتضاب:

- لا أحد يهتم لتذكر أسماء الخدم والعبيد.

شعرت بفداحة سؤالي فحاولت الاعتذار فقاطعتني بجفاء:

- لا تجاهد في الاعتذار.

وقطعت حديثها برد باتر:

- اسمي جمعة.

وكانها لم تسترح للرد فعقبت:

- خادمك جمعة.

- شكراً يا جمعة.

نكست رأسها وأخذت تلعب بمصرها بتوتر، فظهر شعرها العنكبوتي مضمراً بنمنمات دقيقة، فهمست بها:

- أنت جميلة بابتسامتك يا جمعة فلا تحثيها.

طفحت ابتسامتها الصافية، وانطلقت لداخل البيت تغالب خجلها.

في اليوم الرابع وقفت في الفناء متهيئاً للرحيل، جذبتني جمعة من يدي وعيناها تموجان بدمع تزاحم بين مقلتيها وهم بالخروج:

- تقول سيدتي ابق معنا ولولا العدة لخرجت إليك.

- بلغني تحياتي ودعواتي لها أن يصبرها الله ويعوضها خيراً.

- ابق معنا.

قالت جملتها بضعف وانكسار وساحت دموعها على وجنتيها الممتلئتين، فامتدت يداها لأنفها وتمخطت بصوت مرتفع، ومسحت

يدها في كرتها المتسخة وكررت بصوت متحشرج:

- ابق معنا.

- جمعة، لم يعد لي مكان هنا.

وسحبت يدي من يديها ومشيت. سمعت صوتاً أنيساً يصر من داخل البيت:

- يحیی.

توقفت والتفت صوب الصوت. كانت تقف من بعيد وهي تغطي كل جسدها بملاء سوداء وصوتها ينداح حارفاً:

- مات طاهر الذي انتظرته كل هذا العمر وأنا الآن أعيد على مسامحك نفس الأمانة القديمة: ألا تود أن تكون ولدأ لي؟

تجمرت الكلمات في فمي بينما ظل صوتها يلح:

- سأكون لك كل شيء.. فقط ابق معنا.

- لا أستطيع يا خالة، لكنني ابنتك أينما كنت وإذا احتجت لي ستجدني قريباً منك.

خطوت فشمعت بأقدامي ثقيلة وصوتها يسيل في أذني بحنان ولوعة:

- صحبتك السلامة ولا تنس أن لك أما في هذه المدينة التي أصبحت خراباً.



لم يعد أي شيء يربطني بهذه المدينة.

سرت في شوارعها، أتصفح الأماكن التهذلة والشوارع الملتفة

بعضها ببعض، ووجدت نفسي أقف أمام بيت غيلان، اشتقت لأن أسمع عن ضيوفه الذين خسفت القنابل بأجسادهم. كان بيتاً لا يختلف عن كثير من بيوت المدينة، فناؤه واسع مفروش بالرمال الناعم. به رديمة واحدة أزهرت بقل مزوم مخضر انتهى ببياض فقر وتويجته بدعة وتمهل، وعشة وحيدة استقرت في وسط الغناء وقد مالت قرعيتها. وقفت عليها حداة فاردة جنحها وهامة بالتحليق بعيداً.

وقفت طويلاً قبل أن يقف أمامي رجل عرف نفسه بعبد ه حسن. كان حلياً يحمل بندقيّة قديمة وقد تفاقر من وجهه شرود طاغ وأسهب في حديثه بدون مقدمات:

- عظم الله أجرك.

!!!!!!

- كل الذي يحزنني أن غيلان مات وبقله غل عليّ، فقد دقت عظامه بكعب بندقيتي هذه.

وأنزل البندقية من على عاتقه وتلمسها بتناقل وغمغم:

- ليتني مت قبل هذا، لم أكن أظن للحظة أن تدك مدينتي بهذه الصورة.. كان غيلان صادقاً حين سخر من ثقتي بنفسي وأنا أردت على المتجهمين: كل الإذاعات تقول أنه لن يقدر، كنت أهمل كما وصفني المرحوم.

تنبه بعد أن فرط في كثير من حكاياته على تمجهر بعض المارة والجيران حولنا، فصمت وعاد لتبخته:

- هيا انصرفوا، لماذا تتجمعون كالدواب الضالة.

لم يأبه به أحد، وظلت العيون تحوم حولي، وجدت أن من

الضروري أن أتحديث، أن أقول أي شيء يبعد ذلك الفضول البازغ من الأهداب، أي كلمة توقف نموه وتفتح لي صدورهم. تنحنحت:

- قدمت من جدة وعلمت أن أمي نزلت في بيت غيلان أريد أن أعرف كيف مات ضيو... .

مجموعة من الأصوات ترحت عليهم، واستثارت كلماتي إحدى العجائز الواقفات بين التجمهرين:

- أنت ابن مريم، سمعتها تقول إن لها إنثاً هنا.

هزئت رأسي، فتأوهت بأسى:

- رحمها الله كانت طيبة. المسكينة والله إني حبيبها من أول ما رأيته.

سكنت وكمن نسي شيئاً أعادت حديثها:

... بل رحم الله الجميع فقد ماتوا جميعهم في الهربة، ماتوا على الميناء قبل أن يجدوا قارباً يحملهم بعيداً عن قتابل جمال (الله) يخزيه فين ما هو).

- أين قبرهم أريد أن أسلم عليهم.

تبرع عبده حسن باصطحابي فسمعنا رجلاً ممتلئاً يسخر منا:

- قبر مين... فقد تركوا في العراء لتجفف الشمس جلودهم.

صاح به عبده حسن:

- قبحك الله من آدمي. هذا رد تقوله؟

- قبحك الله لوحدك من يشوفك يقول (يا هنا يا ما هنا).

انفعل عبده حسن وصاح به:

- والله لو لم تذهب لسانك لأدقن عظامك بهذه البندقية.

وأنزل بندقيته من على عاتقه مرة أخرى متحفزاً فتلقى رداً عاصفاً:

- أعرفك يا عبده أنت كالطبل تنقر وفق النقرة التي تنترك. والله لو طال لسانك لأبث بطنك بالرصاص الذي تحترم به.

اغتاظ عبده حسن واندفع نحوه ببندقيته غارزاً كعبيها بصدرة، فتلقاه بيده ليتدخل المتواجدون (بفرعون) بينهما. وقبل أن ينتهي شجارهما تفرق عنهما الجميع على صوت كان يصيح من بعيد:

- البدر في طريقه إلى مقر إقامته.

فتناثروا جميعهم بغية رؤية البدر، وركضت خلفهم تاركين بندقية عبده حسن بيد غريمه وهو يشدها بعنف.



مرق بسيارته الشفروليه. كان يجلس في المقصورة الخلفية بمعكسة السائق، جلسته لم تمنع من التخمين بقامته المديدة، كان وجهه لامعاً وبشرته البيضاء المحمرة تفيض بالعافية، شاربه وذقنه هذبا بصورة لائقة فأبدت صفاء وجهه وأنفه الطويل ذي العكفة البسيطة المائلة على جبهته المستوية. كان بارزاً يضاهي بريق عينيه الموزع في الطرقات وقد استقرت على رأسه عمامة وضعت بإحكام وبان طرفها المدلى من الخلف. كان وجهه منبسطاً دون ابتسام.

كان على سائق سيارته أن يمرق بسرعة عابراً تلك الأجساد المهللة التي مدت أعناقها بفضول لرؤية البدر، لكن حماراً سائياً

انبتت أمعاني وهعت بكل قوة فتراشق طراشي في وجوه من
يجاورني في مؤخرة السيارة.

كنت أسمع صيحات الاستنكار، وقد برزت تلك الصور من
مخيلتي مشمئزة، وعينا حياة تعرضان عني بعيداً وقد زمت شفتيها
بضيق.



لم أطق البقاء في فرسان.

وصلنا إلى ميناء خلة ضحى. كان القارب الشراعي الذي أقلنا
نتقاذفه الرياح في ليل بهيم، وكلما حاول الناقذة السيطرة على دفته
انحرف في اتجاه آخر، في الليل ظهرت أضواء تتراقص من بعيد
فصاح أحد البحارة:

- نحن بداخل اليمن.. انظروا تلك أضواء جزيرة بكلان.

فتصايحنا جزعاً، وكنا نسمع أصوات الرجال فائرة وهي توبخ
الناقذة:

- جئنا هاربين فإذا بك تسلمنا للموت بكل هذه السهولة.

حركتنا الجماعية جعلت القارب يتمايل ويموج بحركة مضطربة،
كان صوت الناقذة ضائعاً بين تلك الأصوات المتداخلة، وتعالى
شتائمهم بين الحين والآخر:

- أأنتم كالحمير تردون على النهيق بأحسن منه.

- نحذرك فتشتمنا.

- الشتم هو الشيء الوحيد القادر عليه الآن، فهذا الذي صاح

إنها جزيرة بكلان ما أدراه بذلك.

جاء صوت من بين الركاب واثقاً:

- أعرفها من أنوارها المتفرقة.

- أي أنوار؟ ألا ترى الدنيا مظلمة؟ والله لولا ما نحن فيه من
كرب لعلمتك درساً لا تنساه أبداً.

- وتلك الفوانيس التي تترأى لنا؟

زفر الناقذة:

- تلك مراكب واقفة.

صاح راكب آخر فزاد خوفنا:

- هي مراكب الجيش اليمني.

فصاح غيلان مقتصاً لنفسه من شتيمة تلقاها من الناقذة في
بداية الهرب:

- يبدو أن نجم أمك نائم هذه الليلة فحملتنا إلى هنا.

- سأعرف كيف أجعلك لا تخرج لسانك من بين فكيك، ولكن
ليس الآن.

وصاح ببحارته:

- أرحوا الأشرعة وانحرفوا بمقدمة المركب.

وأطلق شتيمة بذينة عابه عليها بعض الرجال:

- انتبه معنا حريم وأطفال.

فرد بضيق:

- ومن أين خرجوا، هم يعرفونه أكثر منا.

وأعاد نفس الشتيمة ومعها أمر بإطفاء نور الأتريك الذي كان ينير من مؤخرة المركب.

قال أحد الركاب بفرع:

- هل حقاً نحن باليمن؟

وعندما لم يجد جواباً قذف بنفسه للبحر فسمعنا ارتطامه بالماء وصرخة فرقة قبل أن يغوص بداخل المياه كسمكة حنت للقاع.

ساد صمت ثقيل للحظات، وغر القارب في اتجاه معاكس يشق الماء بثناقل وسواعد البحارة تجذف بهمة. كان الخوف لا يزال ينخر صدورنا، فتتهطل الوسواس بكثافة وتشكل في صور متعددة لنهاية هذا الهرب، جذبت جبريل من حوكة:

- لو بقينا في قريننا لما احتجنا لكل هذا التعب.

زفر بضيق:

- كف عن نعيك ليس وقتك الآن.

تكوم بناتي في حضني وظل يوسف يهوى بكل ما في أمعائه، فانبعث بيننا «صتة» اختلطت برائحة البحر وحرضت بقية الركاب على سفح ما بدواخلهم.

رائحة نتنة لازمنا طوال الوقت كانت خليطاً من تقيؤ وبقايا سمك تحلل فامتزجا وفاحا مخلقين رائحة نتنة أخذت تجوب المكان بتلكؤ، ولم يفلح هواء البحر المنعش من جذبها بعيداً عن أنوفنا.

كنت أشعر بلزوجة التصقت بشبابي بينما واصل يوسف التقيؤ

وقد شاركته ليل، ولم أجد بداً من أن أجعلهما يفترشان ثوبي ويلصقان به كل ما تقذف به أعماقهما.

مع الفجر ظهرت من بعيد جزر متناثرة وهب هواء لطيف أنعش الكثيرين منا، وصاحب مركبنا سمك أبو سلامة الذي كان يقفز عالياً وينزل لدخل المياه بانسياب.

انتعش الناخوذة ولف ورقة تبغ وتناول كأس شاي مسود وارتشفه بمهل، وأخذ يدندن غير ملتفت لغمزات الركاب المتبادلة وهمهم الساخر.

أجساد منهكة ووجوه سمراء استقبلتنا على الميناء، كان نزولنا عاجلاً، قذفوا بالأطفال من المركب قذفاً لتستقبلهم أذرع رخوة فتساقط عدد من الأطفال من بين أيديهم، لينشلوهم مرة أخرى من الماء - كما ينتشل سمك انزلق من بين أياديهم المدربة في اصطياد السمك الطافي - مبدلين ندماً مفتعلاً.

كنا مجموعة كبيرة، توجه نصفنا أو يزيد صوب أناس تربطهم بهم علاقة ود قديمة، أو علاقة مصاهرة أو رحم، وظل البقية ينتظرون على الميناء بحثاً عن يؤويهم، وعندما طال الانتظار تحرك بعض الرجال ونصبوا أخشاباً غطوها بأشجار متعددة اقتطعوها من تلك الأشجار المحيطة بشاطئ البحر.

أيام طويلة وعملة ونحن نفتش هذه الناحية ونتلقت أخبار الحرب من خلال راديو قديم يوشوش طول الوقت، أو من أفواه بعض الهاربين من جيزان.

قدم أحد البحارة يرف البشارة بصوت مرتفع:

- اتفقوا على إيقاف الحرب.

شعرت أن الدنيا تتسع وأن علي مغادرة هذه الجزيرة النائمة قبل
أن تستيقظ وتلقي علي بشباكهها فأظلم كسمكة لا تقدر على الفكك،
قلت لجبريل:

- لم أعد أطيع البقاء هنا.

- انتظري حتى نتأكد من خير انقطاع الحرب.

- لن أبقى يوماً واحداً.

وافقتني أمّنة زوجة غيلان، وشاغلت زوجها فعدنا مع أول
مركب متجه لجيزان.



استقبلنا في جيزان استقبال العائدين من الموت.

أخذ الجيران يتمسحون بنا ويرددون بتعجب:

- سبحان محبي العظام وهي رميم.

- قيل أنكم قتلتم بجوار الميناء.

- هل حقاً نجوتم؟!

كانت الدهشة تعقد ألسنتنا أمام ذلك الاستقبال الحار،
والزغاريد الملهبة وفرقعات (الشحات)^(٢٩) واختلاط الرجال بالنساء
وهم يهتفون بسلامة الوصول.

وكان غضب غيلان فائراً يشتم كل من أشاع أنه قتل ويتهمهم

(٢٩) الشحات نوع من المفرقات يستخدم في المناسبات السعيدة ويبدو أنها بديل
من استخدام الطلقات النارية، فقد كان إطلاق الأعيرة النارية هو التعبير
عن الفرح، وفي الحجاز يقال له طرايع.

بأنهم يتمنون له الموت، ولم يكف عن شتائمهم إلا بعد أن نهزته أمّنة
بصوت غليظ:

- وهل تملك شيئاً حتى يتمنوا لك الموت، يبدو أنك وصلت
للخرف مبكراً.

وعندما أراد أن يقف في وجهها صاحت به:

- أخرج واستقبل الرجال قبل أن أترك لك البيت.

فأذعن كطفل صغير وتحرك مرحباً بتلك الأصوات التي كانت
تناديه من خارج البيت.



كان علي أن أتوجه مباشرة لبيت صالح الحنوني إلا أن
الاحتفالات المبالغ بها في استقبالنا أخرتني كثيراً، وكلما حاولت
الخروج عابت علي أمّنة هذا التصرف:

- ماذا يقول الناس جئنا نبارك لهم بسلامة الوصول فتركونا
وخرجوا.

فأظلم محتفظة بنقمتي على هؤلاء النسوة الجالسات والمسكات
بأماكنهن وكأنهن في الجنة.

مضت ليلة بطولها وأرجل النساء وتحياتهن لا تنقطع. كنت
لاهيّة عما يتحدثن فيه، وقد حاولت إحدى المسنات فتح حديث معي
لكنني في كل مرة كنت أصدها بافتعال أو الاشتغال عنها، وفي كل
مرة تريد أن تتحدث أسكتها ويبدو أنها اغتاظت فأمسكت بكتفي
وهزتني:

- هل عرفت بمقدم...

وكمّن يريد أن يبعد آفة عن طريقه رددت عليها قبل أن تكمل
جملتها:

- نعم عرفت

سمعتها تقول: الحمد لله

وخرجت وهي تغمرني بابتسامة كبيرة.

في صبيحة اليوم التالي قررت الخروج لبيت صالح الحنوني وليتقول من يشاء. خرجت بعد أن تركت أمانة تغلي في غضبها وتهمني بقلّة «الناموس»^(٣٠) مع الناس. سحبت ابنتها عائشة معي وخرجنا صوب بيت صالح الحنوني بعد أن أوصيت فاطمة بالانتباه ليوسف.

في فناء بيت الحنوني كان حمار أمي مربوطاً بوتد قصير وهو يلوك عجوراً يابساً، توجهت للمطرح وأمسكت بعنقه وأحسست بحاجة لأن أحدثه وخشيت أن تهمني عائشة بالجنون فاكفيت بسؤال حار تدفق لداخلي:

- أين تركت يحيى؟

وانسحبت لداخل البيت قبل أن ينبت شيء ما في غيلة عائشة.

كانت النساء لا زلن محتفظات بدموعهن الندية، وامرأة صالح كانت تجلس في «امربع»^(٣١) دامعة وقد أكلها الحزن وارتدت محرمة

(٣٠) قليل الناموس تعني قلة الأدب واللياقة.

(٣١) امربع هو مكان مترو من العشة يجلس فيه أصحاب العزاء لنقل الواجب، وعادة ما تقتعد المرأة التي تفقد زوجها ويغالي في احتجاجها لدرجة أنها لا تنهض من هذا المكان لأيام طويلة وتصل فترة العدة كحزن إلى الستين.

سوداء ومن حولها حف بها نساء كثيرات.

سمعت أن ابنها دفن دون أن يعثروا على يده، وزوجها رتقت رجله رتقاً بدائياً ودفن مع ابنه في قبر واحد.

كنت أنتهز الفرصة للاقتراب منها وسؤالها عن الحمار، كانت خادمتها تنفّس في ملاحي، وعندما قدمت لي فنتجان القهوة، اقتربت مني سائلة:

- هل أنت غريبة؟

هرزت رأسي بالإيجاب وقبل أن هم بالانسحاب خاطبتها على عجل:

- أريد أن أكلم سيدتك على انفراد.

- لا تستطيع أن تترك «امربع» الآن، انتظري حتى يتخفف الناس.

وتحركت لسيدتها وهرزت فمها بأذنها فنظرت صوبي وهرزت رأسها لخادمتها لتنسحب بعيداً عنها.

ظللت في مكاني، وبعض النسوة يتبادلن النظر وعيونهن تتساءل: من أكون؟

وبقيت عين تلك الخادمة معلقة بي أكثر من سواها، بعد صلاة الظهر تخفف كثير من النسوة وبقيت زوجة صالح في مكانها ومن حولها سيدتان عرفت ممن تجاورني أن إحداها أختها والأخرى سلفتها.

اقتربت منها وعزبتها بكلمات مقتضبة سريعة ووقفت الكلمات في فمي فهمست:

- قالت جمعة أنك تريدني. خيراً إن شاء الله.

- أعرف أن الوقت غير مناسب لسؤالي، ولكن إجابته تعني لي أشياء كثيرة.

- أسألي.

- هماركم المربوط بالخارج من أين جئتم به؟

!!!!!!

- هذا هو سؤالي لكنك لو تعرفين القصة التي خلفه ستجيبيني في الحال.

- هذا حمار أهده رجل لزوجي قبل زمن طويل.

- من هو هذا الرجل؟

- رجل يسكن بمدينة جدة يدعى طاهر. لكن ما هي قصتك؟

- هذا الحمار حجت عليه أُمي قبل ثماني سنوات ومعها ابني

وقد تاه منذ ذلك الزمن.

- أنت أم يحيى؟

شعرت بقلبي يسقط ودموعي تفيق وصوتي يتحب:

- نعم أنا أمه هل تعرفين طريقه.. أنا ميتة من فراقه، بالله

عليك أخبريني.

وارتفع نحيبي حتى ظن بعض الحاضرات أنني أبكي الميتين

فتجاوبن بصراخ حاد وتعداد لمحاسن الموتى^(٣٢)، جذبتني زوجة صالح

(٣٢) جرت العادة أن التي تأتي للعزاء تصيح من خارج البيت بصوت مرتفع

وهي تعدد محاسن الميت وعندما يسمعون أهل البيت والحاضرات في العزاء

يجبهن بصوت مماثل وتعداد محاسن الميت ويتعالى الصراخ والبكاء.

لحسنها وأخذنا تتبادل القبلات والبكاء، كنت أنتفض في حسنها وهي تنتهنه وتحاول إسكاتي:

- يحيى بخير فلا تهزعي.

- بالله عليك دليني على طريقه.

- سمعنا أن ضربة القوارب أصابتكم ولم تبق أحداً منكم.

- حين هربنا لفرسان لم نهرب عن طريق الميناء وقد سمعنا

بالضربة التي ضربت قوارب الصيادين، ويبدو أن من أشاع مقتلنا كان

يظننا نقف على الميناء أثناء الضرب.

ضمتني لصدرها وهي تتناشج ورددت بفتور:

- يا خسارة

....

- لو تعلمين أن يحيى...

نفرت من بين يديها:

- ما به يحيى؟

بيطاء وحذر قالت:

- يحيى كان هنا

- ماذا؟ متى... بربك أين هو؟

صمتت وأخذت تتبادل النظر مع خادمتها بينما أحاط بنا أولئك

النسوة القليلات، وإن كانت سلفتها أكثر جزعاً عليّ وهي تربت على

ركتفي:

- ابنك بخير فلا تخافي.

قبلت ركة حليلة زوجة صالح وأنا أستحثها بتلهف:

- أين هو؟

شدتني حليلة من كفتي وهي تقول:

- أستغفر الله يا أم يحيى لا تفعلي بنفسك هكذا، ابنك بخير
وكل ما في الأمر أنه سافر.

- سافر!

- إهدني وسأخبرك بكل الحكاية.

أخذت أكفكف دموعي وأستحلفها بالله ألا تخبئ شيئا عني،
رأيت خادماتها تقف على رأسي بطاسة ملئت بالماء فتناولتها حليلة
وغلست وجهي وهي تردد:

- إرفقي بنفسك.

كانت عائشة بنت غيلان تنظر إلينا ببلادة. وبين لحظة وأخرى
تظهر ملهيا بمطاليتي بالعودة، فأمسكت بها أخت حليلة وقالت لها:

- عودي وأخبري أمك أن مريم ستكون ضيفتنا.

فتحركت عائشة وهي تخلط الكلمات خلطاً متبرمة من العودة
بمفردها في تلك الحمأة الملتهبة، كنت أجلس وعيناي معلقتان بلسان
حليلة وفي كل مرة أردد بجزع:

- هل حدث مكروه ليحيى؟

- قلت لك لم يحدث شيء فاهدئي.

- أحس بك تماطلين في حديثك.

- يحيى كان هنا، وسمع أن ضربة القوارب قصفتكم، وأنكم
متم جميعاً وقد رحل من هنا قبل أسبوع.

- إلى أين؟

- لا أعرف بالتحديد ولكن في الغالب عاد إلى جدة.

- وما أدراك؟

- ربما لا يزال مع طاهر الوصابي صديق المرحوم وهو الذي
أهدى زوجي الحمار الذي جئت تسألين عنه.

- وأين هذا الطاهر؟

- في جدة.

- هل أنت متأكدة؟

- لا عليك. سوف نتأكد من هذا وسوف أبعث له خيراً بموت
صديقه وأطلب منه أن يأتي ويخبر يحيى أنك هنا فقري عينا.

- وكيف حال يحيى؟

وقبل أن تحجب قفرت خادماتها باستبشار:

- عندما رأيته أحسست بأنك أمه فهو يشبهك كثيراً في ملامح
وجهه وإن كان فارغ الطول وبشرته أكثر صفاء منك.

وقضيت يومي بطوله في بيت الحنوني وقد جذبت يد جمعة
وجلست أسألها عن يحيى.

مع الغروب جاءت آمنة زوجة غيلان تلومني وتلوم حليلة على

إمساك ضيفتها عنها دون أن تستأذن منها، فكانت حليلة تعتذر بلطف
خيال عشوائية سيل كلمات آمنة.



ظلمت بجيزان أنتظر رد طاهر الوصابي على رسالة بعثت بها
حليلة. كانت الأيام تسير بطيئة مثاقلة، وقد عادت آمنة لتبرمها من
بقائها، وكنت أشعر بثقلنا عليها فبناتي لا يستطعن النوم بارتياح حيث
حشرنا جميعاً في تلك العشة الوحيدة، وفي الليل تنتشر القعائد بفناء
البيت وننام عليها بدون فرش فتمضغ الحبال جلودنا، لنستيقظ - هذا
إذا تمنا - وأجسادنا مخضبة بآثار تلك الحبال التي لم (توضن) وضناً
متقناً.

وقفت تلك العجوز أمامي تغمرني بابتسامتها ولاكت كلماتها
بعجل:

- هذا التقيت ببحي؟

كنت لا أزال أشعر بنفور اتجاهها فحاولت الانشغال عنها، كما
فعلت سابقاً. لكن جللتها القصيرة جعلتني ألثف حولها التفاقاً:

- إنه يشبهك تماماً.

- وكيف عرفت؟

- لقد جاء إلى هنا.

وسردت لي مجيئه ووقوفه ببيت غيلان، وحزنه الذي كان يسيل
من بين أهدابه وتقبله العزاء فينا.

وختمت حديثها برغبتها بأن ننقل إلى بيتها:

- أنا امرأة وحيدة. تعال أنت وبناتك وسأجلسكم في عيني.
قبلتها وشعرت بالندم لجفوتي في معاملتها.

كنت كلما ذهبت إلى حليلة أسأله:

- هل رد طاهر على جوابك؟

تكون إجابتها نافية وتحاول تبسيط الأمر.

لم نعد قادرين على تحمل تعنت آمنة وخصامها المتواصل وتبرمها
المعلن، وكنت أشعر بالغبن دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة. فقد كان
أبناؤها يضربون يوسف ضرباً مبرحاً لأي تصرف يصدر منه، فأضمر
ابني لحجري والوك كل الشتائم التي يمكن لها أن تحفف عني.

قالت صالحة زوجة جبريل:

- لم أعد قادرة على البقاء يجب أن نعود لقرينتنا.

شعرت بسكين حاد يخترق أحشائي، فلاطفتها بود:

- يا غارة الله عليك يا صالحة، كيف نعود وأنا لم أسمع خبراً
عن يحيى؟

- ابق أنت. أما أنا فسأعود لبيتي، ألا ترين هذه الحرياء ماذا
تفعل بنا؟

حاولت أن أثنيها عما عزمت عليه بالتخفيف عنها وإرجاع فورة
غضب آمنة لطبعها، لكن صالحة كانت قد بلغت حداً لا تغيد معه كل
الكلمات، والتقت رغبته برغبة زوجها وقررا العودة.



وصلنا إلى قرينتنا وكانت مفاجأة لم أتوقعها تنتظرني.

كانت معظم البيوت مهجورة وحين أطللنا على القرية من الجهة الشمالية تلقفتنا أيد قليلة فرحة بعودتنا، كان صباحهم عالياً وهم يتساءلون:

- هل التقيت بيحيى؟

- يحى كان هنا.

- ذهب لجيزان لرؤيتك.

كنت أبادلهم الصباح وألطم خدودي بانفعال:

- هل حقاً كان يحى هنا؟

بكيت كثيراً ولت جبريل على تلك الهربة التي لم تزدنا إلا رهقاً، كنت أسأل عبدالله عمر عن كل كلمة تفوه بها يحى، وأمسك بشباب القرية أعرضهم أمام بصري وأصيح:

- هل أصبح في طول هذا.. في جمال هذا.. في فتوة هذا.

حدثني كثيراً عنه وكلما تفوه بكلمة عن رسائل يحى التي يرسلها أردت:

- ابني لا يكذب.. لعنة الله على طاهر هذا، خسيس، فسل.

وحزنت لخروجي من القرية، وزاد حزني ليقين يحى بأننا هتتا.

خف قلقي كثيراً لمعرفة أن يحى لا يزال حياً يرزق وأن الحياة لا زالت تركض في أوردته، فركضت لسجادي وركعت طويلاً واختتمت ركعتي بدعاء حار أن يجمع الله شملنا.



في الليل تعالى أصوات الكلاب نابحة باشتهاء ويتمدد نباحها

مختلطاً بصنعة الجنادب وحشمة أوراق السنابل المصفرة، ومن بوابة العشة ألح السماء متلاثلة بنجومها الموهلة فارتقي السماء بدعوات حارة أروها بدموعي وأسرح في خيالات شتى.

تنازعتني نفسي في البكاء فأبكي حتى تستطيب وأعود أمشط السماء بأمنيات مستعجلة.

أنتقلب في رقدتي والملح بناتي نائمات كالموتى ويوسف يحلق عليّ يديه ويغط في نوم هادئ. أشعر برغبة لتقبيله. كان ضوء الفانوس كفيلاً بكشف وجهه وعينيه الواسعتين المسبلتين، لشمته عدة مرات فارتسمت على محياه ابتسامة صافية وانغمس في نوم هادئ.

- آه.. أين أنت الآن يا يحى؟

في غيبتي وصلت رسالة من خديج حركت في داخلي الفرح، كنت أقض عليها منتظرة انبلاج الصبح لأقف على سماع أخبارها.

إسماعيل إمام المسجد لم يعد للقرية، يقولون إنه فضل البقاء في صيبا وهجر قريتنا وسكن بجوار صهره، كنت أقلب في رأسي سؤالاً حائراً:

- من سيقراً لي هذه الرسالة؟

وأنفحص مطروفاً على ضوء الفانوس المتهالك أقبلها وأشممها وأضمها لصدري:

- لو تعلمين يا خديج أن يحى جاء إلى هنا ولم أره.

كنت على وشك البكاء لكنني تراجعت وحمدت الله على أنه لا يزال يسعى في الأرض ممثلاً بالحياة، وأنشرح خاطري، وكلما أغمضت عيني نأى عني النوم ودفعت الليل بخواطري مستعجلة بزوغ

الفجر، وأخذت أفكر فيمن سوف يقرأ لي هذه الرسالة.

طوال اليوم كنت أبحث عن شخص يقرأها فلم أجد، وكنت ضئيلة على مدحها لأحد من رجال الجيش الذين كانوا يتزودون ببعض المون البسيطة من داخل القرية. خطر بالبال عمر يحيى، ذلك الرجل الذي ألهقني بإظهار رغبته بالاقتران بي، وقف في خيلتي ورننا بعينه فاعترائني الضعف وحاولت إبعاده باستحضار صورة يحيى. كانت ملامح يحيى غائمة تقف للحظات وتلاشى وتعود ملامح عمر يحيى تستحل خيلتي يقف بقامته المديدة وعينه الواسعتين السوداوين ورجولته التي تفوح برائحة كرائحة شجرة الطلح، ألمحه يقترب ويحيطني بذراعيه، يعصرني ويعصرني ويتدفق كسيل جارف يطوح بي بين مياهه كشجيرة ليس أمامها سوى الاستجابة لذلك التدفق والركض معه لمتناه، شعرت بالارتواء واسترخت كل مفاصلي وتسلسلت لنوم هانيء.

مع صباح الديكة أفقت، تشاغل بالكنس والخبز وملاحقة الدجاج الذي لم يعد متبقياً لنا سواء، كان الضحى يقترب رويداً رويداً، لم أطلق البقاء فخرجت أحمل رسالة خديج ولا يزال عمر يحيى يقف بالبال. وازيت بيته تماماً وهممت بأن أصرخ به، تخشب لساني وأحسست بعيون أبنائي منكسرة وهي تقف على فعلتي المشينة، وصوت يحيى يعنفني باحتقار. حاولت دفع نفسي دفعاً لكي تستجيب لهذه الرغبة الطارئة فأبت، تراجعت وابتعدت عن بيته بسرعة متناهية وسرت بمحاذاة الحقول اليمانية، قاطعني في نصف الطريق، كان سعيداً برويتي:

- مرحباً أم يحيى متى عدتم؟

- قبل البارحة.

كان ممسكاً بينديته وينظر إليّ بإجلال، شد ذقنه وتمتم:

- ما هي أخبار يحيى؟

- بخير.

- هل سمعت عنه خبراً؟

هززت رأسي هزاً هيناً، وتحركت لمفارقته، استوقفتني بلطف وغمغم:

- لا زلت راعياً في ابتك حسنة.

شعرت بنار تغلي في داخلي، وأردت أن أوقف رغبته بصوت صارم:

- حسنة لا تزال صغيرة ونحن لا نعرفك ولا يمكن أن أفارق ابنتي.

- يمكن أن أتزوجها وأتركها عندك وسأدفع أي مهر تطلبينه فأنا من أسرة ميسورة الحال.

- ولو دفعت مال الدنيا.

- فكري جيداً، فحالكم سيختلف كثيراً.

- أنت جئت للحرب أم للزواج؟

واكتفيت بجملتي تلك ومضيت مسرعة ومبتعدة عن عينيه الدوديتين.

طفت حول القرية علني أجد من يقرأ رسالة خديج إلا أنا وأولئك الذين يقرأون غادروا القرية ولم يعودوا بعد. لا أدري لماذا شعرت بغصة حين علمت أن عمر يحيى هرب مع الهاربين ولم يعد،

فدوى في غيظتي وقامتة المديدة تراخت وبقيت رائحته - التي تشبه رائحة شجر الطلح - عالقة بأنفي.



بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت الغالية مريم خالدية
المحترمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لم أكن في يوم من الأيام بشوق لرؤيتك كما هو الآن، الله يا مريم تغير الحال ونزلت بنا المصائب كأنها مطر، وكل ما نزل بنا مكروه أتذكر حلم أُمِّي - الله يرحمها -، ها نحن كحبات الرمان يلتقمننا الديك الذي رأته في حلمها.

سمعنا بأخبار الحرب وخفت خوفاً عظيماً عليك وعلى أبنائك خاصة وأن الحرب قريبة منكم، وتنتيت أن أخرج لك أو أرسل لك أن تأتي إلينا فقريتنا لم تعد تصلح للحياة، ولكن حدث حادث كدر صفوي وقلب كياني.

أخبرك أن حسن دخل السجن ولا أعرف مصيره، وكأنه تكلم كلمتين فسحبوه للسجن، وأنا كنت أخاف عليه من الشباب الذين يمشي معهم فكلمهم من أغنياء البلد، وكنت أقول له:

- اخنا ناس على قد حالنا وما لك ومال الخط المعلق.

فكان يضحك من كلامي، ولا يريحي، وهو ذلحين مرمي في السجن ولا أعرف ماذا أفعل، فادعي الله أن يجنبنا كل مكروه ويفك سجنه.

مريم: حالتي كرب، والله يعلم أنني أمشي وأنا في هم لا أعرف ماذا أصنع، وقد وسطت ناساً كثيرين من أجله لكن بلا فائدة، وكل ما قلت لإبراهيم أسأل عن (أخوك) رد: هو اللي جاب هذا لنفسه. كنت حزينة على فراق يحيى وكنت أحاول أن أخفف عنك وعندما جريت فراق حسن أحسست بحرقتك ولهفتك الله يرد علينا الغائبين ويغير خواطرننا.

آوه... يا مريم. أنا كتبت لك هذا الكتاب من أجل أطمئنك فإذا بي أكرر عليك بأخبارنا.

الأخت مريم:

أسألك بالله أول ما يصل جوابنا تبعثي بأخبارك وتطمئنتنا. أرسلت لك مبلغ مائة ريال واعذريني فهذه الأيام أنا لا أعمل، فطوال الوقت أقف على أبواب الناس من أجل أن يتوسطوا لإخراج حسن من السجن.

وفي الختام سلامي على نفسك وعلى أبنائك وعلى جبريل وأبنائه وعلى كل من يسأل عنا.

أختك خديج خالدية

حرر بتاريخ ٢٣ - ٤ - ١٣٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخت خديج خالدية

حفظك الله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحوالنا لا تسر عدو ولا حبيب، فقد جاءت هذه الحرب

وقلبت حالنا، لقد هربنا إلى جيزان ومن هناك إلى فرسان وتعبنا تعباً شديداً، والذي يحزنني أن يحبى جاء إلى هنا، تصوري يا خديج يحبى جاء إلى قريتنا وسأل عني فقبل له في جيزان وذهب إلى جيزان فقبل له أننا متنا وعاد مرة أخرى إلى جدة، يحبى في جدة يا خديج مع رجل اسمه طاهر ربنا يجمع شملنا عن قريب إنه سميع مجيب.

أسفنا لما حدث للابن حسن فرج الله كربته وأخرجه من سجنه، ولم أفهم من رسالتك لماذا سجن، تقولي قال كلمتين، فهل يسجون الناس لأنهم يتكلمون؟

ما في يدي إلا الدعاء أن يجمع الله شملنا إنه على كل شيء قدير.

أخبرك يا خديج أن رسالتك استلمتها بعد عودتي من جيزان والذي سلمتي لم يعطيني فلساً معها.

وعندما أخبرته أن مع الرسالة مائة ريال وصية نكر وحلف حلفان تهنأ له الجبال وقال إنه استلمها بدون فلوس ويبدو أن الحرب غبرت النفوس كل واحد يريد أن يأكل أخاه، الله يعوضنا من فضله ويرزقك من حيث لا تعلمين.

في الختام أدعو الله من كل قلبي أن يجمع شملنا بالغالين ونندراً علي أن أحمل يحبى وحسن وأزور بهما قبر المصطفى.

سلامي على نفسك وعلى الابن إبراهيم وقولي له تقول لك خالتك مريم الإخوة في الدنيا أما الآخرة بخت تلقاني، فعيب عليك يا إبراهيم تترك أخاك في السجن ولا تسأل عنه.

وفي الختام سلامي على نفسك وعلى حسن وإبراهيم وربنا يفرج كربة حسن.

ملاحظة: هذه السنة لم أقدر على الحج، أتمنى أن أحج السنة القادمة بصحبة يحبى، قولي آمين.

أختك مريم خالدية

حرر بتاريخ ١٢ - ١١ - ١٣٨٣

لم يأت خبر عن يحبى.

كنت أرسل خديجة وحليمة وكل منهما لا ترد على خطاباتي.

✽ ✽ ✽

وصل خطاب من خديج بعد عدة أشهر تسأل:

- من هو طاهر؟

ذكرت اسم طاهر في خطابك دون أن تذكر لي لقبه، وجدة ليست كالقرية فهنا أناس كثيرون، ننتظر رسالة تخبرنا فيها من هو طاهر واقتراح عليك الرحيل إلى جدة ليجتمع شملنا. فما دام يحبى هنا فسنجده، ولو فكرت بالمجيء فعنواني حارة العمارة بالقرب من القرن الكبير إذا وصلت إسالي عن ناجية وسيدلك أي شخص. أتمنى أن تحضري.

ولم ينغص علي إلا تلك الجملة القصيرة المبتورة التي ختمت بها رسالتها:

- حسن لا زال في السجن وعذراً لا أستطيع أن أرسل لك شيئاً هذه الأيام فالحال لا يسر.

✽ ✽ ✽

ووصلت رسالة مقتضبة من حليمة تخبرني فيها بما يلي:

- عادت الرسالة التي بعثت بها لطاهر، فقد أخبرني من أرسلت معه أنه لم يعثر على طاهر فهو مسافر ولم يعد من شهر.

- لا بد من الرحيل قبل أن يضيع يحبي مرة أخرى.

نظر إليّ جبريل بغضب وخرجت كلماته من بين أسنانه:

- ومن سيصحبك في سفرك الطويل؟

- إذا لم تقدر أنت فسأخرج مع قافلة الحجيج لهذا العام.

- سيقفك أختك فيما تفكرين به الآن وكأنكما ليس لكما رجل تستشيرانه.

- وهذه ليست استشارة؟

- ولو قلت لك لا.

- استسمح منك وأسافر.

- إذا قد بيت النية ولا يهم أن أوافق أو لا أوافق.

- ابني سيضيع مني يا جبريل.

- ابنك رجل وسيعرف بأنك تنتظرينه، فابق في مكانك.

- يحبي يظنني ميتة.

- سيعرف ذات يوم الحقيقة ويأتي.

- أعذرنى يا جبريل، سأخرج.

- وأبناؤك لمن تتركينهم.

- سأحلمهم معي.

- إذا وجدت شيئاً زائداً في يدك أخرجني.

ونفض مؤخرته وخرج غاضباً.

أيام الحج تقترب وليس معي ما يحملني للرحيل، كنت أمضي الليل أفكر في وسيلة لجلب مال يقلني لعدة.

فكرت في خديج كثيراً وقررت أن أرسل لها طلباً لنقود تساعدني بها للسفر، هذا القرار تبخر حين تذكرت تعذرها في رسالتها الأخيرة، وأنها توقفت عن العمل واستندت على ما يحصل عليه إبراهيم من عمله كمجاود، وظلت تبكي حسن حتى وإن استطاعت أن تبعث بشيء فإن هذا يتطلب وقتاً من الزمن ستكون قوافل الحجيج خلاله قد رحلت.

- آه كيف يمكن أن أحصل على النقود؟

لم يعد هناك أي شيء صالح للبيع، وليس بالقرية من يقترض ماعونة، فكيف إذا طلبت مالاً.

أصبحت لا أفكر في شيء. فقط كنت أفكر كيف يمكن أن أحصل على مال يلغني الغالي.

طفرت تجارته فجأة. ويقول أهل القرية عنه أقوالاً معكرة ولم يجرؤ أحد على معاداته علانية، كانت تجارته تنمو كما تنمو أزهار الخبث عقب موسم ماطر، يقولون إن حمد ترك عنده ثروة ضخمة ثمناً لتلك الأسلحة التي اشتركا سوياً في تهريبها، همست في أذني حفصة بنت مبارك:

- اذهبي إليه عله يقترضك، ذكره بقرابتك من حمد.

وقفت على دكان حسين منجلي متمنية عليه أن يقرضني، وأول ما سمع طلبتي كشر عن أنيابه المتساوية، محاولاً التحدث بصوت هادئ:

- يا مريم لا زالت أشباح الحرب تقف على هامتنا وأنت تطللين قرصاً.

- لك وجهي أن أعيده إليك أول ما أصل جدة.

- وجهك عندك وأنا لا أستطيع أن أقرض أحداً.

- أنت تعلم أن حمد ابن عمي، فمن أجله مد لي يد العون.

- قبحه الله، إنه رجل فاسد الطوية، ألم تجدي من تتشفعين به سوى هذا المعطوب؟

ودخل إلى دكانه وتركني واقفة أنتظر، وعندما أحس بوجودي صاح من الداخل:

- على الله يا مريم (٣٣).

اهتززت وأحسست أنني أنهار دفعة واحدة فصحت به:

- وهل جئت أطلب منك حتى تقول لي: على الله.

- قلت لك على الله وافهميها كما تشائين.

قلبت ميزانه صائحة:

- أستحق ما يأتيني من أمثالك، فأنت كالكلب إن شبع نبح وإن جاع نيب (٣٤).

(٣٣) لفظة على الله تقال للمتولين. وفي المنطقة الجنوبية بالملكة يقال للمتول: طالب وقملها يطلب.

(٣٤) نيب: مأخوذة من الأنياب ومعناها: العض الشديد للكلاب المسعورة.

خرج كالثور الهائج، وأمسك بيدي وزيد شديقه يتطاي:

- والله لو لم تكوني حرمة لقطعت لسانك.

فوقف بيننا خلق كثيرون ينظرون إلينا بتعجب واستغل تواجدهم وأخذ يشكي إليهم مني:

- اشهدوا على هذه الحرمة جاءت تطلب قرصاً وعندما امتنعت شتمتني.

كان كل من حولنا صامتين يقلبون أبصارهم بيننا ولا يحIRON جواباً، وأنهى حديثه بنفس تلك الجملة الحارقة:

- قلت لك على الله.

اشتعل بداخلي الغضب. كنت أبحث عن شتيمة أقتص بها منه وأطفئ غلي فتطايروا كلماتي. أذكر أنني قلت له:

- لولا الخيانة لكنت الآن لا تزال تبيع الدوم.

اتسعت حدقتا عينيه وأقبل عليّ يود صفعي، فحال بينه وبين بعض الرجال وهو يردد:

- قلت لك على الله والخائن والد عمك حمد.

- أنت وهو خونة.

- لو ذكرت الخيانة مرة أخرى فسأقبرك مكانك.

- خائن بن خائن.

تفلت من أيدي الرجال المسكين به وأقبل عليّ كالثور الهائج، فاحتमित برجلين يجاوراني، فمناعه عني ودفعاني للعودة، كنت أسير برصوته يتبعني:

- ليس لك رجال يمكن أن أنفاهم معهم، والله ثم والله لو رأيتك تقفين على دكاني لكسرت رجلك.

عدت كسيفة إلى البيت، وقبل أن أستقر كان جبريل يقف على رأسي والغضب يتطاير من عينيه:

- خيرة الله عليك يا مريم.

- خير يا جبريل.

- من أين يأتي الخير وأنت لك في كل يوم حكاية وكل يوم وأنت (موطية) رأسي، ألم تجدي سوى المنجلي لتطليبي منه قرصاً ألا تعرفين أنه رجل مشبوه.. رجل ليس له ذمة ولا دين؟

كان صوته يتشقق وأطرافه ترتفع صوب وجهي بتوتر، وكلما حاولت تهدئته نفرت عروقه وزاد هياجه وقسمه يثر في أذني كطلقة رصاصة من فوهة بندق قديم عبرت رأسي:

- حرام وطلاق من زوجتي إن خرجت وسألت أحداً لاكسرن رجلك وليكن ما يكون.. ومنحني ظهره على عجل دون أن يسمع مني كلمة واحدة.

في ذهابي وإيابي بحثاً عن من يقرضني، ألتقي به، فأعبره وعيناه الدوديتان تتسعان وتسيل من فمه كل كلمات الترحيب، في آخر مرة تجرأ وفاتحني هاشاً:

- مرحباً أم يحيى.

.....

- ألم يأتك خبر عن يحيى؟

- وهل تركت جنديتك لتحرسنا.

- لماذا تعامليني هذه المعاملة؟

- انتظر حتى أقبل رأسك.

صمت، فتركته ومضيت في طريقي ليلحق بي متودداً:

- أكرر رغبتني: أريد حسينة زوجة لي.

- هكذا.

- سادفع لك ما تشائين من مهر.

تركته يتبعني بتوسلاته، وخطر لعين يتقافز من مخيلتي.

اسمه عبدالله المحماس، هكذا علمت من جبريل ونصحني بالموافقة على تزويجه بحسينة.

- وهل يرضيك أن أبيعها؟

- وهل أصبح الزواج بيعاً يا مريم؟

- يريد أن يدفع بها ما نطلبه من مهر وكأنها غنمة جلبت للبيع.

- هو طالب فاشترطي عليه ما تريدين.

- ولكن ابنتي لا تزال صغيرة.

- أمثالها حبالى نساء.

- لا لا. أخبره برفضي.

- فكري جيداً، فهو عارض خدمة أنت تستظرينها من زمن.

- وأي خدمة يمكن أن يقدمها هذا الدعي؟

- ولماذا تصفينه هذا الوصف؟

- أنسيت كذبه وادعاءه بمعرفة يحيى؟

- كان الرجل يريد أن يتقرب منك بما تحبين.

- ولو. في النهاية هو رجل كاذب.

- هل عرفت ماذا سيقدم لك؟

.....

- سيحملك إلى جدة، ويتعهد بأن يوصلك لابنك مهما كلفه ذلك من مشقة.

.....



حفصة بنت العولق: سمعت يقولون مريم خالدية ستزوج ابنتها حسينة من الرجل الشرقي.

ليل طالبة: مريم تباع ابنتها لكي تحصل على نقود ولولا ذلك فما الذي يجبرها على تزويج زينة بناتها لرجل لا تعرف عنه شيئاً إلا أنه جندي جاء للحرب.

آمنة بنت عبدالله حسين: يا ناس خافوا الله هذا نصيبها.

ليل طالبة: نحن نخاف الله، لكن مريم أصبحت تباع كل شيء حتى بناتها لتصل إلى ولدها، ألم تسمعي بشجارها مع المنجلي.

- هذا رجل أفاك.

- ومريم أعماماها الفراق ويمكن أن تصاحب الشيطان.

عبدلية مساوي: مسكينة حسينة سوف تدفن شبابها مع رجل يكبرها بثلاثين سنة.

شوعية يحياية: كل هذا ليس مهماً، الكارثة أنه سيرحل بها إلى نجد.

- يرحل بها؟

- نعم يرحل بها.

ميمونة بكري: الرجال كالغربان يأتون ليسرقوا أفراس بناتنا.

عائشة جريان: عكروا حياتنا بهذه الحرب، من كان يصدق أن بناتنا تترك الخارج القرية، الله المستعان.

فاطمة يوسفية: يقولون إن جبريل وراء هذا الزواج.

ليل عبديّة: سمعت ويقولون إن الرجل الشرقي أعطاه مالا كثيراً ليسعى له عند أخته.

فاطمة موساية: سمعت أن حسينة رافضة هذا الزواج، ويقولون إنها عاشقة ابن المحرق.

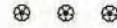
صالحة إبراهيمية: تعشق من تعشق فنهايتها أصبحت معروفة.

زينب يوسفية: مسكين عليّ محرق سيصيبه الكمد وهو لا يزال شاباً.

- مسكينة حسينة.

- مسكين ابن المحرق.

[من أقوال نساء القرية حين سمعن بعقد نكاح حسينة على
الرجل الشرقي]



جلست أنامل دجاجتنا وهي تنقم الأرض بهمة وتنفس جناحيها
وتمسح منقارها بمخالبها التي استطالت، وتقفز من مكان لآخر ناقمة
الأرض فيعلق بمنقارها دود تلتهمه بسرعة وتنش أماكن أخرى بحثاً
عن دود إضافي.

وقفت فاطمة في وجهي وهي تشير للدجاجة:

- الله يسخر لكل دابة رزقها.

- سبحانه.

- هل تؤمنين بهذا؟

تطلعت إليها بغضب وصحت:

- وهل تشكين في ذلك؟

- أفعالك تجعلني أشك.

- وماذا فعلت؟

- كل هذا وتسألين؟ يحیی خرج ليزودنا بالمال فضاع منا وانقلبت
حياتنا بحثاً وسؤالاً عنه، والآن تدفعين بحسينة للضياع.

- هذا نصيبها.

- لا.. ليس نصيبها.

- هل يغضبك أن تتزوج قبلك وأنت الكبرى؟

- يغضبني أنك تبيعيني من أجل نفسك.

- أنت قليلة حياء، ولم أعرف كيف أربيك.

- قولي ما تشائين لكن ما يحدث لحسينة ليس نصيباً بل صفقة
أنت الوحيدة المستفيدة منها.

- أنت لا تفهمين شيئاً؟

- أفهم كل شيء، أنت تظنين أن هذا الشرقي هو المبعوث
لنجدتنا، ولكي لا تسرقك أمنياتك أقول لك هذا الرجل يريد أن
يستأنس بشباب حسينة ثم يقذفها لك أرملة، وربما يحملها معه إلى
نجد فلا نجدها، ونظل نبحت عن يحيى وعننا.

- قولي أريد أن أتزوج ويحق لك أن تصرخي: لماذا تقدمين
حسينة علي وأنا الكبرى، هذا كل ما تريدان أن تقوله.

- أنت تغالطين نفسك ولا تريدان أحداً أن يوقظك مما أنت فيه.

- قلت لك تأدبي يا فاطمة.

- كل القرية تتحدث عن هذا الزواج ويقولون إنك بعت
حسينة.

- ليقولوا ما يقولون هذا نصيبها.

- ليس نصيبها بل رغبتك في الخروج لجة بمهرها.

- اسكتي.

- لن أسكت.

- قلت لك اسكتي.

وفي فورة غضبي تناولت حجراً غليظاً وصوبته على صدرها
فارتطم بكتفها الأيسر، لتسقط تناؤه، وأخذت أبكي بحرقة.



نضب زيت المصباح، فاحترقت عروقه وغفا في ظلمة غامقة،
كنت أتململ في رقدتي، ودموعي تنساب على خدودي بغزارة كلما
سمعت تأوهات فاطمة الراقدة على القعدة الخلفية لموقدي، كانت
تحاول جاهدة أن تكتم أنينها.

تورم كتفها ولم يجد الغمز انتفاخ مفصل كتفها فوضعت لها لبخة
من حر وملح ودقيق وعلقت يدها بربقتها بقطعة قماش بالية وأخذت
أدعو الله أن ينجيها عما أفكر فيه، وكلما سمعت تأوهات أحسست بنار
تشتعل في أعماقي.

الليل يبتلع آهاتنا ويتغلغل في المكان كإبرة دست في فراش
لين، ويهدأ كل شيء حتى تأوهات فاطمة خمدت ونهضت أنفاسها
تتردد برتابة وانتظام، وغرقنا في الظلمة والصمت، كنت أفكر
بحسينة:

(لماذا لم تعترض وهي التي ببرأ منها لسانها، لماذا لم تقل كلمة
واحدة، وظلت صامتة طوال الوقت وانسحبت لداخلها بهدوء
وسكينة، وظلت عيناها تراقبان تجهيز عرسها وكأنه يقام لفتاة
سواها...).

خيل لي أن صوت حجر ارتطم بعرضتنا.

كنت أهم بالنهوض لكنني تراجعت وعدت أقتات وساوسي
الكثيرة.

وقع حجر يرتطم بالأرض.

ذبلت حسينة لم تعد ريانة، ولم تعد ضحكاتها تجلجل بين
أختيها، وخذت تعليقاتها ونغزاتها، وتوارى رفضها لما لا يعجبها خلف
أهدابها الطويلة الناعسة.

وقع حجر يرتطم بعشتنا.

لم أكن واهمة هذه المرة، هل ثمة لصوص يحاولون سرقة هذا
البيت الخرب، وهل اللص يخبر عن مقدمه، ماذا يمكن أن يكون؟

شيء ما يتحرك من داخل عشتنا بحذر، استكنت في موقدي،
كنت ألح شبحاً ينهض من بين بناتي يتلصص بمراقدنا ويسير بحذر
وارتباك. عبر الشبح بوابة العشة للخارج فتطير شعر مسترسل لا
يكون إلا حسينة.

(حسينة! ما الذي دعاها للنهوض في مثل هذا الوقت؟..
أخرجت لقضاء حاجتها؟.. لماذا تسير بهذه الريبة؟.. أخرجت لتفقد
مصدر ذلك الحجر الذي ارتطم بعشتنا؟..).

نهضت في إثرها. كانت تسير صوب السجف المحاذي للمطبخ
وثمة شبح آخر انزوى بين أعواد القصب اليابسة، وحين رآها وقف
ماداً يده إليها فأسلمتهما إليه بلهفة وهي تهمس:

- ألم أقل لك لا تأت؟

- ساجن يا حسينة!

- وأنا مثلك، ولكن انتهى كل شيء.

- لا يمكن.

- في أوقات كثيرة غير الممكن يصبح ممكناً.

- هذا بيع.

- نعم بيع فهل تقدر على الشراء؟

ذوى صوته وبعد حين ارتفع متحسراً:

- تغيرت يا حسينة.

- قل ما تشاء. فقط أريدك أن تعرف... لا زلت أحبك.

- تحييتي وتزفين لرجل غريب.

- الغريب لديه المال، هذا المال الذي سيعيد أخي ليحامي بقيتنا

من البيع.

- سأقتله قبل أن يصل إليك.

- وهل تريد أن ترملني وتبعد أمي وأخوتي من الوصول ليحيى؟

صمت، فنهض صوته حارفاً:

- أوعدني أن لا تفعل شيئاً.

.....

- أوعدني.

- إذا لم أقدر على شيء سأقتل نفسي.

- وتركتني في هذه الدنيا وحيدة.

- أنت التي تركتيني.

- يكفي أن أحس بأنك بها حتى أقوى على تحمل ما سوف

يأتي، هيا لتتوابع.

- لا أقوى على ذلك.

- ستعذب قليلاً، هيا لتتوابع.

تركتهما ممسكين بأيدي بعضهما وانسللت لمخدعي، أحاول
جاهدة أن أكنم بركاناً همّ بالانفجار، كان شبحها قد تسلل وعادت
إلى مخدعها وأطلقت نحيبها بصوت مكتوم، فلم أقدر على إخماد بركاني
من الانفجار.



ليلة مضت كنت أظن أنه سيمسنا منها فرح.

كانت الزغاريد تخرج من حناجر النساء يابسة متخاذلة وترتطم
بوجوه بناتي اللاتي كن يحطن بحسينة.

كانت تجلس كشكل وقد يبست الحياة في جسدها الريان،
وتندت عيناها بالدمع وقد أحاطت بها قاطمة ليلي وبعض صويحباتها.

لم أسمع أياً منهن يبارك لها، فجميعهن يحطن بها ويطوحن
بأحاديثهن بعيداً عن تلك الزغاريد المتخشبة.

كنت أتقبل التهاني، والغمزات وغرس الأحاديث المدببة في
مسامعي، فأتشاغل عنها بالصياح لبعض الصبايا اللاتي كن يحملن
الباخر وحثهن بالدوران بها بين الحاضرات، وفي أوقات كثيرة أطلق
كلمات لا معنى لها.

كنت حزينة على حسينة وزاد حزني تلك القرارات التي حملها
عبدالله المحماس حين رفض أن تضاه الأتاريك، أو تطلق الأعيرة
النارية، وقفت في وجهه غاضبة:

- هذا زواج وليس موتاً.

(سمعت إحدى جاراتي تردد من خلفي: بل الموت نفسه).

ففتح فمه عن ابتسامة عريضة وحاول أن يوسع عينيه
الدويتين:

- يا أم يحيى نحن لا زلنا في أيام حرب، وقد تحدث مظاهر الفرح شيئاً نكرهه جميعاً.

- وهل تزف ابنتي وكأنها جنازة وليست عروساً؟

- أعدك أن أقيم لها عرساً كبيراً في بلدي.

- ألم نتفق أنها ستظل معنا؟

صمت، واحتواني بين ذراعيه وهو يردد:

- هيا يا أم العروس زفي عروستنا.

وخطفها من يدي وغاب بها في عشتنا الوحيدة، وجلست أنا وأبنائي بفناء البيت نستمع لصراخها الذي خد على استغاثة باثة.

وقفت القرية لوداعنا.

كانت عينا حسينة معلقتين هناك حيث وقف ابن المحرق، استوينا في مقاعدنا، والأيادي تلوح والدموع تتناثر من المحاجر. وقبل أن نستوي كان صوت عبدالله المحماس يأمر السائق بالانطلاق، فتطاير خلفنا غبار كثيف انقشع فأبصرنا علي بن المحرق يركض خلفنا بكل ما يستطيع من قوة.

الفصل العاشر

وصلت الموقفة.

كانت الوجوه شائحة تدب بالأرض، ولغط الباعة والمسافرين والعائدين والسائقين يتداخل فيولد أصواتاً متزاخمة على صوان الأذن، وقد وقفت السيارات صفوفاً متوازية، وبعضها أفرغ أجساداً منهكة، وبعضها يستعد لسفر طويل، ومعظمها وقف انتظاراً لمسافرين جدد تقلهم إلى حادين غربة جديدة، نزلت حاملاً تلك الحقيبة التي لم تفرغ فساتينها وأقراطها ومسست بقدمي الأرض، خطوات كسولة وذهن شارد، وتشتت وضباع يتسعان بداخلي، سلكت نفس الطريق الذي صطحبني فيه طاهر قبل سنوات بعيدة، أزقة ملتوية وروائح خمرية، وقمائم متناثرة ووجوه تتبعد وتقترب.

كان الأصيل يستأذن في الدخول إلى مدينة جدة التي نشطت، واسترسلت ضفائرها على الشاطئ الطويل ووزعت مفاتها بين أزقتها الملتوية. كنت أشم رائحة بحرها فتذكرني بالمرائب المهاجرة على الدوام.

- ألا زالت الدنيا تستقبل الغرباء؟

نتبادل مع المارة النظرات السريعة الخاطفة ونعود لدواخلنا لينتقات وسائنا عبر تلك الخطوات المتلاحقة. مجموعة اقتعدت

أطراف الشوارع للعب الدمى وصيحاتهم تتعالى، واقترب الصبية
الأزقة في لعب محموم وبعضهم انغرس بين النفايات يبحث عن لعبة
أو شيء له قيمة. كنت أتلهى بتلك المناظر وداخلي يَمُور بالأسئلة
توقف ضجيجها حين وقفت أمام الباب وطرقته بتكاسل:

- من؟

(إنها هي، نفس الصوت الذي يحرقني ويحليني إلى رماد...)

- من؟

(هل أجيبها، أم أتركها تعيد سؤالها وأتألف بسماع صوتها، هل
ستفرح لرؤيتي؟ كم سأفرح لو حدث هذا!!)

- قلت من؟

(صوتها يطفح بالضيق، دائماً متبرمة، لو لازمت الصمت لربما
أمطرتني بكلمتها التي تقف على شفتيها دائماً «وجع»، هل أتمادى في
صمتي؟...)

- وجع، كفى طرقات، ألا تسمع من؟

- أنا يحيى.

فتحت الباب، فنسيت كل شيء وغرقت بعينيها. كنت متلهفاً
لاحتوائها، لأن أغرس رأسي في صدرها الفاتر وأبكي. كنت متلهفاً
لأن تنفج شفتاها، لأن تقول شيئاً، مددت يدي، فمدت يداً باردة،
ضغطت عليها فغاصت أناملها العاجية في راحتي فسحبته على
عجل:

- لماذا لا ترد؟

.....

كانت خيرية تقلب أوراق الكتشينة، وتجتر دخاناً كثيفاً من شيشة
استقرت أمامها، وعندما رأيتي هبت من جلستها صائحة:

- يحيى، حمداً لله على السلامة.

وحطتني بذراعيها، جاءت عواطف من داخل الغرفة راكضة،
وفتحت ذراعيها كانت تود أن تحطمني لصدرها، تراجعت في آخر
لحظة، وأمسكت بيدي بفرح واستبقت يديها في راحتي فسحبت يدي
وعيناها لا تزالان معلقين بي وفمها يفرور بالابتسامات:

- طولت الغيبة.

وانزوت حياة لداخل الغرفة ممسكة بجديلتها وجامحة بجسد
ارتوى فغارت مفاته.

⊗ ⊗ ⊗

- هل وجدت أمك؟

كنت محتاجاً لصدر امرأة لأبكي، انهمرت دموعي وظللت أقف
متخسباً.

- ماذا بك يا يحيى؟

كان عليّ أن أطلق حزني دفعة واحدة وأبكي. كنت محتاجاً
للبياء، محتاجاً لأن أشعر بشفتيها، محتاجاً لمن يظللني بقلبه ولو لحين:

- لقد مات كل أهلي في الحرب.

ركضت وخطفتني لصدرها، فبكيت بكيت طويلاً، وشاركتني
البياء، ومن بعيد كانت تقف عواطف دامعة وتتناشج:

- لك العمر يا يحيى.

وللحظات وقفت حياة على رأسي وافتتور ردت:

- عظم الله أجرك.

وعادت لمكانها وكان شيئاً لم يحدث.

⊗ ⊗ ⊗

كانت تجلس وحيدة، همست بها:
- حياة.

(نظراتها تحرق الكون، وتحيل الحياة إلى غيمة يانعة).
- نعم.

- أريد أن أتحدث معك.

- في ماذا؟

- لم أعد قادراً على معاملتك.

- وماذا تريد؟

- أريدك أنت.

فزت من جلستها:

- كم أنت صلف!!

- صدقيني لم أعد قادراً على العيش بدونك.

وانبثت مشاعري كنت أسرد على مسامعها كل الأمنيات وهي
مطرقة، حتى إذا اقتربت منها نفرت وصاحت:

- لا تمنح نفسك ما لم أمنحك.

- أريدك زوجة.

- يبدو أنك جنت. أنت خادم عندنا لا تنس ذلك.

شعرت بالدنيا تدور ونار تحترق وشياطين يخرج من بين جدران

حنجرتي.



تخشب في داخلها كل شيء، واستكانت لأوراقها تقلبها وتتطلع
إليها لتخلق حلاًماً تعيش به وفيه، وضمرت لهفتها.

- أين طاهر؟

- كمادته لم يعد منذ أن غادرت.

(هل أخبرها بخساسة زوجها؟ أيام طويلة كان يقتات جهدي
ومالي واختلق تلك الرسائل ليوهمني، ما فائدة أن تعيش مسلوباً، هل
يكفي قتله إزاء خساسته؟)

كانت خيرية تنظر إليّ بعينين باردتين:

- سمعت أنه وجد من يبحث عنها وتزوجها.

صمتت وتطلعت إليّ منتظرة أن أعلق على قولها وعندما وجدتي
صامتاً أردفت:

- كان يقول إنه لا يملك قرشاً واحداً لكنه أمام النساء يعرف
كيف يخرج النقود، لقد هنا عليه.

(هل أخبرها أن زوجها سارق، سرق جهدي وزرع بداخلي
كذبة كبيرة ومضى، هل أخبرها وأزيدها إيلاًماً؟...)

- في رأيك هل يعود يا يحيى؟

تركنتها تهذي بأمنياتها ودخلت إلى البرندة، وقبل أن أسترخي
على فراشي سمعت طرقة خفيفاً على الباب، وصوت عواطف من
الخارج يلح:

- يحيى، افتح الباب.



لم أكن متوقفاً ما حدث.

ضاق بي المكان، واستشعرت بوحشة، كان عليّ بأن ألتقي بأحد الشباب، وإن كنت أتمنى رؤية قدوري، سرت هائماً بين الأذقة وصور كثيرة تتبعثر بالذاكرة.

- ماذا أصنع؟

حدث كل شيء بسرعة متناهية، كشجرة ذات نصل حاد جزت رقبة ضحيتها دون أن تتمكن من مد صرخته بعيداً. وقفت أمامي مباشرة، وخطفني لصدرها وهي تجهش:

- أحبك.. أحبك.

كنت أفق متخسباً وهي معلقة برقبتني، وكلما حاولت نزع يديها تمسكت بي، قبلت رأسي، وعيني، وصدري، وأطبقت على شفتي، توترت كل أعضائي، ووجدت نفسي، أعصرها عسراً، وهي تلهث بفحيح:

- أحبك.. أحبك.

خطوات وصرير باب، كانت تقف بعينيها الحارقتين وجسمها الفائت وصوتها الذي يحرقني دوماً:

- لم أظنك أن نفسك تقودك للقاذورات.

جفلت وتراخت يداها من على عاتقي وبصوت لاهت، أحرنت:

- هو أكثر رجولة من تطارديه.

بصقت في وجهي، ومضت للدخل، فدفعت بعواطف خارج البرندة.

ضيق طافح يلازمني، وأشعر بالغثيان. رضاها لا زال عالقاً

بفمي، وكلما بصقت أحسست به يجري في حنجرتي، يذكرني برضاب تلك المرأة الأفريقية التي غرست جسدي بين شحمها، يمتزجان ويجري رضاها في حنجرتي يعتريني الاشمزاز فأبصق، وأبصق وأحاول التقيؤ.

(لم يعد بالإمكان الوصول إليها، كيف طawعت تلك الحمقاء، نحن حيوانات تستجيب للغرائز في أي حين، كيف يمكن أن أصلح ما حدث، ومن هو هذا الرجل الذي تطارده حياة؟... هل تحب شخصاً ما؟ سأجبن إن كان ذلك صحيحاً، لقد سقطت من نظرها بفعلتي تلك، كيف لي أن أصلح ما أفسدته تلك الحمقاء؟).

لمت صالح مستعجل يقف بجوار بائع النفوش، ارتعنا في أحضان بعضنا:

- أين يمكن أن أجد قدوري؟

كسّم على فمي وسحبني، كنت أحاول دفع يده وهو يشد على مرفقي:

- لا تقل أي كلمة؟

.....

التزمت بالصمت وسرت معه:

- تم اعتقال قدوري ووجدني وحسن.

- لماذا؟

- ساروا في مظاهرة.

- مظاهرة من أجل من؟

- من أجل زعيم الأمة جمال.

- جمال لا يستحق حتى أن نسميه بهذا الاسم.

- ماذا الذي حدث لك؟

- لو تعرف ماذا فعل زعيم الوحدة العربية، لقد ساوى الأرض بأجساد أناس ليس لهم شأن في كل ما هو دائر.

- أنا لم أعد أعرف شيئاً.

- والأفضل ألا تعرف.

كنا نسير ومجموعة من الصبية ممسكة بحمارين أحدهما أشهب والآخر أسود وقد خط عليهما عبارتان ببويا حراء وبيضاء (آخر يومك يا سلال) (جمال يا عبد الأحرار)، وبأيدي الصبية عصي يجلدون بها الحمارين ويتصايحون:

- جمال يا عبد الأحرار.. آخر يوم يومك يا سلال.

- انظر كيف يتصرف الرعاع.

مططت شفتي وهتفت به:

- أنت تستمتع بمقولات أرباب الشعارات، لكن الذي انحرق بتلك المقولات يفعل أي شيء كي يخرج غلّه.

- لقد تغيرت كثيراً في وقت وجيز.

- دع الكلام جانباً فلم أعد أحتفل بما كان وسيكون.

- إذا نحن انتهزنا فمن باب أولى أن ينهزم الآخرون.

- صالح كف عن هذا الكلام الكبير فأنا أعرفك تماماً. لم تكن

في يوم ما مع أو ضد.

امتقع وجهه وانفعل:

- أنت الذي كنت تردد الكلمات عرفتنا على الطريق وبقيت بواباً

لمن يريد الدخول.

شعرت أنه يحتقرني، فبادلته الضغينة وأغلظت له القول، نفرت كلماته حادة:

- ما الذي يمكن أن تنتظره من قهوجي؟

اقترب الصبية منا وهم يتدافعون الحمارين وأيديهم تشبعهما ضرباً وهم يتصايحون:

- آخر يومك يا سلال.. وأنت كمان يا جمال.

وبدون شعور تناولت عصا من يد أحد الصبية وأخذت أجلد الحمار الأسود وأصبح:

- آخر يومك يا سلال وأنت كمان يا جمال.

كنت أضرب بكل قوة وصوتي يتشقق:

آخر يومك يا سلال وأنت كمان يا جمال.

وتقاعس الحمار تحت ضرباتي واستلقى على الأرض.



وقفت في دكان الأبندي، وكأني أعمل لأول مرة، فكثير من الوصفات نسيتها، واختلط علي الأمر.. كنت حاد المزاج مع كثير من الزبائن مما حمل أيوب الهندي على الاعتذار منهم نيابة عني.

وقف أبو وجدي أمامي مباشرة، فتحركت للسلام عليه، فجذبني من يدي وسار بي بين منحنيات السوق:

- هل تعلم أن وجدي في السجن؟

- نعم.

- ماذا كان يصنع؟

- لا شيء غير الكلام.

- (وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا من أحصده الستهم؟)

.....

- وهل كنت معه؟

خشيت أن أستفسر (معه في ماذا) وسارعت بإجابة مواربة:

- كنت في جيزان.

- اليوم سوف أراه فهل ترغب في رؤيته؟

- نعم.

- لتكن جاهزاً قبل العصر فقد استطعت الحصول على إذن

لرؤيته.



كان الجو متوتراً.. فعندما دخلت بصقت حياة بانجهاهي ومضت لداخل البيت، وظل رأس عواطف مدلل على صدرها بينما كانت خيرية تنظر في أوراق الكتشينة وتنفث دخاناً كثيفاً من تلك الشيعة التي استقرت أمامها، أمسكت بولد (الديمي) وقالت بفتور:

- أظنه لن يعود.

وعندما رأته أقف على رأسها قالت:

- ما رأيك يا يحيى في رجل... .

(كنت أظن أن حياة أسرت إليها بما رأته، فتخشبت في مكاني ولذت بالصمت) أعادت سؤالها:

- ما رأيك يا يحيى في رجل ينسى أبناءه؟

شعرت بالراحة بعض الشيء، وقبل أن أجيب تابعت حديثها:

..... أن تذهب للبحث عنه؟

غمغمت:

- أين سأجده؟

- في قراكم.

وأردفت بحزن:

- لم نر منكم إلا ما يكدرنا.

عادت هواجسي في التضخم:

(ماذا قالت لها حياة، وماذا يعتري في داخلها الآن: ستقول

رينيك وآويناك فختنتنا، ربما تقول الآن خنت من استأمنك على عرضه).

تلاقت عيناها بعيني عواطف وسرعان ما أعادت رأسها إلى صدرها وأخذت تغزل قميصاً بيدها.

- ألا يحس هذا الرجل؟... كيف يترك بناته وزوجته؟ وهل نفي أعمالنا البسيطة لأن تشبعنا وتكسوننا، كم من الرجال يفتقدون الرجولة.

(أحسست بكلمتها كالخنجر تتغلغل في أعماقي، وأصوات كثيرة تنعق بمخيلتي: يا خسيس).

- لقد تعبت، تعبت من كل شيء، من انتظاره وحبه، والبحث عما يقينا مد اليد، والله لقد تعبت.

- سأكون عوناً لك حتى يرجع.

- هل تتوقع أن يعود؟

- لا بد أن يعود.

فنهضت وتعلقت بي وهي تستحلفني:

- وما أدراك أنه سيعود؟ قل بالله عليك ما أدراك أنه سيعود؟

- حياة.. أريدك أن تعرفي أن ما حدث كان غضباً عني.

- كل خائن يخلق الأعذار لحياته.

- يهمني أن تعرفي أنني لم أحب سواك.

- لا تردد هذا القول على لسانك، ولو فعلت سأخبر أمي، سأقول لها أن من عطف عليه يريد أن يعقر بناتك.

- أرجوك لا ترددي هذا القول.

- وأرجوك أن تكف عن أختي، فإذا كانت متعلقة بك لا تستغل هذا لإشباع رغباتك.

- أقول لك لا أريد من هذه الدنيا إلا أنت.

- وأنا أقول لك: لو لم يعد بالبلد رجل سواك لما تزوجته.

خرجت من عندها لأجد عواطف واقفة على الباب تنتفض علينا ودموعها منهمة بغزارة.

تعانقنا عناقاً حاراً.

جلس وجدي ساهماً بينما كان أبوه يذرف الكلمات:

- لديك تجارة تكفيك لأن تكون سيداً فما لك ومال جمال؟

- هذا ما حدث.

- عندما تخرج سيكون لي معك حديث آخر، هذا إذا خرجت.

ونفض غاضباً، فأمسك بي وجدي ودس يدي جواباً:

- هذا خطاب عليك أن تسلمه لأم حسن.

- لا أعرف أين تسكن.

- تسكن بالعمارة بجوار القرن الكبير.

دسست الخطاب في جيبتي وخرجت أركض لأتبع الشيخ الأفتدي الذي كان يسير لاعتاً خلفه هذا الزمان.

كان حدثاً تناقلته الحوارية المجاورة باستغراب وغرقت جملة في أفواه الناقلين للخبر:

- الصدفة يتزوج بعد هذا العمر.

هذا التشكيك حمل الكثيرين لحضور مراسم الزواج، ففاصت برحة السكري بالحضور، وتوافد المهثون لتهنئة الصدفة الذي استقر على كروية فرشت بسجاد صيني زاهي الألوان، وكلما قبله أحدهم مباركاً ردد الصدفة:

- يديم الله أفراحكم.

اقتربت منه فرحاً وضممته فشعرت بعظامه تعصر بين يدي، كان ليناً لدرجة أن تقوضت قامته وأصبح كائناً مختصراً:

- أخيراً فعلتها.

- كنت أحبها وكلما تقدمت لها رفضت. وعندما تزوجت

نذرت ألا أتزوج. وبعد موت زوجها وجدتي لا زلت أنتظرها
فقبلت.

- كل هذا الزمن كنت تنتظر.

- وكنت مستعداً لأنتظرها حتى آخر العمر.

- لم تخبرني بهذا العشق من قبل.

توقفنا عن الحديث حين أهل بعض المباركين فنهض الصدفة
لاستقبالهم والترحيب بهم، وعندما عاد لمجلسه جذبه من ثوبه
الناصع:

- منذ متى وأنت على هذا الحال؟

- منذ زمن بعيد، انتظرت طويلاً وكنت أدعو الله أن لا يميتني
قبل أن أضمها أو أن يجمعني بها في الآخرة، حتى أنني حملت التراب
الذي مشى عليه وصررت في صرة وكتبت عليه (اللهم ابعثني مع
أهل هذا التراب). وهذه الوصفة أخبرني بها أحد الجاوة، فقد حكى
لي أنه أحب امرأة ورفقتهما الأيام وظل محتفظاً بالتراب الذي مشى
عليه محبوبته حتى التقيا.

- وماذا تفعل بها الآن وقد ذهب قوتك؟

- لا زال قلبي ينبض بحبها كما لو كنت ابن خمسة عشر ربيعاً.

- وهي؟

- ستعرف أنني كنت ميتاً والليلة عادت لي الحياة، وستجيني.

ومن بعيد ظهر فوج من المهنيين، وقبل وصولهم أمسك الصدفة
بيدي وقرب فمه من أذني هامساً:

- إن من تحبه تحتاج إلى سنوات طويلة لتؤكد له هذا الحب.

تركته يستقبل مهنيته وتحركت لأقرب مكان يسند ظهري، بينما
كانت الزغاريد تصل لسامعنا واهية خفيفة، وكان سؤال يعشعش
بمخيلتي:

- هل سأنتظر حياة كل هذا العمر؟

عدت من الزواج وخاطر لذيذ يساورني، نفذته في صبيحة اليوم
التالي. فرشت مشى حياة برمل ناعم حتى إذا وطأته خمشت حفنة من
كل أثر لوقع قدميها وصررت بمندبل ناصع البياض وكتبت عليه:
(اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب).



وجدت نفسي أقف أمام قصر أبو الكرامات، طرقت الباب
الكبير وانتظرت. أطل بوجهه الدائري وعينيه السوداوين المتسعيتين
وفمه العريض وشفته العليا المرتفعة قليلاً لتكشف عن ناب ركب على
أخيه، فظهر ملائماً لذلك الفم العريض، وقد امتلأت قامته الطويلة
وارتوى جسده بماء الحياة، وعندما رأي صاح:

- يحى لقد أشغلتني عليك كثيراً.

وحضنتي لصدره بقوة وهو يتمتم:

- هدأ الله على السلامة، بحثت عنك كثيراً وعلمت من قدوري
أنك اتجهت لقريتك، ألم يكن من حقي عليك أن تودعني أو تخبرني
بما عزمتم؟

- كان الوقت ضيقاً وكان قراري عاجلاً.

وسحبني لداخل القصر، سرنا في ممرات ضيقة تظللها أشجار

اللوز والليمون، ودلفنا لغرفة واسعة خاصة بحامد، كانت نظيفة وفرشها رغم بساطته يشع بالوان متناسقة بديعة، أجلسني وهو يرحب وبيلي:

- أخبرني، هل وجدت أهلك؟

صمت، وترقق الدمع بعيني:

- هل حدث مكروه للوالدة لا سمح الله؟

تماسكت و بكلمات قليلة أخبرته بالخبر وأنهيت جملي بشتيمة:

- لقد ساوى بأجسادهم الأرض.

تيسس حامد قليلاً وردد بحزن:

- عظم الله أجرك.

وفجأة أخذ يبكي، احترت ليكائه، وخبطته على ظهره. لم آت إليك لكي تزيدني حزناً، إضحك يا رجل.

وعندما واصل بكاءه نشته بقوة:

- وما الذي يبكيك الآن؟ أهلي الذين ماتوا وليس أهلك.

وافتعلت ضحكة جافة وأنا لا زلت أنوشه، ومن بين دموعه

ردد:

- أخاف أن يكون قد أصاب أهلي ما أصاب أهلك؟

- لا تخف فالحرب لم تمتد بعيداً عن جيزان، على فكرة ألم

تستطع مراسلة أهلك كل هذه المدة؟

- وكيف أراسلهم، فالذي لا تعلمه أن قرينتنا دسها الزمن بين

جبال التصقت على بعضها ولا أحد يعرفها إلا أهلها، حتى وإن فكرت فمن ذا الذي يحمل رسالة لقرية لا يعرفها أهلها أنفسهم؟

- لا عليك سأجد وسيلة لمراسلتهم حتى ولو اضطررت للسفر إلى قرينك وإخبارهم بأنك هنا.

ارتفعت شفته العليا عن شبح ضحكة أبانت ذلك الناب الصاعد على أخيه بوضوح:

- هل تفعل هذا حقاً يا يحيى؟

- بكل سرور.

وانقلبنا لشجوننا وأخذت أسرد على مسامعه ورطتي مع حياة، فتأوه وردد بحزن:

- مصيبتك تهون أما مصيبتني فليس لها حل.

- هل تورطت؟

هز رأسه وتأوه وأتبعها بدندنة عذبة:

- هل تتصور أن يحب العبد سيده؟

كان صوته يتلاشى وهو يروي حبه لابنة سيده. ومضى بنا الوقت ونحن نتبادل لوعتنا بحرارة، سمعت صوتاً رخيماً ينثال كالوسيقى:

- حامد.

فارتبك، ونفض متعثراً، فأمسكت به:

- من هذه؟

- إنها هي .

- من هي؟

- هنادي هذه التي أحرقتني وهي لا تعلم بالنار التي تجري في عروقي حين أراها أو أسمعها .

عاد الصوت يتكسر بدلال ويتموج كشلال متدفق:

- حامد .

- حاضر . . حاضر عمتي .

وخرج يركض صوبها، مددت عنقي ورأيتها فظننت أن حورية نزلت من السماء .



تذكرت أن رسالة حسن لا تزال بجيبتي منذ أسبوع مضى، حاولت أن أتذكر العنوان الذي ذكره وجدي فعجزت . أخذت ألوم نفسي على هذا التفریط، ورحت أفكر في وسيلة لمعرفة عنوان أم حسن، هل أعود لوجدي؟ وما الذي يوصلني إليه؟ حتى وإن وصلت سيظن أنني لا أزال أهل ضغينة لحسن حين كان يسخر مني، لا لا يجب أن أبحث عن وسيلة أخرى .

خرجت فوجدته أمامي . ارتبك قليلاً ولم أعر ارتباكاه اهتماماً، تذكرت لجائنا الذي أنهينا به آخر لقاء بيننا، أحسست برغبته في نسيان تلك المشاحنة . اقترب مني تخالط سحته تعابير غامضة . مد يده مصافحاً:

- كنت قادماً إليك لكي ننسى سوياً ما حدث .

احتوته في صدري، أحسست بأنني أتعلق بخشبة . كان بارداً رغم كلماته المتدفقة بدفء:

- لا أريد أن أخسرك أبداً .

ربت على كتفيه:

- حتى أنا وقد خرجت لأبحث عنك .

قال صاحكاً:

- هل اقتقدت زيارتي اليومية لك؟

- نعم اقتقدتها .

- قلت إنك خرجت لتبحث عني . . خيراً إن شاء الله .

- خير، هل تعرف بيت حسن .

- من حسن؟

- صاحبنا حسن جويني .

- وماذا تريد منه؟

- لقد عطاني وجدي رسالة من حسن لأمه .

- أعطني إياها وسأسلمها لأمه .

- الرجاء ألا تتأخر عندك .

- الآن أوصلها . فقط أشعر بعطش .

فدعوته لداخل البيت ودخلنا البرندة، واعتذرت منه للحظات،

وركضت لداخل البيت:

- عندي ضيف يا خالة خيرية لو تصلحي لنا براد شاي.

- من ضيفك؟

- صالح مستعجل.

هزت رأسها، ورددت:

- مضت عليه أيام لم يأت.. هل كنتما متخاصمين؟

- سوء تفاهم وزال.

- عد إلى ضيفك وسيكون الشاي عندك بعد لحظات.

بادلت صالح كثيراً من المجاملات وتذكرنا بشكتنا التي تفرقت
وابتعدنا سوياً عن تلك المشاحة التي سعى كل منا للتيل من صاحبه.
سمعت نقرأ خفيفاً على باب البرنده، فقامت لأجد حياة تقف في أحلى
زينتها وقد فتر قمها عن ابتسامه عذبة وهي تناولني براد الشاي،
فأحسست أن الدنيا تتسع وأني طائر أخلق في أعالي السماء.

عدت أحل براد الشاي وقلبي يتراقص طرباً، وازداد فرحي
حين لمحت عينيها تلصصان بي من خلف شيش البرنده.

هتفت بصالح: كم أحبك يا صالح.

فسمعت ارتعاشه ضحكته من الخارج، وصوت قدميها وهي
تركض مبتعدة.



تغيرت طباعه، لم يعد ودوداً.

كانت السيارة تسيير بنا والأماكن تعبر عيوننا بسرعة وعيناه
الدوديتان استرختا في محاجرهما وأصبحتا نرى لسانه كثيراً.

كنا أنا وبناتي في المقصورة الخلفية وقد جلس يوسف بجواره،
وفي كل مرة نسمعه يبكي بصوت مرتفع فأسأله بهلع:

- ماذا بك يا يوسف؟

قيصمت وكان يداً تكمم فمه.

كنت متلهفة للسلام على حليلة وآمنة. أسررت له برغبتني
بالتوقف بجيزان فصاح محتداً:

- لست مكلفاً بحملك لكل مكان.

وأعني رده الغاضب فلم أجرو على مبادلته نبرته الحادة، جاء
صوتي منخفضاً متوسلاً:

- فقط نسلم ونحن واقفون.

- واقفون أو جالسون فليس لدي الاستعداد لهذا.

اخترقنا مدينة جيزان.

كان البحر يلتف حول البيوت والعشش تقف حذرة من الطيور
المحلقة على هامتها، فرائحة الحرب لا زالت تفوح بين أزقتها وميدانها
استرخى على أصوات الباعة وشيء من الحزن يسكن فضاء المدينة.

قلت له مستعطفة: لن يكلفك شيئاً لو وقفنا وسلمنا.

- قال: كفي عن هذرك فلن ندخل المدينة.

شعرت بالإهانة، ويد حسينة تمسك بكتفي بلين، وفم فاطمة
يغرس بأذني:

- أنت التي جعلت هذا الشرقي يتحكم بنا.

- ليس وقت اللوم الآن يا فاطمة.

فصاح بضيق:

- بماذا تتهامسان؟

نفر صوت فاطمة حاداً:

- أذكر أمي بالغراب الذي خطف اليمامة.

- أنت تقصدينني!

- كل جنس يعرف نوعه.

فأزيد وأرعد وأقسم أن يحمل زوجته ويتركنا في الطرقات،
أحسست بالرعب ورغبة ملحة لشتمه، لكن تهديده تضخم بمخيلتي:

- كيف لو نفذ تهديده؟

ارتفع صوت السائق معاتباً عبد الله:

- رفقاً بهؤلاء النسوة.. أليسوا أهلك؟

- وما دخلك أنت، الرجاء ألا تتدخل فيما لا يعينك.

صمت السائق، وظل أزيز المحرك يشن بثاقل وحببيبات الرمل
تطايير أسفل عجلات السيارة وحرقة تشتعل بصدورنا.



ذبلت ليلي وارتفعت حرارتها وخشيت أن أفقدها في هذا السفر
الشاق، كنت أصبرها ببلوغنا لجة، وهذيانها لا ينقطع. كانت كلمات
كثيرة تتسرب من فمها فيصيبني الجزع من خيالات تراقصت
بمخيلتي:

- يا رب رحمتك.

توقفنا في استراحة مدينة الدرب، ولم تعد ليلي قادرة على تحمل
تلك الحرارة المنبعثة من جسدها، بينما كان عبد الله المحماس ساخطاً
من طلباتي المتكررة، وأقسم للمرة الثانية على حمل زوجته وتركنا في
مدينة الدرب. كنت خائفة من أن ينقذ قسمه، همست لحسينة:

- استرضيه.

أحسست أني أدفعها لما تكره، فنادت عليه بصوت تشظى
بمرارة:

- عبد الله.

التفت إليها باسمأ:

- سم يا بعد هلي.

- أشعر بالتعب وأتمنى عليك أن نقف قليلاً.

- ما يخالف.

ونزلنا وكانت ليلي تغلي من الحمى، وتوشك أن ترحل من بين
أيدينا.



قال السائق:

- لا أستطيع البقاء أكثر من هذا الوقت، ولو أردتم أن أبقى فانا
أريد أجراً إضافياً، فرجوته باستعطاف:

- سنعطيك. فقط انتظر.

صاح عبد الله بحدة:

- سنعطيك، من يعطي؟ أنا الذي أدفع ولست أنت وأنا غير مستعد لزيادة قرش واحد.

وكأنني لم أسمعه، اندفعت للسائق راجية إياه:

- نبقي لساعات وسأعطيك ما تريد.

فانزلق عبد الله في صباحه:

- وهل تملكين شيئاً؟.. أنا المتكفل بكل شيء، وقد قلت لن أدفع قرشاً واحداً زيادة.

شعرت بالحيرة واندفعت لفاطمة أفتح فمها وأشير للسائق لسنيها الذهبيتين:

- سأعطيك سنيها الذهبيتين.

زفر عبد الله متهمكماً:

- وهل تظنين أن هذه القشرة تزن أرتالاً؟.. إنها مجرد قشرة، أم أنك تودين منحه فمها بأستانه؟.. هيا.. هيا تجهزوا، علينا بالمغادرة.

- ولكن ليلى لا تزال متعبة.

- وهل نبقي في انتظار أن تشفى بينما أتكفل أنا بالأجرة الزائدة.

- ساعات فقط حتى تستعيد قليلاً من نشاطها.

- ولا دقيقة، هيا.

كنت مستعدة لتقبيل يديه، فأخذت أرجوه وكلما طالت توسلاتي أمعن في جفاه، كان السائق ينظر إلينا ويهرز رأسه باستنكار، فتقدم مني وتمتم:

- ابقوا فأنا تذكرت أن لي صديقاً بهذه الناحية سأذهب للسلام عليه وأعود عصراً.

صاح عبد الله بانفعاله:

- أقول لك من الآن: لن أزيدك قرشاً واحداً.

- لا أريد منك زيادة.. أريدك فقط أن تريح وجهك من عبوسه الدائم.

انطلقت سبابة عبد الله في وجه السائق متوعدة:

- حذار أن تقلل أدبك، أنت سائق بيننا وبينك الطريق ولا شيء غير ذلك.

- إذاً ابق هنا حتى أعود.

- هذا تهديد مبطن، أنا أعرفكم يا سائقي الخطوط الطويلة، أعرف مراوغتكم. تريد أن تتركنا وتمضي. رد السائق بحزم: قلت لك سأعود.

وانحى إلى سيارته، فتبعه عبد الله متسائلاً:

- وإذا تركتنا في هذه المقطعة ورحلت؟

- لا زالت نقودي معك فكيف أتركك؟

تلثم عبد الله وأصر على رأيه:

- أنت تريد أن تتركنا هنا، أترك أي رهن حتى نتأكد من عودتك.

نظر إليه السائق شزراً:

- والله لولا هؤلاء النساء والطفل لتركنتك تنبح في هذه
الطرقات.

وتحرك بسيارته ومن خلفه ركض عبد الله صائحاً:

- قلت لك عد.. عد.

فتناثر الغبار مع ضحكات فاطمة وحسينة على ركض عبد الله
وصياحه، وعندما عاد كان أكثر غلظة حين شتم فاطمة ووصفها أنها
فتاة لم ترب، فبادلته الشتم، ولم تسكت إلا بعد قرصات متعددة من
يدي وأنا أرجوها أن تسكت.



وصلنا لجة.

كانت ليلي في حالة يرثى لها، فلم تعد قادرة على شيء سوى
بث أنينها وتوجعها، عندما قال السائق:

- هوني على نفسك نحن على مقربة من جدة.

شعرت أن جيلاً انزاح من على صدري، فأخذت أحمد الله
وانفرط فمي بكثير من الدعوات.

كان السائق قد توقف عن الكلام مع عبد الله، فأحسني رقيبته
باتجاهنا سائلاً:

- أين تريدون في جدة؟

كنت قابضة على الخطاب الأخير للخدمة، مددت به إليه:

- هنا ستجد العنوان.

- أنا لا أعرف القراءة.

ووجه حديثه إليّ: وهذا الكيس الذي معكم لا يعرف القراءة
أيضاً.

انفض عبد الله في مكانه، وظل صوته ينخر مسامعنا:

- تأدب وتحدث معي، وإذا غلظت مرة أخرى سأعرف كيف
أؤدبك.

لم يلتفت إليه وخاطبني: لا عليك ستجد من يقرأ لنا العنوان.
أوقف سيارته ودار بالخطاب على مجموعة كانوا يجلسون بالقرب
من دكان متواضع، فانكبوا على قراءة الخطاب، وتبادل معهم
الحديث، وعاد مبتسماً وهو يردد:

- عرفت العنوان.

وجدنا أنفسنا نقف أمام مخبز كبير بالعمارية. سمعت السائق
يسأل أحد العاملين:

- أين بيت خديج؟

نظر إليه العامل متعجباً:

- من خديج؟

التفت السائق إليّ، فزجره عبد الله:

- قلت لك تحدث معي ولا تلتفت للنساء.

كان السائق مغتاضاً من عبد الله لكنه ضبط غضبه وعاد سؤاله

لي:

- من خديج؟

فالتفت عبد الله بضيق:

- ما هو اسم أختك؟

- اسأله عن ناجية أم حسن وإبراهيم.

وعندما سمع العامل اسم ناجية ركض أمامنا وأشار لبيت طلي بابيه الخشبي باللون الأخضر:

- ذاك الباب هو بيت ناجية.

تحركت السيارة لمسافة قريبة، وتوقف السائق. فلم أتمالك نفسي فخرجت أركض وأدق الباب بكل عنف:

- خديج.. الحقيني يا خديج.

فانفرج الباب عن وجهها وتعانقنا ونحن نتصايح كالشكالي.



مضت ليلتان ونحن ننام متجاورتين بعد أن نسكب كثيراً من الكلمات والأخبار، وتبادل البكاء على غياب يحيى وحسن.

مرة واحدة جلست مع إبراهيم، فهو يظل منعزلاً عنا متبرماً وفمه يذود تأففاً، وقف بين جدران حنجرتة وطفح على سحنته كخمامة قائمة. كان ينظر إلينا نظرة متعالية فأحسست بأنه سيتعيني كثيراً. رجوته أن يبحث لي عن شخص يدعى طاهر الوصابي، فأظهر الامتناع، وعندما رجته أمه أحرن بضيق:

- وأين يمكن أن أجده؟.. كل يوم أخرج باحثاً عن شخص، لقد مل الناس من أسئلتني الباردة، لن أخرج.



من الصباح الباكر خرجت مع خديج إلى الشوارع نسأل عن طاهر الوصابي. كان منظرنا مربباً ونحن نتنقل بين الرجال والنساء سائلين عن رجل لا نعرف إلا اسمه.

مضى اليوم الأول دون أن نجد له خبراً، وفي منتصف اليوم الثالث جاء إبراهيم مستبشراً:

- وجدت شخصاً يعرف طاهر الوصابي؟

تعلقت به أقبلة وأستحته للملاقاته، فأمسك بيدي:

- سوف يأتي هو إلينا.

- طاهر بنفسه؟

- الشخص الذي يعرفه.

قالت خديج:

- من هو هذا الشخص؟

- إحزري!

- قل من؟

- صالح مستعجل صديق لابنه.

- صالح الذي جاء بخطاب حسن.

- نعم.

رجوته بلهفة: هيا لنذهب إليه.

- أنا لا أعرف بيته لكنه وعدني أن يمر عليّ عصر الغد.



في اليوم الرابع قرر عبد الله أن يغادر بحسينة إلى بلدتهم - قال
إنها بوسط نجد، مدينة تدعى الخرج - شعرت بسكين انغرس في
أحشائي، حاولت أن أثنيه مذكرة إياه بأن الشرط الذي بيننا أن
يوصلني لابني، لكنه سخر مني واكتفى بترديد:

- ابن أختك وجد طريقه وهذا يكفي.

وحل حسينة وهي تبكي وتقسم أنها لن تذهب معه، كنت
أسكنها في محاولة ألا يسمعها وخرجت معه ونحن ندفعها دفعاً،
فأسرت لأختها فاطمة أنها لن تسافر وأنها ستغافله وتعود إلينا.

وبعد أن خرجا قالت لي فاطمة خبرها، رجوت إبراهيم أن
يلحق بهما وألا يعود حتى يتأكد من أنها ركبت معه، فخرج متلحفاً
بغضبه متبرماً منا بينما كان صوت أمه يلاحقه مقللاً من شأنه ورافعاً
شأن حسن وهي تدعو الله أن يعيده إليها سالماً.

وجلست على الباب أنتظر عودة إبراهيم، وأنا أتلهف لرؤية
يحيى، فلم يعد بيننا سوى هذه الساعات القليلة، وثمة خوف يعيش
بالقلب من أن تنفذ حسينة وعيدها.

الفصل (الحاوي) عشر

عاد طاهر.

جلس في صدر الصالة واجماً وأمسكت بنتاه بيديه بينما كانت
خيرية تغسل قدميه وكلماتها تنساب للأسفل:

- هنا عليك.. والله لم أذق طعم النوم.. أكان لا بد أن تركنا
كل هذه المدة؟.. كيف طاوعك قلبك وتركنا؟

يبدو أنها سيطرت على نفسها كثيراً فغيرت الحديث:

- نحن لا نقدر على فراقك... لا تتصور أن امرأة سوف تحبك
كحبي لك.

سحب قدميه من الطشت فتقاطر الماء على فستانها فسحبت
منشفة ودست بها قدميه وهي تنشفهما وتنفضهما:

- قلبي عليك من أين جاءت هذه الشقوق لراحة قدميك.

نظر إليّ بطرف عينيه، كنت متردداً في السلام عليه وعندما
رأني خيرية متخشياً صاحت:

- لقد عاد طاهر، أخبره كم كنا مشتاقين له.

.....

... ماذا بك تقف هكذا، ألم تشق لطاها؟

تقدمت، فنهض وضممني لصدريه، شعرت بنفور حاد تجاهه،
وتمنيت الفكاك من بين يديه:

- ألا تقول حمداً لله على سلامتك.

(من أي طينة خلق هذا الرجل؟ يعاتب وكأنه لم يفعل شيئاً،
سأقبض على ترقوته، وأجعل عينيه تجمحطان وأغلق فمه حتى لا تخرج
كلمة أخرى من هذا الورك...).

- ألا تقول الحمد لله على السلامة؟

- وهل ودعيتني قبل أن تهرب؟ ... لقد خالستني وهربت.

صاحت خيرية:

- خالسك وهرب... استح لا تقل هذا القول، هو حر يسافر
متى أراد ودون أن يخبر أحداً.

تعكر وجه حياة وظلت عواطف منكسة رأسها للأسفل،
ورغبتني لا زالت تطفو لأن أهينه. قبضت على انفعااتي بصعوبة:

- أود الحديث معك.

- ليس الآن.

(بارد كقالب ثلج، وساخظ أنا كنتور ضخم بقاز، ها هي نظراته
الخاطفة المستعجلة ترف في المكان وفمه الموشك على الكذب دوماً
يتحلب ليفرز خيوط فحه الدقيقة المحكمة...).

- بل الآن.

علق بصره في وجهي وضرب كتفي بيده:

- لا تنس أنني ريتك وعليك أن تسمع ما أقول.

- لم أنس ولكن هناك أموراً كثيرة نسيها أنت.

- أقول لك لا داعي للحديث الآن.

- متى؟

- دعني مع أهل بيتي وفي الليل سأكون معك.

(... ما الذي يجب علي أن أفعله؟.. هل أصرخ به، أشتمه،
أضربه؟.. وما جدوى ذلك؟.. لو أغضبته سأفقد حياة، آآآ...
ووو... لا لا لا بد من مهادنته، فلم يعد لي في هذه الدنيا سوى
عيني حياة.. صبر جميل...).

سمعت خيرية تصيح:

- لا تقف متخشباً هكذا.. إجلس أو أدخل للبرندة.

غرست عيني في وجهه:

- أنتظرك.

فهز رأسه موافقاً وقد انكسرت رغبته بالبقاء مع زوجته وبنتيه،
وظل مطأطأ برأسه، جذبتني خيرية من قميصي:

- ما الذي حدث؟.. لماذا تظهر عداوتك لطاهر؟

فسحبت نفسي من بينهم، وشعرت أن الجميع يبادلني نظرات
عدائية، ودلفت للبرندة بعد أن تلاقت عينايتي بعيني حياة، تلك
العينين اللتين اختفى بريقهما الذي شغ بالأمس.



طرق خفيف على باب البرندة.

(هل جاء ليعتذر؟ لن أسامحه أبداً، لقد استغلني. سأكون حازماً

وأطالبه بكل أموالها التي ادخرتها عنده، سأذكره بقصة أبو النون حين استغل حاجته وأخذ ماله، سأقول له أنت تعيد خسارة أبو النون، خسارة لا لا.. لا بد من كلمة لا تثير كوامن الغضب.. لا لن أكون ليناً معه، سأمسك برقبتة وأخذ جميع حقوقي، وماذا عن حياة فهي ليست من حقوقي، كيف أجعله يبارك هذه الرغبة؟... أقايضه! أنسى كل شيء مقابل عيني حياة.. نعم هذا هو الحل الأمثل، ماذا لو قال....).

الطرق يتواصل بانتظام، تحركت وفتحت الباب. كانت تقف بانكسار غرست عينيها بوجهي فارتبكت:

- ماذا تريدين؟

تلعثمت ورددت:

- صديقك حامد يريدك.

- حامد.. أين هو؟

- على الباب الخارجي.

تحركت فأمسكت بيدي:

- أنا أحبك يا يحيى فلماذا تهملني كل هذا الإهمال.

.....

- حياة مشغولة عنك.

- إذهي لشأنك الآن.

جذبت كم قميصي من بين يديها وخرجت وهي لا تزال واقفة. كان حامد يقف على الباب وابتمامته ترف بنصاعة فتين اتساع

فمه، رحبت به وجذبتة لداخل البيت وجلسنا أمام بعضنا.

- أحزر أي خبر أحمله لك؟

- هل فاتحت هنادي بما تشعر؟

- وهل تظن أن المسألة هيئة لهذا الحد؟

- أي خبر تحمله إذا؟

- ألا تدعي أنك متابع للإذاعة؟

- بعد ما حدث لم أعد أثق بأحد.

- البلد مقلوبة.

- خير إن شاء الله.

- ألم تسمع بخبر تحرير الرقيق.

- تحرير الرقيق.

- نعم. لقد أصدر قرار بتحرير كل الأرقاء، وقد حدثني سيدي أنه أصدر وثيقة بتحرير.

قفزت من مكاني وحضتته، وأنا أصبح به:

- مبروك مبروك.

كان يضحك ببرود:

- لقد حرروني من العبودية بعد أن أصبحت هي حياتي.

وأردف بضيق:

- أنا خائف من هذه الحرية. لقد وجدت نفسي عبداً يؤمر

فيطيع أما الآن فعلي أن أختار.. تصور هكذا فجأة علي أن أختار.
أليس صعباً أن تختار ما تريد؟ أتصور أن الأحرار يعانون من
اختياراتهم فما بالك بمن لم يختَر في حياته أي شيء.

- أنت تبدو غير سعيد بهذه الحرية.

- نعم، فهذه الحرية عطلتني. لم يعد أحد بالبيت يطلب شيئاً
مني والأدهى أن علي مغادرة قصر سيدي، وهذا القرار سأفتقد ذلك
الحذر اللذيذ الذي كنت أحيى به.

- أي خدر. أنت حر، ألا تعرف معنى حر؟.. ألم تسمع أن
العالم كله يحارب من أجل نيل حريته؟

- لا أعرف هذا الكلام الذي تقوله، أود البقاء على ما أنا عليه.

- ألا تود العودة إلى أهلك؟

- أهلي!.. لو عدت إليهم فأنا غريب بينهم وهم غريب عليّ،
لم يعد لي أهل في هذه الدنيا سوى هنادي. لكنها السيدة وأنا العبد.
هي الغنية وأنا الفقير. هي التي تختار وأنا أنفذ بطيب خاطر. لا يجمع
بيننا جامع، ومع ذلك فأنا راض بهذا الوضع ومعلق بها عن طيب
خاطر ولا أريد أكثر من هذا، لقد اختصرت بهذه القناعة أموراً كثيرة
مضنية.

صمت للحظات وتابع:

- لو أخبرتها بحبي هل تقبل هذا الحب؟

.....

- أخبرني.. هل تقبل هذا الحب؟

.....

- أنا أعرف الجواب. لن تعترف بي.. لن تعترف بي.

ارتجف حامد وحضن وجهه بين راحتيه، كنت صامتاً أنظر إليه
وشعور متناقض يخاطبني، سمعت قرعاً على الباب.

(هذه حياة جاءت ببراد الشاي سأقول لها: حرروا العبيد،
لكنني أهلك نفسي عبداً لك، لك لوحذك إفعلي بي ما تشائين،
سأقول...).

لا زال الطرق متواصلاً، وحامد يجهش ببكاء حاول أن يخمد
قبل أن يمتد، نهضت على عجل، فوجدت عواطف تقف حاملة براد
الشاي وعيناها المنكسرتان تنهيان وجهي. خطفت البراد من بين يديها
وخفية مرة تتموج بدخلي، غمغمت بحزن:

- يحبي متى تشعر بي؟

فأغلقت الباب دونها خوفاً من أن تأتي حياة على حين غرة.



دخل الليل كدخول الغرباء متدثراً بريح بارد وخطوة متعثرة،
واستوى الهلال في نصف استدارة يبين حيناً ويختبئ خلف سحب
شفافة أحياناً. كنت ذليلاً كذبول الليالي التي تعبر الجثث المتروية في
لحودها دون أن تحركها لحظة فرح، أو نشوة غامرة.

(تجلس الآن أمام المرأة تتطلع في فنتتها، هل أعبر خيلتها في
هذه اللحظة؟ هل غضبت مني حين حدثت أبيبها بتلك النبوة، ألم يكن
من الواجب أن أراعي مشاعرها؟.. ماذا يمكن فعله لأراها؟..
سأقول لها: أبوك مسخري، استعبدني، كذب عليّ، أكل جهدي،
سأقول لها: ارتضيت بكل ما حدث من أجل أن أبقى بجوارك.. هل
تصدقني؟ آه ماذا أفعل؟).

كنت محتاجاً لأغنية تحرك البهجة في أعماقي، تحملني على
أشروعها بين غوجاتها، توقفتني على أبوابها تروي بداخلي ذلك الأمل
الباهت من أن أكون خفقة بصدرها، أو لحظة غزل بين أهدائها.

كانت الإذاعات تلوك خبر تحرير الرقيق وتمجد الخطوة المباركة.
أوقفت المؤشر على صوت العرب فسمعت المذيع أحمد سعيد يتلو
تحليلاً لتحرير الرقيق بتشكيك وناسباً الفضل لجمال عبد الناصر الذي
حرك المياه الراكدة واصفاً إياه بمحرر العبيد، وأردف أنه سيحرر العالم
العربي من تخلفه.

كنت أستمع وسخري مرة ألوكمها من الجميع، ورغبة ملحة لأن
يحرمني عبد الوهاب بأغنيته (ألو لي هان الود عليه)، وكلما حركت
المؤشر سمعت طينياً من الشعارات تحملني للصفة الأخرى.

طرق الباب وسبقه صوته:

- يحى هل يمكنني الدخول؟

استويت في جلستي، فوقف منكسراً ومد يده للكرسي يجاورني
وجلس:

- عظم الله أجرك، لا أجد كلمات غير هذه. ولك الحق فيما
قلته وما ستقوله. وقبل ذلك عليك أن تعرف بأنني أصابني أبو التون
بدائه، بعد فعلته - التي أخبرتك بها - وجدت أنها طريقة سهلة
للعيش، ولكنني كنت في كل مرة أندم وأحاول أن أكف عن هذا
السلوك فلا أقدر.

(ها هو كشعبان يتحرك ويدفعني للتعاطف معه، لن أمكنه من
الضحك عليّ هذه المرة).

...- تصور كل هذه الألاعيب لم تجد. فيها أنا كما بدأت،
ظلمت أبحث عن وهم فإذا بي أدخل في أوام متعقدة حتى الحب
يتحول إلى وهم، نعيش فيه وعندما نصل إلى من نحب نكتشف أننا
كنا نخدع أنفسنا لنعيش في جو نحن نختلقه.

(لن أمكنه من مواصلة إحكام شركه، ولن أضعف.. لا لن
أضعف).

...- حتى تلك المرأة التي تركت أهلي من أجلها كانت سراباً
حقيقياً فعندما وجدت أنها كانت أبعد مما كنت أتصور. امرأة كبقية النساء
تتلطف إليها وتظنها مختلفة عنهن فإذا بها نسخة مكررة من بقية النساء،
أتصور أن متعة الحب في لوعته وعذابه اللذين يتركهما لنا لا في
الوصول إليه.

(لماذا أشعر بالخوار الآن، لماذا لا أصبح به: دع كل هذه
الألاعيب جانباً ولتفاهم فيما صنعت بي).

...- يحى لا تقع في شرك الوهم. إياك أن تقع.

(لماذا أظل صامتاً هكذا؟)

...- فالحياة أقصر من أن نمضيها في أوام.

(آه هذه فرصة مناسبة، نعم سأذكره أنه حول حياتي إلى أوام،
لا بد من أن أقول كلمة، لا بد أن انفجر في وجهه قبل أن يكمنني
وينسيني طعناته.. لا بد.. لا بد).

- لقد كذبت عليّ سنوات طويلة. كنت تقول إنك تدخر ما
أعطيك، وقد أوهمتني أنك تبعت بأموال لوالدي وتوصل رسائل وهمية
إني من عند أمي. كل هذا ألم تشعر بالذنب!

وارتفع صوتي ونفرت عروقي وتوترت أطرافي:

- ألم تفكر أنك كنت تخونني، وأنا الذي أسلمتك حياتي.

- إهدأ.. إهدأ، كنت أريدك أن تعيش فخلقت لك وهماً لتعيش

به.

- هذه خيانة.

- أنا كنت أرى أن هذه الوسيلة أفضل لكي تلتفت لمستقبلك.

- أي مستقبل هذا وأنا كنت أعيش في كذبة كبيرة، وما ذنب
أمي أن تموت وهي تظنني قد سبقتها للموت، وأنني ابن عاق وهي
التي علقت عليّ آمالاً كبيرة لأخرجها من عوزها.

- لو لم أفعل ذلك لأصررت على العودة وربما تلقفنتك يد
واستعبدتك.

- هذا القول لم يعد يصلح الآن، ولم يكن ليحدث هذا، بل
ضحمت هذا القول في مخيلتي حتى صدقتك وأصبحت الجدار الذي
يقف بيني وبين العودة لقريتي.

- على أية حال كنت خائفاً عليك.

- خائفاً عليّ!..!

- نعم خائف عليك، ولا زلت خائفاً عليك.

- من ماذا؟

- من تهورك.

أطلقت ضحكة جافة وضربت كفاً بكف:

- تهوري، لم أكن متهوراً في يوم من الأيام، لكنك ستجعلني
أتهور بأن أملك بربتك.

كان بارداً أصابني بحرق مضاعف حين مد رقبته وحشرها بين
يدي باستسلام:

- أرحني منها لقد أتعبتني كثيراً.

- لا أريد رقبتك، أريد أموالي.

- ليس بيننا حساب، فما أملكه لك وما تملكه لي.

- من قال هذا؟

- أنا أرى كذلك.

- ولكنني مصر على حقي.

- وأنا مصر على حقي أيضاً.

- أي حق؟

- حق إيوائي لك وحفظك من غربة، الله يعلم كيف كانت
ستكون لو لم أكفلك.

- تسرقني وتقول إيواءك. دع هذه اللعبة الجديدة واعطني
أموالي.

احتد فجأة وارتفع صوته:

- ليس معي قرش واحد.

- سأشكوك.

نهض متحسراً ولا زال صوته يتعالى:

- لم أكن أتصور أنني كنت أربيك كل هذا الوقت من أجل أن
تقف بي أمام الناس شاكياً، وقبل أن تفعلها تذكر أن ليس عندك ما
يثبت أنني مدين لك بشيء.

خرج كما دخل، وجلست ألن بروده وتحاذي.



من بعيد لمحته بقامته الطويلة يخترق السوق ويقبل باتجاهي وقد
حل شنطة كبيرة، وقف أمام الدكان مبتسماً وصاح:

- جئت لوداعك.

- إلى أين؟

- سأعود إلى قريتي. هذا أول اختيار سأمتحن فيه مقدرتي على
التخاذ القرارات التي تخصني. أعلم أن أهلي ربما نسوني ولكنني لا
زلت أتذكر أمي وأبي وإخوتي.

وصمت قليلاً يجاهد لإيقاف دموع ترفرت من عينيه:

- سأعود إليهم بعد كل هذا الزمن بدون غالب، سأشوق قلوبهم
إلى نصفين.

- سيفرحون بك.

- كل ما أخشاه أن أكون طارئاً عليهم أو راوياً لأحزان نسوها.

تأفف بضيق وقطم حديثه:

- لم آت لتحريك الأحزان، تعال لأودعك.

وفرد ذراعيه، واتسعت ابتسامته:

- هيا لتوداع الوداع الأخير، فربما لن نرى بعضنا بعد هذا

اليوم.

- انتظر حتى أرافقك.

- لا. دعك في عملك.

- لا يمكن.

وتحركنا باتجاه الموقف. كانت خطواته بطيئة خائرة يخطو وكأنه
ينتزع قدميه من وحل لزج تاركاً حقيقته تحمك بالأرض، فأبدت
استعدادي لحملها لكنه رفض وواصل سيره المتكاسل مكثراً من
الالتفات للخلف.

صامتين سرنا، تبتلعنا الأزقة والخواطر الساكنة بالبال. كنت
أشعر أن ثمة حسرة تلوب بياله على هذا الرحيل.

(هل هو العشق قيده فارتضى العبودية على الحرية؟.. هل جاء
قراره بعد أن فاتحها ووجد الصد فقرر أن يعيد زرع جذوره في تلك
القرية المنسية التي حدثني عنها؟.. لا شك أن ثمة نارا تتأجج بداخله
الآن. هل أذكر له وصية الصدفة التي طبقتها ولا زلت أنتظر
مفعولها. هل أطلب منه أن يعود ويجمع أثر هنادي ويصره في مندبل
ويكتب عليه (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب)، أعرفه تماماً
سيضحك من قلة عقلي، ماذا أصنع من أجله؟ من الواجب أن
أواسيه، ماذا عساني أن أقول له؟ هل أقول له انسها؟).

تموجت بداخلي ضحكة ساخرة وتضخمت بمخيلتي تلك
النصيحة (انسها.. انسها.. انسها، ألح عينيها تقفان على وجهي
وابتسامتها تسع وفهما يردد: انس.. انس).

فهربت إليه واضطرت أن أعيد سؤالي مرتين متتاليتين:

- لا زلت متحسراً على رحيلك؟

- نعم، فأنا عشت هنا سنين طويلة، تأقلمت مع حياتي هذه وقد نسيت كثيراً مما كنت عليه في قريتي، سأعود الآن غريباً.

- أليكون السبب هنادي.

- هنادي، لن أصل إليها أبداً، فهي من عالم آخر تعاملني كعبد.

- ألم تفتحها؟

- هل تظن أنني مجنون؟

وأطلق تنهيدة حارقة وكمن أراد أن ينهي بها الحديث:

- إنها تعاملني كعبد. كعبد، يكفي أنها تعيش في داخلي بين دمائي، يكفي هذا.

في الموقفة ارتصت السيارات والكمسارية ينادون بأصوات مستعجلة منادين بالركاب وذاكرين الجهات المتجهين إليها، امتدت يد أحدهم وسحبت حامد ليحشر شنتطته بين غفش المسافرين ويجلس في مؤخرة السيارة، معلقاً بصره نحوي. بقيت حتى تحركت سيارته مغادرة قتيادلنا تلويح الأيدي ولمحت رأسه يهتز وفمه يتسع ليظهر ناباً ركب على أخيه متناسقاً مع ذلك الغم العريض.



لا زلت أحمل له الضغينة.

هو أشبه بالماء يتسرب من بين أصابعك ويترك يديك مبللتين دون أن يرويك، وجهه المشرب بالخمرة موارب لا تعرف بماذا يفكر ولماذا يضحك، تشعر أحياناً أنه غابة من المفاجآت وحيناً تلمحه كطفلة موشكة على الكذب، لا زال كما عرفته أول مرة، لسان رطب يعرف

كيف يبلل كلماته، ويلدغك وأنت تبتسم ولا تقوى على اقتناص فرجة في أحاديثه التي تجذبك نحو فخاخه المعدة بإحكام.

جاءني ووقف بجوارني:

- ألا زلت غاضباً؟

.....

- أنت تذكرني بمأساتي، ومن المساوي أنني أعيد سيرة أبو النون، لكنني لم أصل إلى شيء. عدت أكثر يوساً مما مضى، مصيبي أنني ارتضيت هذه الخسة واكتشفت أنني غير قادر على فعل أي شيء. أصلح به أخطائي معك ومع الآخرين.

ونظر إليّ بانكسار واضحاً يده على كفتي بحنو (هل يتصنع كل هذا، أعرف تماماً مقدرته على الإقناع، هل يعرف أنني سأستسلم في نهاية الأمر؟.. لا لن أمكنه من السخريه مني مرة أخرى.. حتى في حالة انكساره يظل وجهه موارباً كطفلة موشكة على الكذب..).

واصل حديثه بنبرة شجية:

... يلازمني إحساس أن من أرتبط بهم يجبرني بكل أخطائي بكل النواقص التي أسير بها.. اقترف في أوقات كثيرة حماقات ولا أعتذر عنها ظاناً أن الآخرين سيفصفحون عني كما أصفح أنا عن حماقاتهم حين يرتكبونها ضدي، هذا ما أحس به. لذلك تجدي أنسي كثيراً من الواجبات التي عليّ أن أقوم بها. فعلى سبيل المثال سمعت بموت صالح الخنوني في إحدى سفراي ولم أمر لتقديم واجب العزاء لأهله. كنت أحس أن صالحاً رحل ورحل معه جزء من قلبي وهذا يكفي، وهكذا أنا مع جميع من أحب، قد أودهم لكنني أحبهم في نهاية الأمر.

صمت وهو يتطلع إليّ، وعندما رأيّ جامداً أتطلع إليه تساءل:
- أتصدقني؟

ودون أن ينتظر جواباً تابع حديثه:

... ربما لا تصدق، ولكنني لم أكن صادقاً كالיום، ولأول مرة أكشف هذا العجز الذي يعتريني، وأقول لك بصدق إنني طوال حياتي لم أكن أعرف ماذا أريد ولا زلت لا أعرف ماذا أريد، تنتابني حالات فأنجرف معها دون أن أحاطط لحوائفها. أنا لا أعرف لشيء وغير قادر على الاكتساب فأنا لا أعرف إلا الوعود الكاذبة، ومع معرفتي بهذه الخصال المبتذلة والسيئة التي أسير بها إلا أنني أحب كل الناس.

توقف عن الحديث كمن استنفد كل ما عنده وعندما رأيّ أتطلع إليه صامتاً حزني من كفتي:

- لا تصمت.. قل أي شيء.

.....

- قل أنت تكذب، قل أنت مدلس، قل أي شيء ولا تجلس صامتاً هكذا.

- وما جدوى الكلام الآن؟

مصمم شفتيه وردد:

- نعم ما جدوى الكلام الآن؟

وتحرك من أمامي عابراً بوابة البرندة، فصحت به:

- لتثبت لي صدق قولك أريد منك شيئاً واحداً فقط.

رجع إليّ مستبشراً وأمسك بكفتي:

- أشعر بغصة تجاهك وأتمنى بالفعل أن أقدم لك أي شيء تطلبه، قل ماذا تريد؟

ترددت كثيراً وبصوت واهن رددت:

- حياة.

- ما بها حياة؟

- أريدها زوجة لي.

تهللى وجلس بجواري عابثاً بشاربه وعيناه تومضان بوميض منطفيء، فاستحثته بصوت تعالت نبرته:

- ماذا قلت؟

- هذا الذي لا أستطيع تنفيذه. أطلب أي شيء آخر.

- لا أريد من هذه الدنيا سواها.

- هذا محال.

- ولماذا؟

- أتريد قطع رأسي علناً.

فتحت فمي على اتساعه مستنكراً:

- أيؤدي زواجي منها إلى قطع رأسك؟

- أنسي أن اسمك يحيى طاهر محمد الوصابي. أنت ابني في كل الأوراق الرسمية التي تحملها وحياة تصبح أختك ولو زوجتك لقطعوا رأسي في الحال.

أحسست برغبة جارفة لأن أقبض على عنقه. كنت أصبح به

بانفعال وأهزه هزاً عتيقاً:

- وهذه جناية أخرى.

استسلم لجذبي مردداً:

- ألم أقل لك إن الحياة لعبة رديئة نشتبك في صنع الفخاخ لبعضنا.

- دع هذه الحكم التي أثمرت على شفيتك مؤخراً، وأخبرني كيف يمكن أن نصحح الوضع وتزوجني بها.

- أنا الذي أسألك: كيف تصححه؟

- أن أغير اسمي وانتسب لأبي.

- الآن لا أقدر على تحمل أي عقوبة.

ونهض يجر قدميه لخارج البرندة ونار تحترق صدري ورائحة شياط تفوح بالمكان.



لم يعد أي شيء مستقراً بمكانه، ها هي حياتي تتقوض وأغدو رماداً متماسكاً. لم أعد قادراً على الاحتمال، وعليّ أن أبدأ بالبحث عن حياة جديدة، أن أغرس نفسي في مكان آخر، وأن أختلق حلماً جديداً، لم يعد بالإمكان البقاء، كان يمكن أن أغير هذا الاسم الذي ألصقه طاهر بي، وأن أعيد معه الكرة وأطلب حياة، كان يمكن ذلك قبل هذه الليلة، كان يمكن ذلك، أما الآن فلم يعد هناك معنى لأي محاولة.

الليل بوابة نعبها فنكتشف ذلك الخيط الأبيض فتنتشق غلالة

أحلامنا، ونفיק على أننا كنا نحلم، وأنا أمضينا ليلاً طويلاً من ذرف الأمانى الباردة. تلك الأمانى التي تلتصق بمخادعنا وتحترق بأشعة الشمس الصاعدة، كل يوم تطلع الشمس لتقتل حلماً كنا نعيشه.

عبثت الأزقة وحديث طاهر ينخر مخيلتي، وقررت أن أفتحه بعزمي على تغيير اسمي، وإصراري على الاقتران بحياة يتزايد. كانت خطواتي تعبر الطرقات المظلمة وعواء الكلاب يبتعد ويقترب، وبعض الأزقة شاحبة بضوء البلدية المتراقص بتخاذل، وقلة من الأقدام تسير باتجاهات متعددة كأشباح تومض في العين وتختفي.

أدرت المفتاح وسرت ببطء صوب تلك البرندة التي تحمل كثيراً من وحدتي وجلست أفكر بطريقة لإقناعه، وكلما حاولت أن أغفو شب السهد في أهدابي وأفقت كل الحكايات القديمة، ورفت عينا حياة بوميض سحري فبددت كثيراً من وحشتي، وتطرق بالبال عواطف للحظات وتذوي تاركة أختها تعبت بمخيلتي، تشب نارها وتجلس على بعد ترمقني وأنا أحترق.

مضى وقت وأنا أنقلب في مرقدتي وأللم مداخل لإقناع طاهر، سمعت صرير الباب يصير بانخفاض (هل خرج طاهر أم عاد؟.. يجب أن أقنعه، سأحدثه عن العشق الذي يأكل الصدور، سأذكره بمحبوبته التي باع الدنيا من أجل أن يصل إليها، سأستدرجه..، عليّ أن ألحق به قبل أن يصعد لمخدعه، أو أن أشاركه عشاءه إن كان خارجاً..).

تحركت على عجل، وعند الباب الخارجي لمحت شبح رجل وامرأة لا أنكرهما، سحبت من يده وانزويا جانباً، وأخذاً يهيمسان:

- تأخرت يا صالح.

- كنت أرقب الباب وخشيت أن يأتي يحيى ويلمحي.

- لقد جاء من وقت مبكر، كان الشوق يأكلني وأنا أنتظرك.

- لم أعد أطيق البعد عنك.

- حتى أنا، أراك في كل شيء وأحس بك في كل شيء، أنا مجنونة بك.

- أنا الذي فقدت عقلي، ولم أعد أحتمل، كلما جئت لزيارة يحيى أكون شاردأ عن سخافات وأحاديثه الممجوجة وأظل أبحث عن عينيك من خلال الشيش، أحبك.. أحبك يا حياة.

ضمها إلى صدره وارتفعت طرقة قبة، تجاذباها وغرقا سوياً ينهلان من بعضهما بلهات محموم.

أظن أنني هويت على الأرض، فارتطم جسدي بالحنفية المسندة بالمطبخ وقبل أن أغيب، كان جسدان يفترقان وصرير باب وأقدام تركض وأشعة شمس باردة تمشط جسدي لأفقي من حلم تبعثر وقلب يرف كطائر بلله مطر شتاء قارس.

أفقت تماماً، ودلفت للبرنذة، حرائق تشتعل ونصل عشق يتكسر، وحلم يشيخ، وحسرة تخضر بالفؤاد، وغربة جديدة تلوح في الأفق. ارتدبت ملايسي، واحترت أمام ذلك المندبل المصروع وتلك الجملة النائمة عليه بخط أنيق (اللهم ابعثني مع أهل هذا التراب) ترددت كثيراً قبل أن أحله، وبدون تفكير دسسته بجيبى وتركت كل شيء خلفي وانطلقت للموقفة.



وقفت من جديد بالموقف استعداداً لغربة جديدة.

لفط، وسيارات وسائقون وكمسارية وباعة ومسافرون، ورجل يركض في الزحام صائحاً:

- أغيثوني لقد ضاعت زوجتي.

عنقه أحد السائقين بكلمات نابية فرد عليه:

- هي غريبة وقد اختفت في هذه الزحمة.

فتقافز كثير من الرجال للبحث عنها، انتابني شعور بالارتياح وهاجس أخذ يلح بالبال:

- لست وحدك ضائعاً.

كان الرجل يصيح بانفعال ومن خلفه ركض شاب - أظن أنني لمحتة في مكان ما - يمسكان النساء ويتراجعان عندما تصيح النساء مستكبرات فعلهما.

وجدوها تسير بدون هدى في إحدى الطرقات وعادوا بها، كنت أسمع الرجل يصيح بها بانفعال:

- أين ذهبت؟

.....

- عليك ألا تتحرك إلا بأمرى.

.....

فناولها ثوبه صائحاً:

- امسكي بي.

فقبضت يدها على ثوبه باسترخاء، وهو يردد:

- لا تتحركي إلا بأمرى.

هزت رأسها، ولمحت عينيها من خلف البيشة - أظنهما كانتا دامتتين - أحسست بالشفقة عليها، وحين لاحظت عينا حياة أخذت أركض بحثاً عن سيارة تقلني للرياض.

حشرت جسدي بالسيارة وجلست بمقعد يجاوره مكان شاغر ارتضيت بموقعي متمنياً أن يظل المقعد الذي يجاورني شاغراً طوال الوقت، كنت أتوق لأن أظل وحيداً، لا أريد أحداً. فقط أريد استرجاع شجني وحيداً ولكي تتحقق هذه الأمنية وضعت شنطتي الصغيرة على الكرسي الشاغر وتقاذفتني الأسئلة:

- هل أحتاج لوقت طويل قبل أن ألتقي بخالتي، هل أجد طاهر آخر في طريقي، وحياة أخرى تسقط جبل الرماد المتماسك؟

كانت الأسئلة تلوب بمخيلتي وتكاثرت، سمعت صوتاً صارخاً مجتهداً:

- امسكي بي.

التفت، كان يجذبها بغلظة، غرست عينيها بوجهي:

- إنها هي، يبدو أنها عازفة عن السفر.

كان يتقدمها وهي تمسك بثوبه باسترخام وقدمها توسوسان بالتراجع أكثر من الإقدام، عينا الصغيرتان الدوديتان تصطدمان بعنف بكل العيون المحدقة بهما، جذبا من يدها نممات الخناء الدقيقة المتعرجة بيدها البضة، لكزني بكثفي:

- تقدم للأمام، واركب لنا هذين الكرسيين.

كان جلفاً فبادلته الصراخ:

- وهل اشتريتهما؟

رأيت عينيها من خلف البيشة كانت تنهب وجهي نهباً. ببرودة تسري بأوصالي، لا زال صوته يصير كبوابة باب حديدي صدى:

- استع فمعي أهلي.

- أبحت لك عن مكان آخر فلن أتحرك من مكاني.

جذبها مرة أخرى وهو يصيح:

- انزلي، لنبحث لنا عن سيارة أخرى.

كانت عيناها المخضلتان بالدموع تقفان على وجهي، جذبا بينما لا زال ذلك الفتى ينتظرهما بلبل، وعندما رآه ييم بالنزول صاح به:

ما الذي حدث؟

وقبل أن يرد عليه تدخل السائق ضاحكاً وموجهاً حديثه لي:

- ألا تريد الجلوس بجواري؟

فتمحرت مفسحاً المكان للرجل الفظ ولتلك المرأة الدامعة، عينا الدوديتان تتسعان بغنظ، وهو يمسك بيدها ويدفعها للمقعد الخلفي، سمعت هنتها - الآن تأكدت أن عينيها كانتا دامتتين.

- استوتينا في مقاعدنا، اقترب ذلك الفتى - الذي ينتظرهما - من النافذة ومد عنقه:

- عبد الله هل تحتاج لشيء.

كان رده مختصراً جافاً:

- لا.

فتعلقت تلك المرأة بالنافذة وهي توصيه :

- سلم لي على أمي وأخوتي .. قل لأمي ..

فلكرها بمرفقه لتصمت ، فصمت . وانطلقت السيارة تحب في الطرقات البعيدة ، آه ليس هنا حاد يحدو بنا القفار ويرطب وحشة اختمرت بقلوبنا ، من بعيد ، ومن تلك الرحلة البعيدة أفاق صوت الحادي وهو ينشد بصوت لين عذب ويتسرب لداخلي كحبات ندى الطل فيمور صدري ، وأحاول جاهداً كف دموعي من الانهمار مع تلك الكلمات الحارقة :

- يا مسافر وتارك حبيك

قله يترك عرفه في الشام

ولا في طريقك

تكومت بجوار النافذة والسيارة تعبر بقعاً نائية ، تقف عليها العين بشرود ولوعة تنبعث من هناك ، من أيامنا الأولى ، ومطرنا بالحنين .

أبحرت الأسئلة في خيالي تحذف وتدخلني في أنفاق من الظلمة ، وكلما خرجت من نفق سمعت ههنة تلك المرأة ، فالتفت إليها لأجد عينيها تقفان على وجهي وهي تخالس مرافقها النظرات العدائية فأهرب من عينيها بالنظر للطرقات القادمة فتتشجر بمخيلتي الأسئلة وتتقاذني لأنفاقها المظلمة .

المحتويات

إهداء	٥
استهلال	٧
الفصل الأول	١٥
الفصل الثاني	٣١
الفصل الثالث	٧٧
الفصل الرابع	١٠٩
الفصل الخامس	١٣٥
الفصل السادس	١٥٥
الفصل السابع	١٧٣
الفصل الثامن	١٨٥
الفصل التاسع	٢٣٧
الفصل العاشر	٢٩٥
الفصل الحادي عشر	٣٢٥